النظام الاجتماعي و الخلقي في الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]

وقال ﷺ: «**إنما بُعثت لأتممَ مكارمَ الأخلاقِ**»

[حديث صحيح]

النظام
الاجتماعي والخلقي
في الإسلام

الجزء الثاني
النظام الخلقي في الإسلام

تأليف
الدكتور محمد علي سلامة

أستاذ الثقافة والدراسات الإسلامية
كلية الآداب جامعة حلوان

مكتبة المتنبي

المملكة العربية السعودية
الدمام شارع المستشفى المركزي
هاتف / ٨٤١٣٠٠٠ / ٨٤١١٣٩٥
فاكس / ٨٤٣٢٧٩٤
ص.ب / ٦١٠ الدمام ٣١٤٢١

الطبعة الأولى
٢٠٠٦ م – ١٤٢٧هـ

رقم الإيداع

٢٠٠٥/٢٠٠٢٠

تقـديـم:

الحمـد لله مالـك الملـك والملكـوت، خلـق فسـوَّى وقـدر فهـدى، وعلَّم الإنسان مـا لم يعلم؛ حتى يستطيع إدراة شؤون حياتـه، وينظمها بمـا شـاء لـه الله؛ أن تنتظم حياتـه كلهـا في طاعـة الله سبحانه وتعـالى وعبادتـه، فجعـل النظام أساس العبادات؛ فالصلاة في أوقات منتظمة، وبطريقة منتظمـة؛ قراءة وركـوع وقيـام وسـجود وجلـوس، والزكـاة في مواسـم منتظمـة وبمقـادير محـددة، والصـوم بنظـام محـدد دقيـق، والحـج في وقـت محـدد مـن العـام وبمناسـك منظمـة، كـل ذلـك مـن أجـل أن يغـرس في نفسـه النظـام؛ ليكـون أساسًا لحياته وفي كل تصرفاته وسلوكياته.

وإذا كـان لُـبُّ الـدين وجوهره هـو النظـام؛ فـإن ذلـك لابـد أن ينعكس علـى تطـورات المجتمعـات الـتي نشـأت منـذ خلـق الله الإنسـان وأنزلـه علـى الأرض، ومنذ أن تكاثرت ذرية آدم وتكونت مجتمعات بشرية ربما كانت في البدايـة عشـوائية، لكنهـا في سـبيل تطورهـا أوجـدت لهـا أنظمـة تحكـم وجودهـا وعلاقـة أفرادهـا ببعضـهم، وهـذه الأنظمـة سـارت في مسـارين؛ الأول مـن نتـاج عقلـها وتفكيرهـا وتعاملـها مـع واقعهـا المـادي، والثـاني في ضـوء توجيهات إلهية تمثلت في الرسائل الإلهية لرسل اختارهم الله، وهم كُثر؛ إذ يقـول القـرآن الكـريم: ﴿**وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا**﴾ [النساء: ١٦٤].

وعبر تـاريخ البشـرية كلها حتى الرسـالة الخاتمة؛ رسـالة الإسـلام الـتي نزلت على سيد المرسلين محمد ﷺ.. لم يخرج عن هـذا الإطـار، أو بمعنـى أدق عن هـذين المسـارين، وقـد ظلَّ الأمـر كـذلك أيضًا بعـدها، فمـن النـاس مـن التـزم مـنهج الإسـلام في تشـكيلاته وتنظيماتـه الاجتماعيـة؛ فكـوَّن مجتمعًا

قويًا، كما هو الحال في عصر صدر الإسلام، وبعض فترات تاريخ الدولتين الأموية والعباسية، وكذلك في العصور التالية لهما في عصر الدول والإمارات، ومنهم من أعمل عقله وفكره واختار نظمًا اجتماعية مستمدة أركانها من بعض الفكر الإسلامي وأفكار وفلسفات أمم أخرى؛ فغلب عليها الطابع المدني أو البشري.

ولا شك أننا إذا عقدنا مقارنة بين المسارين كانت الميزة والتفضيل لتلك النظم التي استمدت مبادئها من مبادئ الدين الإسلامي الحنيف، ممثلاً في القرآن الكريم وسنة سيد المرسلين محمد ﷺ؛ لأنها شهدت أعظم تنظيم لحياتها وأقوم تشكيل لبنيانها الاجتماعي والاقتصادي على السواء.

وها نحن نقدِّم للقرَّاء كتابنا عن «**النظام الاجتماعي والخُلقي في الإسلام**»؛ لنبرهن على ما قلناه في الفقرة السابقة، ولندلل عليه بأسلوب علمي وعملي في آن واحد فيتضح للقارئ كيف تضمنت المبادئ الإسلامية أسسًا وقواعد من صرح شامل قائم على توجيهات إلهية منزَّلة من عند الله الذي يعلم السر وأخفى، والذي خلق الخلق ويعلم أين يكون موضع صلاحهم وموضع هلاكهم.

وقد جاء الكتاب في جزأين؛ اختصَّ الجزء الأول بالنظام الاجتماعي في الإسلام، بينما خُصِّص الجزء الثاني للنظام الخُلقي فيه.

وقام الجزء الأول على تقسيم نراه منطقيًا؛ حيث بدأ بتمهيد شمل ستة مباحث؛ تناول المبحث الأول: تحديد مصطلح «النظم»، والثاني: أهمية النظام في الكون والحياة، والثالث: مصادر النظم الإسلامية، والرابع: قصور العقل البشري عن تشريع النُّظم، بينما أوضح الخامس: كمال

الشريعة الإسلامية وشمولها لجوانب الحياة، واختص المبحث السادس: بإبطال فرية فصل الدين عن الحياة.

وكان هذا التمهيد ضروريًّا لوضع الأسس التي انبنت عليها الفصول التالية؛ لأنها اهتمت بتوضيح المفاهيم الأساسية التي قامت عليها فصول الكتاب الستة، والتي جاءت في صورة متدرجة.

فاختصَّ الفصل الأول ببحث واستعراض النظام الاجتماعي من كافة جوانبه في الفكر الإنساني، وفي آراء المفكرين الغربيين والعرب.

واستجلى الفصل الثاني أسس النظام الاجتماعي في الإسلام؛ والمتمثلة في العقيدة والعبادة والأخلاق والتعارف والتكافل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالعقيدة تمثِّل الأساس النظري والإيماني الذي تنطلق منه مقومات المجتمع المسلم، وتدعمها العناصر الأخرى؛ فالعبادة تدعم العقيدة وتحقق التواصل الاجتماعي، وكذلك الأخلاق والتعارف والتكافل، وهي عناصر تضمن وحدة الأمة، ويتجلى الحرص على مسار المجتمع في مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ الذي يمثل سياجًا يحفظ المجتمع من الانزلاق إلى مهاوي التردي والسقوط.

واستعرض الفصل الثالث العلاقة بين الفرد والجماعة من منظور إسلامي؛ حيث أوضح الأسس الإسلامية التي يجب أن تكون عليها علاقة الأفراد ببعضهم، وعلاقتهم بالمجتمع الذي يعيشون فيه، والضوابط التي وضعها الإسلام لهذه العلاقة.

واختصَّ الفصل الرابع بالحديث عن الأسرة في الإسلام والأصول الشرعية التي يجب أن تكون عليها، من خلال نصوص القرآن والسنة التي توضح أحكام الزواج والطلاق، وما يجب أن تكون عليه علاقة الزوج

بزوجه، باعتبار أن الأسرة هي الخلية الأساسية في التكوين الاجتماعي، وإذا ضمنًا أسرة متكاملة منظمة منضبطة أخلاقيًّا وإسلاميًّا ضمنًا مجتمعًا متماسكًا متناميًا متطورًا إلى الأفضل.

وكان لزامًا أن يتبع ذلك حديث عن المرأة في الإسلام؛ لنرد بذلك على الشبهات والأباطيل التي يردِّدُها البعض حول الأسرة في الإسلام، فاختص الفصل الخامس بالحديث عن المرأة في الإسلام.

بينما اهتم الفصل السادس بدحض هذه الشبهات المثارة من أعداء الإسلام خاصة حول قضايا المساواة ومعاملة المرأة والمواريث.. وغيرها من المماحكات التي تثار هنا وهناك.

ونحن بهذا الطرح نطمح إلى أن نكون قد قدمنا بناءً متكاملاً منتظمًا حول النظام الاجتماعي في الإسلام، الذي نرى أنه قدم تصورًا مثاليًّا للتشكيل الاجتماعي للمجتمع الفاضل الذي يعيش فيه أفراده آمنين على حاضرهم وعلى مستقبلهم، لا يداخلهم خوف، ولا يقاربهم شك في دنياهم وآخرتهم على السواء، فإذا صلحت دنياهم طابت آخرتهم؛ ولا يكون ذلك إلا في ظل الإسلام وأحكامه التي تضمن لهم صلاح الدنيا؛ حيث يسلكون فيها بما يرضي الله، فتكون آخرتهم طيبة.

والذي لا شك فيه أن عنوان كل مجتمع أخلاقه، فهي العلامة الدالة على منهج هذا المجتمع؛ أفرادًا وجماعات، فإذا كانت أخلاق مجتمع فاضلة مثالية كان هذا المجتمع مثاليًّا، وإذا كانت عكس ذلك كان المجتمع ماديًّا شهويًّا، ينحو منحى تحقيق المصالح المادية القصيرة والرغبات الوقتية، وكان الصراع الأخلاقي عنوانًا دالاً عليه، بمعنى تحديد منهجه وهويته؛ لأن الأخلاق نابعة من صميم معتقد الفرد ومنعكسة على سلوكه.

وهذا ما جعلنا نخصص الجزء الثاني للنظام الأخلاقي في الإسلام؛ لنوضح مدى تكامل النظام الأخلاقي الإسلامي وشموله للجانب الروحي، بخلاف النظم الأخرى حتى الدينية منها، فإذا كانت «التوراة» قد حاولت علاج الجانب المادي في الإنسان ووضع ضوابط له وحددت عقوباتها على هذا الأساس، و«الإنجيل» ركّز على الجانب الروحي ليقاوم طغيان المادة على سلوك اليهود.. فإن «القرآن الكريم» و«سنة النبي» ﷺ قد شملا الجانبين معًا، فوضعت ضوابط لمتطلبات الإنسان المادية وسلوكه اليومي من أجلها، كما وضعت ضوابط لسلوكه الروحي؛ بحيث يكبح جماح الرغبات المادية والشهوانية للإنسان من غير نكران لها بالكلية فيخالف فطرة الله التي فطر الناس عليها.

وقد جاء هذا الجزء في مقدمة قصيرة توضح مدى الحاجة إلى النظام الخلقي الإسلامي، وستة فصول.

عُني الفصل الأول بمفهوم «النُّظم» وأنواعها، ومفهوم «الأخلاق»، وقد جاء في خمسة مباحث؛ اهتم المبحث الأول بمفهوم «النُّظم» وأنواعها وأهمية النظام في الحياة وحاجة الناس إليه، والمبحث الثاني بمفهوم «علم الأخلاق»، وكان من الضروري أن يبدأ بتحديد مصطلح «العلم» بصورة مبسطة؛ لأننا نراعي القارئ العادي والمثقف المتوسط، وتبعه تعريف للأخلاق، ثم مفهومها عند الفلاسفة بعامة وفي الفلسفة الإسلامية بخاصة، واختص المبحث الثالث بمفهوم علم الأخلاق الإسلامية، وتبعه المبحث الرابع بالحديث عن أهمية النظام الأخلاقي في الإسلام، وأوضح المبحث الخامس الغاية من الأخلاق بصفة عامة والأخلاق الإسلامية بصفة خاصة.

وتناول الفصل الثاني منزلة الأخلاق في الإسلام، وجاء في تمهيد وثلاثة مباحث؛ تعرض المبحث الأول لأهمية الأخلاق في الإسلام، والمبحث الثاني لمدى ضرورتها ومكانتها في الإسلام؛ لأنها عنوان هذا المجتمع الإسلامي العظيم الذي ينشده الدين؛ ولذلك تناول المبحث الثالث مدى ارتباط الأخلاق بالعقيدة والعبادة ومدى التأثير والتأثر بينهما؛ فالعقيدة القوية تفرز أخلاقًا عالية، وتدعمها العبادة؛ التي تعد وسيلة ضابطة للأخلاق وحاكمة لها، بل ومعينة عليها، وإلا ما قال الله ﷻ: ﴿**إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ**﴾، وفي الزكاة: ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا**﴾.

وكلٌّ من العقيدة والعبادة يوضحان بجلاء مفهوم الخير والشر؛ ولذلك جاء الفصل الثالث مفسرًا موضحًا لمعيار القيم في النظم الخلقية وفي الإسلام، واقتصر على مبحثين فقط؛ يتعلق الأول بمعيار القيم في النظم الأخلاقية المعاصرة، ومقياس الخير والشر فيها، بينما أوضح المبحث الثاني معيار القيم في الإسلام من الناحية الموضوعية والذاتية والداخلية، وهذا الأمر يتطلب بالضرورة أمرين: إلزامًا والتزامًا؛ إلزامًا يتمثل في التوجيهات الإلهية، والتزامًا يتمثل في طاعة الأفراد لهذه التوجيهات برغبة داخلية ذاتية، وهذا لا يكون إلا ناتج عقيدة قوية والتزام بالعبادات بانتظام.

ولهذا عُني الفصل الرابع بتقرير مبدأيْ «الإلزام» و«الالتزام» الأخلاقي في الإسلام، فتناول المبحث الأول الاتجاهات الوضعية المختلفة في الإلزام الأخلاقي وكيف اتسمت بالقهر البشري، ثم تناول المبحث الثاني رأي الإسلام في الإلزام الأخلاقي، واستعرض المبحث الثالث مجالات الإلزام الأخلاقي ودرجاته، والمبحث الرابع خصائص الإلزام الأخلاقي في الإسلام، وتناول المبحث الخامس المسؤولية الأخلاقية من جميع زواياها؛ مفهومها ومجالها وأقسامها بحسب جزاءاتها.

وركّز الفصل الخامس على خصائص النظام الأخلاقي في الإسلام.

واستعرض الفصل السادس نماذج تطبيقية من المجال الخلقي الإسلامي، وجاء في ثمانية مباحث؛ عُني المبحث الأول بخلق التحبب إلى الناس، والثاني بخلق الأمانة، والثالث ببر الوالدين، والرابع بالصدق، والخامس بالصبر، والسادس بالرحمة، والسابع بالحثّ على التواضع والنهي عن الكِبر، والثامن (الأخير) بالنهي عن الغيبة والنميمة، وكلها مؤصلة في القرآن الكريم وفي سنة النبي العظيم محمد ﷺ؛ الذي كان خُلقه القرآن، وكان قرآنًا يمشي على الأرض!

وهكذا يكتمل البناء ليوضح لنا معنى حديث الرسول ﷺ: «**إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق**» وكيف طبَّقه رسول الله ﷺ على أرض الواقع؛ ليرسم لنا معالم نهتدي بها في حياتنا التي هي مزرعة آخرتنا.

والقارئ لهذا الكتاب يجد أمرين واضحين:

الأمر الأول: البساطة واليسر والخلو من التحليل الفلسفي والفكري العميق، وذلك مقصود؛ ليكون في متناول معظم القُرَّاء، وليتناسب مع متوسطي الثقافة، وليس المتخصصين المتعمقين؛ أي أن يكون -مثلاً- في متناول الطالب الجامعي الذي يهمنا أن يرتبط بدينه وبمبادئه وأخلاقه؛ حتى لا يتوه في زحمة ما يلقَّنه من معلومات وعلوم، وليفيد منه في حياته العملية والاجتماعية حين يرى أفضلية النظام الاجتماعي الذي يضع دينه الإسلامي أسسه، فيحصن نفسه أمام التيارات الوافدة عليه، والتي بدا أثرها واضحًا في التغيرات الاجتماعية التي انتابت المجتمع الإسلامي بتأثير من «العولمة» الوافدة عليها، والتي يهمها إزاحة النظام الإسلامي من طريقها؛ لأنه يمثل لها معوِّقًا كبيرًا بحكم ضوابطه الإيمانية التي تحمي أي مجتمع من الانزلاق والانهيار.

الأمر الثاني: المنهج الذي التزمناه في هذا الكتاب؛ وهو المنهج الوصفي المدعم بالتوثيق؛ حيث نأخذ في وصف الظاهرة، بداية من تحديد المفاهيم، ثم استعراض كل جزئياتها، وبناء عليه جاءت هذه المباحث كثيرة العدد في كل فصل؛ حرصًا على الاستقصاء العلمي الشامل للموضوع؛ بجانبيه الاجتماعي والأخلاقي الإسلامي، وكان لزامًا التدليل على كل نقطة من النقاط بنصٍّ من القرآن والسنة؛ ليكون وثيقة على ما نقول.

وهنا نلفت النظر إلى ملاحظة مهمة؛ وهي التكرار، فقد استدعت طريقة العرض هذا التكرار؛ لأننا أحيانًا نجد النصَّ وثيقة على هذا الموضوع أو ذاك، وهو أمر شرعي عادي، خاصة إذا تأملنا كتب الحديث الصحيحة؛ وعلى رأسها «البخاري» و«مسلم»؛ فإننا سنجد أحاديث كثيرة مكررة في أبواب مختلفة؛ لأن حديث الرسول ﷺ موجز معبر وواسع الدلالة في آن واحد، وهذا ما أفاد علماء الأصول حين تصدوا لتفنين علم الفقه، وأصحاب المذاهب حينما وجدوا في حديثه ﷺ الملاذ والملجأ لتوسعاتهم الفقهية في الأحكام وتعريفاتها.

ونحن بهذا نأمل أن نكون قد قدمنا جرعة ثقافية وعلمية وتعليمية للقارئ، يفيد منها في حياته وبعد مماته، يعرف دينه وثقافته، ويلتزم في سلوكه بما عرف وخبر، والله نسأل أن ينفع به، ولا ندعي إحاطة شاملة لأن «فوق ذي علم عليم»؛ ولأنه سبحانه وتعالى قال: ﴿**وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ [الإسراء: ٨٥]، فإن كان به قصور فهذه سمة أي جهد بشري، وحظنا منه اجتهادنا قدر طاقتنا، ولا يكلّف الله نفسًا إلا وسعها، والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل.

المؤلف

مقدمة الجزء الثاني :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، خلق فسوى، وقدَّر فهدى، والصلاة والسلام على خير أنبيائه وسيد أصفيائه؛ سيدنا محمد، الذي زكَّاه ربه وأعلى قدره وخُلقه؛ فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1]، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين، الذين هُدوا إلى الحقِّ وإلى الطريق المستقيم.

وبعد ؛

فإن النُّظم الإسلامية لها أصول ثابتة يجب الإقرار بها والعمل بموجبها في الفكر والسلوك والتطبيق، ومن يدعي غير ذلك فقد اتبع هواه، وجنح إلى الأساطير والأباطيل وأضغاث الأحلام!

ومن هذه النُّظم النظام الخُلقي الإسلامي؛ فهو بعضٌ من كلٍّ قائم على أصول راسخة، أساسها القرآن الكريم والسنة المطهرة، بخلاف النُّظم الأخلاقية الأخرى القائمة على الماديات التي لا تلبث أن تزول؛ لأنها من عند البشر الخاضع للنقص من جانب وللهوى من جانب آخر.

إن النظام الخلقي الإسلامي الذي يستلهم أصوله من الكتاب والسنة هو أفضل خُلق يمكن أن يختاره الإنسان في هذه الدنيا؛ ذلك أنه يمتاز بالكمال في كل شيء، فلا يجد المتأمل تناقضًا فيه ولا نقصًا؛ ولهذا فإن للمسلم أخلاقًا تعزُّ على غيره معرفتها، ويفتقر غير المسلمين إليها؛ لأنها من عند الله تعالى إلى رسوله، ومن عند الله ورسوله إلى الناس، فقد جاء الرسول ﷺ

---

(١) سورة القلم: الآية (٤).

والبشرية في فوضى شاملة وعقائد زائفة، ضاعت فيها الأخلاق، وسادت فيها شريعة الغاب، فجاءهم بنظام كامل ودستور شامل، يتصل بكل مرافق الحياة فيمنحها النور، فكان كاملاً في أخلاقه، مثاليًّا في تشريعاته، سعدت البشرية ما تمسكت به وسارت على نهجه المستقيم، وتخاذلت ووهنت عندما حادت عن آدابه، وعسى أن يرجع الناس إلى صوابهم ويستنيروا بهدى دينهم؛ ليكونوا خير أمة أخرجت للناس.

ومن هنا تغدو دراسة النظام الخلقي في الإسلام على قدر من الأهمية في حق المسلم وغيره؛ خاصة في ظل وجود الاتجاهات والأنظمة الأخرى.

وفي هذا الكتاب نتحدث عن النظام الخلقي في الإسلام وفي الأنظمة الأخرى، ومنزلة الخلق في الإسلام، ومعايير الأخلاق في الإسلام، والمقارنة بينها وبين المعايير الموجودة في المجتمعات المعاصرة، وأساس الإلزام والالتزام الخلقي، وذكر خصائص النظام الخلقي الإسلامي، ثم نذكر نماذج تطبيقية من سيرة الرسول ﷺ وصحابته الأبرار؛ لتكون مثلاً يُقتدى به، ولكي يعرفَ المسلم ما في شريعتنا من نظم صالحة لكل زمان ومكان؛ لأنها من عند الله ﷻ.

والله نسأل أن يكون عملنا هذا عملاً نافعًا ومُتقبَّلاً، يفيء إليه طلبة العلم فيجدون فيه بغيتهم، ومن الله وحده نستلهم التوفيق والسداد؛ إنه أكرم مسؤول وأعظم مأمول.

المؤلف

الفصل الأول

مفهوم النُّظم وأنواعها ومفهوم الأخلاق والغاية منها

و يشتمل على عدة مباحث :

المبحث الأول: مفهوم النُّظم، وأنواعها، وحاجة الناس إليها.

المبحث الثاني: مفهوم الأخلاق في اللغة وعند الفلاسفة.

المبحث الثالث: مفهوم علم الأخلاق الإسلامية.

المبحث الرابع: أهمية النظام الأخلاقي الإسلامي.

المبحث الخامس: الغاية من الأخلاق.

المبحث الأول

مفهوم النُّظم وأنواعها
وحاجة الناس إليها

وهذا المبحث يشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: مفهوم النُّظم وأنواعها.

المطلب الثاني: أهمية النظام في الحياة وحاجة الناس إليه.

المطلب الأول

مفهوم النُّظم وأنواعها

مفهوم النظم:

تعريف النُّظم في اللغة[1]:

النُّظم جمع «نظام»، وتُطلق في اللغة على عدة معانٍ؛ فتُطلق ويراد بها: الترتيب والتأليف؛ يقال: نَظَمْتُ الشِّعرَ نَظْمًا، ونَظَمْتُ الخرزَ نظْمًا؛ أي: رتَّبْتُه وألَّفتُ بينه.

وتُطلق ويراد بها: التنسيق والتكبير.

وتُطلق ويراد بها: العادة والسلوك.

ويتسع مدلول النُّظم ليشمل كل ما يتعلق بحياة الإنسان في الزمان والمكان؛ مثل تنظيم أوقات العمل والراحة والتزاور، ومثل تنظيم البناء للسكن، وتنظيم الأرض للزراعة.. وغير ذلك.

تعريف النُّظم في الاصطلاح:

التعريف العام للنظم: تُعرَّف النُّظم تعريفًا عامًّا بأنها: «مجموعة الأحكام التي تنظِّم حياة المجتمع في كل شؤون الحياة، والتي يلتزم بها الناس لتحقيق التقدم والرقي والسعادة»[1].

---

(١) انظر في تعريف النُّظم لغة: مختار الصحاح: ص٦٩٨، القاموس المحيط: ٤/ ٢٨٥، لسان العرب: ٥/ ٢٢١، معجم مقاييس اللغة: ٥/ ٤٤٢.

تعريف النُّظم في الإسلام:

النُّظم في الإسلام هي: «مجموعة الأحكام التي تنظّم حياة الناس من خلال قواعد الشريعة الإسلامية الغرَّاء في جميع مجالات الحياة»[٢].

ومن خلال تحديد معنى النُّظم في الإسلام نرى أن النُّظم الإسلامية تنظم حياة الفرد والمجتمع من خلال الكتاب والسنة النبوية؛ في علاقة الإنسان بربه وبنفسه وبأهله وبالمجتمع وبمن يخالفه في الدين، فالنُّظم الإسلامية عامَّة وشاملة، وهي أيضًا نُظم مستقلة ومتميزة عن غيرها من أنواع النُّظم الأخرى في كل شيء[٣].

فالنُّظم الإسلامية أساسها قائم على العقيدة الصحيحة، وهي في ذات الوقت تلتزم في التطبيق والتنفيذ بالخُلق الصحيح، كما أنها لا تُغفل شأن الوسيلة، بل ربطت بين الوسيلة والغاية؛ فلابد أن تكون الوسيلة مشروعة حتى نصل بها إلى الغاية المرجوَّة، وهي أيضًا تكون مشروعة[٤].

أنواع النُّظم:

لابد من وجود نظم في أي مجتمع، فهذه النُّظم هي التي تسود وتحكم المجتمع، وتتعدد النُّظم وتتنوع في الدولة؛ فهناك نظمٌ دينية، ونظمٌ سياسية، ونظمٌ اجتماعية، ونظمٌ اقتصادية.. وإليك بيان كل نوع:

---

(١) النُّظم الإسلامية: ص٨.

(٢) المرجع السابق: ص١٢، الفلسفة الخُلقية: ص١١٥، التعريفات: ص١٢٥.

(٣) النُّظم الإسلامية: أبو سمك وآخرون، ص٦.

(٤) المرجع السابق.

أولاً: النُّظم الدينية أو التشريعية:

وهي تلك النُّظم التي تتضمن مجموعة الأحكام والتشريعات والقوانين المتصلة بالعقيدة والعبادات وصِلة الإنسان بربه وبأسرته(١).

ثانيًا: النُّظم السياسية:

وهي تلك النُّظم التي تشتمل على مجموعة من الأحكام والدساتير التي تحكم بها الدولة رعيتها(٢).

ثالثًا: النُّظم الاقتصادية:

وتتضمن الأحكام والقوانين التي تحكم المعاملات الاقتصادية في دولة معينة؛ من بيع وشراء.. وغير ذلك من المعاملات الاقتصادية(٣).

رابعًا: النُّظم الاجتماعية:

وهي مجموعة العادات والتقاليد التي تحكم مجتمعًا معينًا بذاته ويتعامل بها الناس في حياتهم اليومية(٤).

---

(١) علم الأخلاق الإسلامية: ص٢٠.
(٢) النُّظم الإسلامية: ص٩.
(٣) المرجع السابق.
(٤) النظام الخلقي: ص١٠.



المطلب الثاني

أهمية النظام في الحياة وحاجة الناس إليه

الناس جميعًا في حاجة إلى تنظيم وتقنين واطمئنان وثقة في حياتهم، وهذا لا يتأتى إلا بوجود نظام فاعل يوجههم إلى ما يَصْبُون إليه.

وهذا النظام الفاعل الذي نقصده هو ذلك النظام الذي يُعنى بالفرد والجماعة اللذين يمثلان المجتمع، الذي بدوره لا يمكن أن يتميز بالاستقرار والانتظام إلا مع وجود سلطة حاكمة.

فالنظام في أي مكان أمر لا غنى عنه، فهو ضروري لدوام الحياة وتقدُّمها وتقدم الحضارة، وهو ضروري باعتباره علمًا من العلوم، وكل علم لازمٌ للإنسان.

وقد ذكرنا أن للنُّظم أنواع كثيرة، ولهذه النُّظم أهميتها في أي مجتمع، وإذا أمعنَّا النظر في النُّظم على اختلاف أنواعها نجد أن لها في نظر الإسلام أهمية قصوى في الحياة الإنسانية؛ سواء كانت نظمًا أخلاقية أو اجتماعية أو سياسية أو علمية... إلخ.

وترجع أهمية وجود النُّظم في الحياة الإنسانية في نظر الإسلام إلى ما يلي:

(١) أن هذه النُّظم تمثل صورة الإنسان الباطنة والظاهرة معًا؛ سواء كان ذلك في العبادات أو غيرها؛ ففي الصلاة نظام؛ حيث حُدِّدت أوقاتها وكيفية أدائها، وهو نظام بديع قلَّما يأتي تشريع مثله[1]، فالمسلم عندما يعرف أوقات الصلاة فهو منظَّم، وعندما يصلي الفرض في وقته فهو منظَّم، وعندما يعرف أركان الصلاة وسننها فهو منظَّم، وصدق رسول الله ﷺ عندما علَّم أصحابه كيف يصلُّون فقال: «صلُّوا كما رأيتموني أُصلِّي»[2]، وهكذا الحال في سائر العبادات؛ من زكاة؛ حيث التنظيم الفاعل في مقدارها وكيفية توزيعها ومن يستحقونها، وكذلك الصيام؛ وذلك النظام في الإمساك عن شهوتيْ البطن والفرج من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس، وأما الحجُّ؛ فأداء مشاعره ما هو إلا نظام وتنظيم وترتيب وتنسيق يفعله الحجيج في أيام الحج، وكل ذلك مأخوذ من قول النبي ﷺ: «خذوا عني مناسككم»[3]، وكذلك الحال في المعاملات؛ حيث وجود النظام والتنظيم في كيفية البيع والشراء والتجارة والزراعة والصناعة.. ونحو ذلك.

---

(١) الإيمان والحياة: القرضاوي، ص٢٠٤، النُّظم الإسلامية: ص١٤.

(٢) حديث صحيح، رواه أصحاب السنن.

(٣) مسند الإمام أحمد: ٢/ ٢٠٧.

(٢) إن النُّظم الإسلامية بها يستتب الأمن وتقلُّ الجريمة ويُحارَب الحرام؛ فالمسلم المنظَّم العارف للحلال والحرام إذا ما تمسك بهذه النُّظم الإسلامية في حياته اليومية استتب الأمن وانتشر العدل وقلَّت الجريمة.

(٣) إن النُّظم الإسلامية تتضمن أصول التربية الصحيحة، والتي بدورها تؤثر في الضمير وتحرِّك الوجدان وتحيي المروءة في الإنسان.

(٤) تظهر أهمية النُّظم الإسلامية فيما لها من أثر في سلوك الفرد وسلوك المجتمع، أما أثرها في سلوك الفرد؛ فلما تزرعه في نفس صاحبها من انضباط في جميع أمور الحياة، وأما أثرها في سلوك المجتمع؛ فالنظام هو الأساس لبناء المجتمعات الإنسانية؛ إسلامية كانت أم غير إسلامية.

إن نظامنا الإسلامي يُسهم في بناء مجتمع واحد بعيد عن التمزق، مجتمع تسوده روح التكامل والمحبة؛ يقول الله تعالى: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا**﴾[1].

وإذا كان للنُّظم هذه الأهمية فلا شكَّ أن الناس يكونون في احتياج شديد إليها، وإذا تعلق الأمر بالنُّظم الإسلامية فهم في احتياج أشد إليها؛ وذلك لما يلي:

(١) إذا كان الناس في حاجة إلى من ينظِّم لهم شؤون حياتهم فأولى بهم أن يحتاجوا إلى خالقهم، وأولى بهم أن يستجيبوا لأوامره ويطبِّقوا

(١) سورة آل عمران: الآية (١٠٣).

نُظمَه وشرائعه، ولا غرابة أن تكون البشرية كلها في حاجة ماسَّة إلى النُّظم الإسلامية في الحياة كلها؛ في التعليم والاقتصاد والاجتماع والصحة.. ونحو ذلك.

(٢) إن الناس في أشد الحاجة إلى النُّظم الإسلامية؛ لأنها نُظم نابعة من العقيدة الإسلامية الصحيحة، التي مصدرها الكتاب والسنة.

(٣) يحتاج الناس إلى النُّظم الإسلامية لصلتها الوثيقة بالأخلاق الفاضلة، والأخلاق الفاضلة يظهر أثرها في جميع أمور الحياة.

(٤) يحتاج الناس إلى النُّظم الإسلامية لأنها نظم حاكمة ومربِّية للفرد والمجتمع معًا[1].

(١) النظام الاجتماعي: ص٢٧ - ٢٩، بتصرف.

المبحث الثاني

مفهوم علم الأخلاق

الأخلاق علم مثل سائر العلوم الإنسانية؛ له أصوله وقواعده الثابتة، وهو أحد العلوم الإسلامية التي تقوم على مصادر المعرفة الإسلامية؛ المتمثلة في القرآن والسنة والمصادر التشريعية الأخرى.

وفي هذا المبحث نتحدث عن مصطلح «العلم»، والمفهوم العام للأخلاق، ثم نتحدث عن مفهوم علم الأخلاق الإسلامية؛ وذلك فيما يلي:

تحديد مفهوم كلمة «العلم»:

العلم يخدم الحياة في جميع دروبها، وبه تتكون شخصية الإنسان الواعد المستنير.

العلم في الاصطلاح اللغوي:

من عَلِم يعلَم عِلْمًا، والمصدر منه: العِلْمُ، والفاعل: عالِم، قال تعالى: ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ**﴾[1]، وصيغة المبالغة: علاَّم، ومنه قوله تعالى: ﴿**عَلاَّمُ الْغُيُوبِ**﴾[2]، والعلم نقيض الجهل، والعلم صفة من صفات الله تعالى، فقد وصف نفسه بالعلاَّم والعالِم والعليم، ويأتي في اللغة بمعنى: الإدراك واليقين والنور والمعرفة[3].

---

(١) سورة الأنعام: الآية (٧٣).

(٢) سورة المائدة: الآية (١٠٩).

(٣) لسان العرب: ٥/ ٣٢٦، المعجم الوسيط: ٢/ ٦٢٥، مختار الصحاح: مادة (علم).

العلم في الاصطلاح:

- عرَّفه البعض بأنه: الاعتقاد الجازم المطابق للواقع[1].
- وعرَّفه البعض بأنه: إدراك الشيء على ما هو عليه[2].

ومن خلال التعريفين السابقين يمكن أن يُعرَّف العلم اصطلاحًا بأنه: «مجموعة من المعارف العلمية المتجانسة التي تتعلق بموضوع واحد متميز، له قواعده وأسسه ومعاييره؛ كـ«علم الكلام» و«علم الفقه» و«علم الفلك» و«علم النحو» و«علم الهندسة»... إلخ»[3].

و«العلم» بالتعريف السابق يختلف عن المعرفة؛ فالمعرفة إدراك حقيقة الشيء في أي ميدان من ميادين الحياة، أما العلم فهو إدراك حقيقة الشيء في ميدان واحد من العلوم، والعلوم كثيرة، وأصنافها عديدة، والسؤال المطروح هنا:

هل الأخلاق علم؟

والإجابة: نعم، الأخلاق علم من بين العلوم، بل هو من أعظم العلوم وأجلِّها، بل إن بعض العلماء سمَّى الأخلاق بـ«علم الواجب»؛ أي أنها علم يعرف به الإنسان الواجبات كما يجب أن يفعلها[4].

---

(١) التعريفات: للجرجاني، ص١٥٥، محاضرات في الثقافة الإسلامية: أحمد جمال، ص١٥.

(٢) المرجعين السابقين، وانظر: الثقافة الإسلامية: عبد الرحمن الشافعي، ص٤.

(٣) لمحات في الثقافة الإسلامية: عمر عودة الخطيب، ص٤٠.

(٤) الأخلاق الإسلامية: حسن الشرقاوي، ص٥٨، كلمات في مبادئ الأخلاق: دراز، ص٢٥.

تعريف الأخلاق:

يقتضي الأمر أن نتحدث عن هذه الكلمة «الخُلق» من حيث معناها، وذلك من عدة جوانب؛ فنبحث عن معنى «الخُلق» في اللغة، وعند الفلاسفة، وعند علماء المسلمين:

* معنى «الخُلق» في لغة العرب:

جاء في «مختار الصحاح»: الخُلْق؛ بسكون اللام وضمِّها: السجيَّة[1].

وفي «القاموس المحيط»: الخُلُق؛ بضمتين: بمعنى السجيَّة والطَّبع والمروءة والدين، والخَلْق؛ بفتح فسكون: بمعنى التقدير[2].

وفي «لسان العرب»: الخُلُق؛ بضمتين: الطبيعة، وجمعها: أخلاق، والخُلُق: السجيَّة[3].

وفي «أساس البلاغة»: الخَلْق: بمعنى التقدير، واستُعملت في القرآن مجازًا بمعنى: الإيجاد بتقديرٍ وحكمةٍ[4].

ومن العرض السابق لـ«الخُلُق» في اللغة نجد أنها تأتي بمعنى: السجيَّة والطبع والمروءة والدين والتقدير.

---

(١) مختار الصحاح: مادة (خلق).

(٢) القاموس المحيط: مادة (خلق).

(٣) لسان العرب: مادة (خلق).

(٤) أساس البلاغة: مادة (خلق).

* مفهوم الأخلاق عند الفلاسفة:

هناك اتجاهات فلسفية متعددة ومختلفة في منهجها؛ مثل الاتجاه الاجتماعي، والاتجاه المثالي، والاتجاه التجريبي، والاتجاه الواقعي، والاتجاه النفعي.. وغير ذلك من الاتجاهات الفلسفية، وكل اتجاه من الاتجاهات السابقة عرَّف «الأخلاق» وحدَّد معناها وخصائصها وفقًا للفلسفة التي يعتنقها.

ونعرض فيما يلي لمفهوم الأخلاق عند كل اتجاه فلسفي:

(١) مفهوم الأخلاق في الاتجاه الاجتماعي الوضعي:

تُطلَق «الأخلاق» عند هذا الاتجاه على مجموعة من الأفكار والأحكام والعواطف والعادات التي تتصل بواجبات الناس وحقوقهم، كما أنها تُطلق على العلم الذي يدرس مجموعة هذه الظواهر وتطبيقاته.

وبناء على ذلك؛ فإن مفهوم الأخلاق في نظر الاتجاه الاجتماعي هي كونها: علمًا وضعيًّا واقعيًّا يدرسُ سلوك الإنسان مرتبطًا بزمانه ومكانه.

وهذا الوصف ذهب إليه «ليفي بريل» و«دوركايم»[1].

(٢) مفهوم الأخلاق عند الاتجاه النفعي:

ينظر هذا الاتجاه للأخلاق من خلال المنفعة التي تعود على المجتمع أو على الشخص نفسه.

---

(١) الفلسفة الخُلقية: توفيق العويل، ص٣٧٤، علم الأخلاق الإسلامية: ص٣٦.

وبناء على هذا الاتجاه؛ فإن الأخلاق ما هي إلا: منفعة شخصية أو عامة، بحسب ما تجلبه من خير ونفع يعود على الشخص نفسه أو على المجتمع[1].

(٣) مفهوم الأخلاق عند الاتجاه المثالي:

يعرِّف هذا الاتجاه الأخلاق بأنها: السلوك الإنساني كما ينبغي أن يكون وفقاً للمثل العليا التي توجب على العقل البشري أن يسايرها.

* الأخلاق في الفلسفة الإسلامية:

لو نظرنا إلى مفهوم الأخلاق عند فلاسفة المسلمين نجد أن لهم في ذلك ثلاثة اتجاهات:

الأول: اتجاه عقلي.

الثاني: اتجاه روحي.

الثالث: اتجاه يجمع بينهما.

الاتجاه الأول: الاتجاه العقلي:

يمثله الفلاسفة وبعض المتكلمين؛ مثل ابن رشد والفارابي وابن سينا، وهذا الاتجاه ظهر بصورة أوضح لدى الفيلسوف الإسلامي «ابن مسكويه»، والذي تأثر بالفلسفة اليونانية[2].

---

(١) المذاهب الأخلاقية: عادل العوَّا، ٢/ ٣٧٨.

(٢) الفلسفة الخُلقية: توفيق الطويل، ص١٦١، الفلسفة والأخلاق: محمد كمال جعفر، ص٢٧٢.

وقد عرَّف «ابن مسكويه» الخُلق بأنه: «حالة للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية، وهذه الحال تنقسم إلى قسمين: منها ما يكون طبيعيًّا من أصل المزاج؛ كالإنسان الذي يحركه أدنى شيء نحو غضب، ومنها ما يكون مستفادًا بالعادة والتدريب، وربما كان مبدؤه بالرويَّة والفكر، ثم يستمر عليه أولاً فأولاً.. حتى يصير ملَكةً وخُلقًا»[1].

والخلاصة:

فإن هذا الاتجاه يفسر المبادئ الأخلاقية بالعقل، ويجعل غايتها غاية عقلية ثابتة، وأساس الفضيلة هو التصرف بمقتضى العقل والحكمة[2].

الاتجاه الثاني: الاتجاه الروحي:

وتتبلور الأخلاق عند هذا الاتجاه في الاهتمام الزائد بإصلاح الباطن، وذلك عن طريق معرفة النفس ونوازعها ورغباتها، وتطهير القلب وتصفية الروح من الرذائل، والتحلي بمكارم الأخلاق، والتفاني في الإخلاص لله في جميع الأمور، وتنمية العلاقة القائمة على المحبة والمودة والتآخي بين الناس، والتفاني في الفداء والإيثار، والاهتمام بالجانب العملي والتطبيقي من الأخلاق أكثر من الاهتمام الجانب النظري؛ لأن العمل هو الأهم[3].

(١) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق: لابن مسكويه، ص٣١.

(٢) الرسالة القشيرية: للقشيري، ص٢١٧.

(٣) علم الأخلاق الإسلامية: مقداد يالجن، ص٤٤، ٤٥.

الاتجاه الثالث:

وهـو اتجـاه وسـط يجمـع بـين الاتجـاهـين السـابقين؛ حيـث أخضـع قـوى النفس المختلفة لحكم العقل وسلطانه؛ وهو مـذهب الاتجـاه الأول، كمـا أنـه أخضـعها إلى الجوانـب الروحيـة والمتمثلـة في تطهـير الـنفس وتصـفية الـروح والتحلي بالمبادئ الأخلاقية؛ وهو مذهب الاتجاه الثاني[1].

وهذا المذهب تزعَّمه الإمـام الغزالـي رحمه الله؛ حيث عـرَّف الأخـلاق بأنها: «عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسـر، من غير حاجة إلى فكر ورويَّة؛ فإن كانت الهيئة بحيث تصـدر عنهـا الأفعـال الجميلـة المحمـودة عقـلاً وشـرعًا سُـمِّيت تلـك الهيئـة خُلقًـا حسـنًا، وإن كـان الصادر عنها الأفعال القبيحة سُمِّيت الهيئة التي هي المصدر خُلقًا سيئًا»[2].

(١) إحياء علوم الدين: للغزالي، ٣/ ٥٣، ميزان العمل: ص٥٠.

(٢) إحياء علوم الدين: ٣/ ٥٣.

المبحث الثالث

مفهوم علم الأخلاق الإسلامية

بعد أن عرضنا لمفهوم الأخلاق في اللغة، وعند الفلاسفة على اتجاهاتهم المختلفة؛ سواء كانوا فلاسفة وضعيين أو فلاسفة إسلاميين.. نتحدث هنا عن الأخلاق في الإسلام كعلم مستقل بذاته.

علم الأخلاق في الإسلام هو:

«علم الخير والشر والحسن والقبيح[1]، وهو أحد العلوم الإسلامية التي تقوم على مصادر المعرفة الإسلامية؛ مثل القرآن الكريم والسنة النبوية والمصادر التشريعية الأخرى، بل هو أهم العلوم الإسلامية وأشرفها، والذي ينظر في مبادئ الشريعة الغرَّاء يجد أن جوهرها يكمن في تحقيق الخير ودفع الشر»[2].

والذي يدل على صدق ما نقول أن الشريعة الإسلامية تحقق روح الأخلاق بالتشريعات الملزِمة لدفع الناس إلى طريق الخير والصلاح، وردعهم عن طريق الشرور والمفاسد، ولا تتحقق للإنسان السعادة إلا بذلك[3].

---

(١) كلمات في مبادئ الأخلاق: ص٢٥، القيم الخلقية: ص٨٨.

(٢) المرجعين السابقين.

(٣) علم الأخلاق الإسلامية: ص٥٥.

وقد فهم ذلك أحد حكماء العرب؛ وهو «أكثم بن صيفي»، الذي قال عندما دعا قومه إلى الإسلام: «إن الذي يدعو إليه محمد لو لم يكن دينًا لكان في أخلاق الناس حسنًا»[1]!

وما ذكرناه يعدُّ جانبًا من مفهوم الأخلاق في الإسلام، وهناك جانب يعطي المفهوم السابق أهميته؛ وهو تكامل الجانب النظري مع الجانب العملي منه.

ثم إن هناك شيئًا آخر هامًّا لابد منه؛ وهو أن النظام الأخلاقي ليس جزءًا من نظام الإسلام الشامل، بل إن الأخلاق هي جوهر الإسلام وروحه من جميع جوانبه، كما ذكرنا[2]؛ مصداق ذلك قول النبي ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[3]، وفي الحديث دليل على أن أهداف الرسالة المحمدية بناؤها على الأخلاق الكريمة، وأن الرسول ﷺ بُعث ليتمم البناء الأخلاقي الذي بدأت به الرسالات السماوية السابقة[4]؛ وفي هذا يقول عليه الصلاة والسلام: «مثلي ومثل الأنبياء كمثل رَجلٍ بنى دارًا، فأتمَّها وأكملها إلا موضع لبنة، فجعل الناس يدخلون ويتعجبون منها، ويقولون: لولا موضع اللبنة! فأنا موضع اللبنة؛ جئت فختمت الأنبياء»[5].

---

(١) مختارات من روائع الأدب العربي: عبد السلام سرحان، ص٥٣٢.

(٢) القيم الخُلقية: ص٨٧.

(٣) رواه أحمد في المسند: ٢/ ٣٨١.

(٤) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: الفيروزابادي، ٢/ ٥٦٥.

(٥) رواه مسلم في صحيحه، انظر: صحيح مسلم بشرح النووي، باب ذكر كون النبي خاتم الأنبياء، ١٥/ ٥٣.



إذن فهدف الرسالات كلها هدف أخلاقي؛ فجميعها جاءت لترشد الناس إلى الخير وتبعدهم عن الشر، وهذا هو علم الأخلاق الذي نتحدث عنه[1]؛ ولهذا قال الرسول ﷺ: «الدين حُسن الخلق»[2]، وقال ﷺ: «ما من شيء أثقل في الميزان من خُلقٍ حسن»[3]، وقد ورد عنه أيضًا قوله: «حسن الخلق: خلق الله الأعظم»[4]، وقد سئلت عائشة -رضي الله عنها- عن خُلق رسول الله ﷺ؛ فقالت: «كان خُلقه القرآن»[5].

وقد سمَّى البعض الأخلاق بـ«علم الواجب»؛ أي العلم الذي يعرف به الإنسان الواجبات كما يجب أن يفعلها[6].

إن الإسلام ربط بين جوانب الحياة برباط أخلاقي لتحقيق غاية أخلاقية؛ ولهذا لا نبالغ إن قلنا: إن الأخلاق في الإسلام هي روح الرسالة المحمدية، وإن النظام التشريعي يعدُّ صورة مجسمة لهذه الروح[7].

وبعد هذه التحليلات لمفهوم علم الأخلاق في الإسلام يمكننا أن نضع تعريفًا للأخلاق الفاضلة؛ وهي مبتغى كل إنسان، وتعريفًا للأخلاق الذميمة.. فنقول:

---

(١) الأخلاق الإسلامية: حسن الشرقاوي، ص٦٠، النظام الأخلاقي في الإسلام: عقلة، ص٥٧.

(٢) هذا الحديث قال عنه الحافظ العراقي في هامش «الإحياء» ٣/ ٥٢: «أخرجه المروزي في مسنده، في تعظيم قدر الصلاة، من رواية أبي العلاء بن الشخير مرسلاً».

(٣) رواه الترمذي في سننه، وقال: حديث حسن صحيح، ٣/ ٨٥، شرح مختصر سنن أبي داود: ٧/ ١٧٢.

(٤) التاج الجامع للأصول: كتاب الأخلاق، ١٥/ ٦٢.

(٥) رواه مسلم في صحيحه: كتاب صلاة المسافرين، ١/ ٥١٢.

(٦) علم الأخلاق «تركي»: نقلاً عن مقداد يالجن. علم الأخلاق الإسلامية: ص٤٩.

(٧) المرجع السابق ص٥٧.

الأخلاق الحسنة أو الفاضلة هي: «أنماط السلوك الحسن والخيِّر والمعروف في الحياة؛ سواء كان هذا السلوك ظاهرًا أم باطنًا، يصدر من الإنسان بإرادة، ويهدف إلى تحقيق غاية»[1].

والأخلاق الذميمة «السيئة» هي: «أنماط سلوك الشر والمنكر والقبيح من الأقوال والأفعال»[2].

- هذه «أخلاقنا» التي تناسب الفطرة الإنسانية التي فطر الله الناس عليها.
- هذه «أخلاقنا» التي لا انحراف فيها ولا تغيير؛ لكونها مبنيَّة على عقيدة صحيحة.
- هذه «أخلاقنا» التي تمتاز ببثِّ روح التميز لهذه الأمة؛ في القول والعمل والسلوك.
- هذه «أخلاقنا» التي تمتاز ببساطتها ووضوحها، والتي تخاطب العقل؛ لكونها قائمة على الإقناع والحُجة والبرهان[3].

(١) علم الأخلاق الإسلامية: مقداد يالجن، ص٥٧، التربية الأخلاقية: أبادير حكيم، ص١١٧.

(٢) المرجع السابق.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم: ابن تيمية، ص١٢، الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية: ص٢٨، الإيمان والحياة: ص٥١.

المبحث الرابع

أهمية النظام الأخلاقي الإسلامي

عرفنا أن النظام هو مجموعة الأحكام التي تنظّم حياة الناس، وأن النظام الأخلاقي بوصفه علمًا هو ما يُعرف به الخير والشر والحسن والقبيح.

وللنظام الأخلاقي الإسلامي أهمية قصوى في حياة الناس في كل زمان ومكان، وهذه الأهمية تبرز في النقاط التالية[1]:

أولاً: إن هذا النظام يُبرِز المُثل العليا لكل عامل في كل مجال؛ سواء كان ذلك على مستوى الفرد أم مستوى الجماعة، وهي مُثُل منبثقة عن شجرة الإيمان بالله تعالى والتمسك بشريعته في ضوء الكتاب والسنة النبوية المطهرة.

ثانيًا: إن هذا النظام في ضوء تلك المُثل سوف يوضّح الأخلاقيات الخاصة بكل عامل في كل ميدان؛ في الحياة الأسرية، وكيف يعامل الإنسان نفسه وزوجه وولده، وفي الحياة العامة مع الغير، وكيف يتعامل مع الغير بصدق وعدل ورحمة ووفاء وتواضع وصبر، وكيف يكون عمله في المصنع أو الشركة أو الحقل... إلخ.

---

(١) علم الأخلاق الإسلامية: مقداد يالجن، ص١٣.

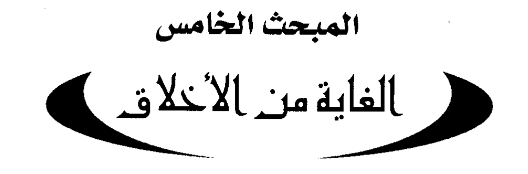
ثالثًا: إن هذا النظام عندما يتحول إلى التطبيق؛ عن طريق التربية الأخلاقية الشاملة لكل فرد في جميع أمور الحياة.. سوف يكون الشعور بالمسؤولية الأخلاقية في ضوء المعايير الأخلاقية في بناء الشخصيات، فعندما يتحمل الشخص نتيجة التزاماته وقراراته أمام الله أولاً، وأمام ضميره ثانيًا، وأمام المجتمع.. تظهر ثمرة ذلك النظام الأخلاقي الفريد من نوعه، فعندما يشعر الأب أنه مسؤول عن بيته، والمرأة أنها مسؤولة عن زوجها وأولادها.. تظهر ثمرة ذلك النظام؛ وذلك من خلال قوله ﷺ: «كلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته، والأمير راعٍ ومسؤول عن رعيته، والرجل راعٍ على أهل بيته ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده؛ فكلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته»[1]، وعندما يحسُّ العامل أنه مسؤول عن هذا العمل تظهر ثمرة ذلك النظام في الحياة... وهكذا في كل ميادين الحياة.

وسوف نتحدث عن ذلك تفصيلاً في ثنايا البحث.

---

(1) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: كتاب النكاح، باب المرأة راعية في بيت زوجها، ٩/ ٢٩٩.

المبحث الخامس



الغاية من الأخلاق

إذا كان للأخلاق غاية.. فما هي هذه الغاية؟

يكاد جميع من درس الأخلاق يجيب على هذا السؤال فيقول: إن الغاية من الأخلاق هي السعادة.

وإذا كنا قد عرفنا أن الغاية من الأخلاق هي السعادة؛ فما هي حقيقة هذه السعادة؟

اختلفت الاتجاهات الفلسفية في بيان حقيقة السعادة.

فالبعض يرى أن السعادة هي: «كلُّ ما يشعر به الإنسان نتيجة إشباع دوافعه الطبيعية وغرائزه الجنسية».

والبعض يرى أن السعادة هي: «إخضاع السلوك لحكم العقل، واتباع قوانينه، والتمسك بالفضائل التي يأمر بها».

والبعض يرى أن السعادة هي: «الرضا الروحي والسكينة، وتكتمل هذه السعادة بصورة مؤقتة عند الوصول إلى الله ومعرفته معرفة كاملة؛ عن طريق التطهير والتأمل»[1].

---

(١) المشكلة الأخلاقية: زكريا إبراهيم، ص١٤٧، علم الأخلاق الإسلامية: مقداد يالجن، ص٦٢ وما بعدها.

هذه اتجاهات أصحاب المذاهب الفلسفية في بيان معنى السعادة التي هي غاية الأخلاق.

وإذا نظرنا إليها بقليل من التأمل نجد أن البعض يُرجِع السعادة فقط إلى اللذة والمنفعة.. وهذا قصور واضح؛ فليست كل لذة ومنفعة تحقق السعادة، فما أكثر اللذات والمنافع المحرَّمة التي تجلب الهمَّ والحزن في نفوس أصحابها!

والبعض يُرجِع السعادة إلى حكم العقل.. وهل العقل وحده يصلح لتحقيق السعادة؟ فما أكثر العقول الخاوية الضالَّة المضِلَّة!

والبعض يُرجعها إلى الروح والضمير والدافع النفسي.. وكما نعلم أن الدوافع النفسية وحدها لا تحقق السعادة في الحياة الاجتماعية[1].

بقي لنا أن نعرف غاية الأخلاق في الإسلام.

الغاية من الأخلاق في الإسلام:

ذكرنا آنفًا أن الأخلاق هي جوهر النظام الإسلامي في الحياة، وأما عن اتجاه الإسلام نحو الغاية؛ فنجد أن الأخلاق الإسلامية وُضعت من أجل خير الإنسان وتحقيق السعادة له في الدنيا والآخرة معًا، وأن حقيقة هذه السعادة تتمثل في الشعور الدائم والمستمر بالراحة والطمأنينة؛ نتيجة إحساسه بخيرية الحياة وخيرية المصير[2].

فالسعادة التي هي الغاية من الأخلاق في الإسلام تقوم على تحقيق ثلاثة أمور:

---

(١) المرجع السابق، وانظر: مذهب المنفعة العامة في الإسلام، توفيق الطويل، ص٤١.

(٢) أصول المنهج الإسلامي: ص٤٤٩، علم الأخلاق الإسلامية: ص٦٧.

(١) الإحساس بخيرية ذات الإنسان.

(٢) الشعور بخيرية الحياة.

(٣) الشعور بخيرية المصير.

الأمر الأول:

وهو الإحساس بخيرية ذات الإنسان؛ فحتى يتحقق هذا الأمر لابد من صحة العقيدة وصحة العقل وصحة النفس.

الأمر الثاني:

وهو الإحساس بخيرية الحياة؛ فحتى يتحقق هذا الأمر لابد من شعور الإنسان بذاته، وسلامته من الأمراض، وتحقيق مطالبه الأساسية والضرورية.

الأمر الثالث:

وهو الشعور بحرية المصير؛ وهذا يتوقف تحققه على تحقيق الأمرين السابقين؛ فالإنسان لا يشعر بخيرية مصيره إلا إذا رسخت العقيدة الصحيحة في قلبه، وعمل بمقتضى هذه العقيدة[1].

وفي الأمور الثلاثة السابقة تتجلى الغاية من الأخلاق في الإسلام؛ إذ جمعت بين طياتها خيريْ الدنيا والآخرة؛ وبيان ذلك فيما يلي:

---

(١) المرجع السابق، انظر: لمحات في وسائل التربية الإسلامية، محمد أمين المصري، ص١١٦.

أولاً: تأثير العقيدة الصحيحة في سعادة الفرد:

للعقيدة الإسلامية الصحيحة تأثير واضح في سعادة الفرد؛ فبها يشعر المسلم بحلاوة الإيمان؛ ولهذا قال الرسول ﷺ: «ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذف في النار»[1]، وبها يشعر بطمأنينة القلب؛ يقول تعالى: ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[2]، ويقول تعالى: ﴿لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[3]، وبها يشعر بالرضا واليقين؛ وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: «إن الله ﷻ بحكمته وجلاله جعل الرَّوح والفرح في الرضا واليقين، وجعل الغمَّ والحزن في الشك والسخط»[4]، وبها يشعر بالتوكل على الله والثقة به مع ما قُدِّر له من التسبب؛ يقول تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[5]، ويقول سبحانه: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾[6]، ويقول رسول الله ﷺ: «لو توكّلتم على الله حقَّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير؛ تغدو خماصًا وتعود بطانًا»[7]، ويقول النبي ﷺ للأعرابي: «اعقلها وتوكل»[8].. وهكذا في

(١) اللؤلؤ والمرجان مما اتفق عليه الشيخان: ١/ ٩.

(٢) سورة الرعد: الآية (٢٨).

(٣) سورة البقرة: الآية (٢٦٠).

(٤) انظر: كنز العمال بهامش مسند الإمام أحمد، ١/ ٢٥٧.

(٥) سورة هود: الآية (١٢٣).

(٦) سورة المزمل: الآية (٩).

(٧) حديث صحيح.

(٨) حديث صحيح.

كل أمور الحياة؛ فإن للعقيدة الصحيحة أثرها الفاعل في أخلاق المسلم، ولا يشك في ذلك إلا كافر أو مكابر أو ضعيف العقل[1].

ثانيًا: صحة العقل وسعادته غاية خُلقية إسلامية فريدة:

لكي تتحقق الغاية الخُلقية الإسلامية يجب أن يكون العقل صحيحًا وسعيدًا، ويكون بطريق الوقاية من كل ما يخدِّر العقل أو يضرُّه، وتحريم ذلك تحريمًا قطعيًّا، ويكون أيضًا بإعمال العقل؛ بالتدبر والمعرفة والحكمة[2].

ثالثًا: تحقيق الصحة الكاملة غاية خُلقية إسلامية:

ولكي تتحقق الصحة العامَّة يجب اتباع ثلاثة أمور[3]:

(١) الوقاية من الأمراض: وذلك عن طريق النظافة والطهارة في كل شيء؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «الطهور شطر الإيمان»[4]، وقال ﷺ: «إن الله نظيف يحب النظافة»[5]، وأمر بالابتعاد عن الأمراض المُعدية والأماكن الموبوءة؛ فقال: «فر من المجذوم فرارك من الأسد»[6]! وقال: «لا يورد

(١) أخلاقنا: الجوهري، ص١٣.

(٢) المرجع السابق.

(٣) علم الأخلاق: ص٥٩.

(٤) رواه مسلم في صحيحه: كتاب الطهارة، ٣/ ١٠٠.

(٥) التاج الجامع للأصول: كتاب اللباس، ٣/ ١٦٢.

(٦) صحيح البخاري مع فتح الباري: كتاب الطب، ١٢/ ٢٦٥.

ممـرض علـى مصـح»[1]، وقـال: «إذا سمعـتم بالطـاعون بـأرض فـلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها»[2].

(٢) تحقيق حاجات الإنسان بحكمة واعتدال: دون إسراف أو تبذير؛ يقول تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[3]، ويقول ﷺ: «إن المؤمن يأكل في معى واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء»[4]!

(٣) الاعتدال في التعبُّد، والنهي عن الإفراط والتنطع فيه؛ يقول رسول الله ﷺ: «هلك المتنطعون»[5]! وقد نهى النبي ﷺ عن التبتل[6].

(٤) الاعتدال في ميدان العمل: فهو ضروري؛ لأن الإرهاق في العمل يؤدي إلى الإضرار بالصحة[7].

رابعًا: تحقيق الأمن غاية خُلقية إسلامية:

الأمن نوعان: أمن داخلي، وآخر خارجي:

وفيما يتعلق بالأمن الداخلي: فقد دعا الإسلام إلى بعض الأمور التي تحقق ذلك؛ منها: ذكر الله تعالى؛ لأن القلوب تطمئن بذكر الله؛

(١) صحيح البخاري بشرح العسقلاني: كتاب الطب، ١٢/ ٢٦٧.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: كتاب الطب، ١٢/ ٢٨٩.

(٣) سورة الأعراف: الآية (٣١).

(٤) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: كتاب الأطعمة، ١١/ ٤٥٦.

(٥) صحيح مسلم: كتاب العلم، ٤/ ٢٠٥.

(٦) رواه الحاكم في المستدرك: كتاب النكاح، ٢/ ١٥٩.

(٧) علم الأخلاق الإسلامية: ص٩٦.

﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[1]، ومنها دعوته إلى أن يكون الله ملجأ الإنسان في السرَّاء والضرَّاء، ويقول ﷺ في الحديث القدسي عن رب العزَّة: «من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعته الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس عبدي المؤمن؛ يكره الموت وأنا أكره مساءته»[2]!

وأما تحقيق الأمن الخارجي؛ فإن النظام الأخلاقي الذي وضعه الإسلام يكفل للفرد الأمن الخارجي، فقد أوجب احترام الفرد وحمايته، وحرَّم القتل والسرقة والغصب والاختلاس والزِّنا والقذف[3].

بعد هذا العرض لتحقيق السعادة في الدنيا التي هي الغاية من الأخلاق في الإسلام؛ يبقى الأمر الأخير والذي به تكتمل هذه السعادة؛ وهو: الشعور بخيرية المصير.

وعن الشعور بخيرية المصير:

فهو أمر هامٌّ يبتغيه كل مسلم، وحتى تتحقق هذه السعادة في رأي الإسلام لابد من أن يشعر بخيرية المصير، وهي الغاية المرجوَّة، وبها تتحقق السعادة الكاملة، وهذه الغاية هي الفوز برضا الله والدخول في دار الجنان؛

---

(١) سورة الرعد: الآية (٢٨).

(٢) انظر: الأحاديث القدسية، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية (مصر)، ١/ ٨١.

(٣) علم الأخلاق الإسلامية: ص٦٩.

دار السعادة الأبدية[1]؛ ولذا قال الله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ❁ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ❁ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ❁ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[2].

تلك السعادة الحقيقية هي رضا الله ودخول الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر؛ يقول الله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾[3]، ويقول سبحانه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ❁ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ❁ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ❁ لاَّ تَسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةً ❁ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ❁ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ❁ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ❁ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ❁ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾[4].

وقد روي عن رسول الله ﷺ قال: «ينادي منادٍ في أهل الجنة: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تشبُّوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تيأسوا أبدًا»[5].



وبعد؛

فهذه هي الغاية من الأخلاق في الإسلام؛ تحقيق السعادة للفرد والمجتمع في ضوء الكتاب والسنة، تلك السعادة التي لا تقتصر على السعادة في الدنيا فقط، وإنما تشمل السعادة في الآخرة؛ ولذلك كان الجمع والوضوح جليًّا.. شعورًا بخيرية الذات، وبخيرية الدنيا، وبخيرية الآخرة.

---

(١) المرجع السابق: ص٨١.

(٢) سورة الفجر: الآيات (٢٧ -٣٠).

(٣) سورة محمد: الآية (١٤).

(٤) سورة الغاشية: الآيات (٨ -١٦).

(٥) التاج الجامع للأصول: ٥/ ٤٢٢.

الفصل الثاني

منزلة الأخلاق في الإسلام

- أهمية الأخلاق في الإسلام.
- مدى ضرورة الأخلاق ومكانتها في الإسلام.
- ارتباط الأخلاق بالعقيدة والعبادات.

الفصل الثاني

منزلة الأخلاق في الإسلام

تمهيد:

الأخلاق أمر مهمٌّ لا غنى عنه، فهو من الأسس الثابتة لدوام الحياة وتقدُّمها وتقدم الحضارة، وهي ضرورية لتحقيق السعادة للبشر، وهذا أمر يدعو إليه الإسلام ويشير إليه، وكيف لا؛ والإسلام في جوهره نظام خُلقي؟! ومن هنا تأتي هذه المنزلة العظيمة للأخلاق في الإسلام، والسبب في ذلك أن أخلاقنا الإسلامية إذا كانت نمطًا للعمل والسلوك في الحياة فإن كل حركة وسكنة من الإنسان أخلاق؛ فعمله لكسب قُوتِه وقوت أولاده أخلاق، وعمله لمساعدة الآخرين أخلاق، وإيمانه بالله الواحد الأحد وعبادته له أخلاق، بل إن معاملة الإنسان للكائنات الحية الأخرى بالرفق أخلاق! كذلك تحمُّله أعباء الحياة والصبر على ما يصيبه من المصائب فيها أخلاق[1].

إذن فإن أي سلوك يحقق الخير للذات الفاعلة أو لغيرها يعد أخلاقًا، طالما كان الإنسان يريد بسلوكه هذا عمل الخير لوجه الله قبل كل شيء، يدل على ذلك قول رسول الله ﷺ: «عجبًا لأمر المؤمن؛ إن أمره كلَّه خير،

(١) المشكلة الأخلاقية: زكريا إبراهيم ص١٤٥.



وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرَّاء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيرًا له»[1].

ثم إن هناك مبادئ أخلاقية عامة؛ مثل الصدق والأمانة والرحمة والحياء والإخلاص.. ونحو ذلك، لابد من مراعاتها في جميع الأقوال والأفعال.

وعن منزلة الأخلاق للحياة الإنسانية نتحدث عن أهميتها ومدى ضرورتها ومكانتها في الإسلام، ثم مدى ارتباطها بالعقيدة والعبادات؛ وذلك في ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: أهمية الأخلاق في الإسلام.

المبحث الثاني: مدى ضرورة الأخلاق ومكانتها في الإسلام.

المبحث الثالث: ارتباط الأخلاق بالعقيدة والعبادات.

(١) صحيح مسلم: كتاب الزهد والرقاق، باب ١٤، ٤/ ٢٩٥، انظر: جامع الأصول في أحاديث الرسول، ٩/ ٣٦٨.

المبحث الأول

أهمية الأخلاق في الإسلام

ذكرنا في المقدمة أن نظام الإسلام للحياة الإنسانية نظام خُلقي في **الجوهر والمقصد؛ لذلك جعل** له من الأهمية ما يفوق غيره من النُّظم **الأخلاقية الوضعية، والسبب في** ذلك أنه من عند الله تعالى.

إن أهمية الأخلاق في الإسلام يُنظر إليها من اعتبارات متعددة **وأساليب مختلفة، فينظر إلى الأخلاق** وعلاقتها بالبناء الشخصي الإنساني، **وارتباطها بالعقيدة والشريعة، ثم أثرها** في سلوك الفرد والجماعة الإنسانية. فهذه اعتبارات **ثلاثة** تبين مدى أهمية الأخلاق في الإسلام، وإليك بيان ذلك:

(١) علاقة الأخلاق ببناء الشخصية: من المعلوم أن الإنسان جسد وروح، والأخلاق الإسلامية تمثل الجانب الروحي في المقام الأول؛ وهو جانب الروح، والذي محله القلب، فالإنسان يُقاس بأخلاقه وأعماله المعبِّرة عن هذه الأخلاق، ولا يقاس بعرضه ولونه وطوله وفقره وغناه[1]؛ ولذلك جاء الخطاب الجامع من عند الله تعالى والذي يدل على أن العبرة بالخُلق والعمل الصالح؛ حيث قال سبحانه: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾**[2]، ويوضح النبي ﷺ أن العبرة بالعمل والخُلق الصالح؛ فيقول: «إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى

---

(١) التربية الأخلاقية الإسلامية: مقداد يالجن، ص١٢٦.

(٢) سورة الحجرات: الآية (١٣).

صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[1]، ويقول أيضًا: «لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا، إنما هُم فحم جهنم! أو ليكونُن أهون على الله من الجُعَل[2] الذي يدهده[3] الخُرء بأنفه! إن الله أذهب عنكم عُبية[4] الجاهلية وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقي، وفاجر شقي، الناس بنو آدم، وآدم خُلق من تراب»[5].

(٢) ارتباط الأخلاق بالبنية الدينية؛ عقيدة أو شريعة: وهذا أمر معلوم لكل من له فكر وروية بأمور الإسلام؛ فالعقيدة الصحيحة هي الأساس للأخلاق الفاضلة، فهي مرتبطة بها؛ لاستقرارها وعدم العبث بها، وعلى هذا نجد أن العقيدة دون خُلق شجرة لا ظلَّ لها ولا ثمرة، والخُلق دون عقيدة ظلٌّ لشبح غير مستقر[6].

والأخلاق أيضًا مرتبطة بالشريعة ارتباط وثيق؛ فالشريعة منها العبادات ومنها المعاملات، وصلة الأخلاق بهما لا تنفك، فإذا عريت العبادات والمعاملات عن الأخلاق فإنها لا تُغني عن صاحبها شيئًا[7].

---

(١) صحيح مسلم: كتاب البر، باب تحريم الظن، ٤/ ٦٨٧.

(٢) الجُعَل: بضم الجيم وفتح العين المهملة: دويبة أرضية، وهو المعروف بـ«الجعران»، انظر: مختار الصحاح، مادة (جعل)، لسان العرب: مادة (جعل)، المصباح: مادة (جعل).

(٣) الدهدهة: الدحرجة، ودهدهه: دحرجه، انظر: الكلّيات، (دهده).

(٤) العُبية: بالضم: الكبر والفخر.

(٥) الحديث رواه أبو داود، والترمذي واللفظ له، وقال: حديث حسن صحيح، انظر: الترغيب والترهيب،٤/ ٤٤.

(٦) الإسلام عقيدة وشريعة: الشيخ محمود شلتوت، ٤/ ٤٣.

(٧) التربية الأخلاقية: أبادير حكيم، ص١١٧.

(٣) أثر الأخلاق في سلوك الفرد والجماعة: والأخلاق لها أثرها الفعَّال في السلوك البشري للفرد والجماعة على السواء[1]؛ فهي تزرع في النفس الرحمة والصدق والعدل والإحسان والصبر والأمانة والعفة والإخلاص والتواضع، فالأخلاق بالنسبة للفرد أساس النجاح والفلاح له في الدنيا والآخرة[2]؛ يقول تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[3]؛ والتزكية تعني: تهذيب النفس ظاهرًا وباطنًا[4].

والأخلاق أيضًا تعدُّ البناء الراسخ للمجتمعات الإنسانية؛ يقرر ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[5]، فالعمل الصالح من شأنه أن يؤسس مجتمعًا متحصِّنًا، لا تنال منه عوامل التردي والانحطاط[6].

ليست سعادة الأمم بوفرة إيراداتها، ولا بقوة حصونها، وإنما سعادتها بعدد المهذَّبين من أبنائها[7]!

(٤) أهمية الأخلاق من حيث إنها وسيلة للنهوض بالأمة الإسلامية: فإذا أرادت أي أمة أن تنهض وتتقدم فعليها التمسك بالأخلاق الفاضلة،

---

(١) المرجع السابق.

(٢) علم الأخلاق الإسلامية: مقداد يالجن، ص٥٧.

(٣) سورة الشمس: الآيتان (٩، ١٠).

(٤) خُلق المسلم: الشيخ محمد الغزالي، ص١٥.

(٥) سورة العصر.

(٦) اقتضاء الصراط المستقيم: ص٩.

(٧) الإيمان والحياة: الدكتور يوسف القرضاوي، ص٥١.

فبالأخلاق تنهض الشعوب، فإذا ما انعدمت سقطت في براثن الطغيان، ولقد سقطت الكثير من الأمم والحضارات وكان السبب في ذلك الانهيار الأخلاقي فيها[1].

والأخلاقيات الهدّامة كثيرة؛ منها:

❖ الظُّلم: وهو وسيلة هدَّامة للأمة؛ أيِّ أمة؛ ولذلك كان الظلم محرَّمًا؛ وفي ذلك يقول ﷺ: «الظُّلم ظلمات يوم القيامة»[2]، وقد ورد في الحديث القدسي: «يا عبادي، إني حرَّمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرَّمًا؛ فلا تظَّالموا»[3].

وأنواع الظلم كثيرة، وكلها تؤدي إلى الانهيار الأخلاقي، الذي يعدُّ سببًا رئيسًا لسقوط الأمة، فقد يظلم الإنسان نفسه، ويظلم أهله، ويظلم الناس، والظالم محكوم عليه بالخيبة وسوء العاقبة[4]؛ يقول تعالى: ﴿أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[5]، ويقول سبحانه: ﴿إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[6]، وعلى الظالم أن يعلم أنه مهما كان المظلوم ضعيفًا فإن الله ناصره ولو بعد حين؛ يقول تعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾[7]، ويقول ﷺ: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا

---

(١) التربية الأخلاقية الإسلامية: مقداد يالجن، ص٨٢٢.

(٢) جزء من حديث رواه جابر، انظر: صحيح مسلم، كتاب البر، باب تحريم الظلم، حديث رقم ١٩٩٦.

(٣) رواه مسلم في صحيحه، كتاب البر، باب تحريم الظلم، حديث رقم ١٩٩٤.

(٤) أصول المنهج الإسلامي: ص٣٠٨، مقدمة ابن خلدون: ص٢٨٨.

(٥) سورة هود: الآية (١٨).

(٦) سورة الأنعام: الآية (٢١).

(٧) سورة إبراهيم: الآية (٤٢).

أخـذه لم يفلتـه»، ثـم قـرأ قـول الله تعـالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[1][2].

وإذا كـان الظلـم سببًا مـن أسـباب الانهيـار الأخلاقـي الـذي يـؤدي إلى سقوط الأمة؛ فنقيضه العدل؛ فهو وسيلة فاعلة للنهوض بالأمة، فالأمة التي تعدل ولا تظلم تكون أمة واعية راقية متقدمة، وقد أمرنا الله تعالى بالعدل في أكثر من آية؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾[3]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾[4].

والعدل يكون مع النفس ومع الأهل ومع اليتامى، ويكون العدل في الشهادة، وفي القول وفي الفعل.

*** نقض العهود والمواثيق:**

وهو من الأخلاقيات الهدّامة التي تؤدي إلى سقوط الأمة، وهو رذيلة من أقبح الرذائل؛ وذلك لمنافاته للأمانة والصدق؛ سواء كان ذلك من الأفراد أو من الأمة، وإن من يخلف العهود ولا يلتزم بالمواثيق هو إنسان أعمى البصيرة، غير مهتدٍ على سبيل الرشاد[5]؛ وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ ۝ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلاَ يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾[6]، والمُخلِف في

(١) سورة هود: الآية (١٠٢).

(٢) الحديث متفق عليه، انظر: جامع الأصول، حديث رقم ٦٧١.

(٣) سورة الأنعام: الآية (١٥٢).

(٤) سورة النحل: الآية (٩٠).

(٥) الشفا: القاضي عياض، ١/ ١٢٧، الأذكار: النووي، ص٤٢٨.

(٦) سورة الرعد: الآيتان (١٩، ٢٠).

العهود والمواثيق منافق؛ وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ❁ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ ❁ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾[1]، ويقول النبي ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»[2].

ومن الأخلاق الهدَّامة أيضًا الكِبر، والخيانة، والأثرة، والتناحر من أجل تولي المناصب، والعدوانية، والتخريب[3].

وأما إذا انتشرت الأخلاق الفاضلة؛ عن طريق التضحية وخدمة الأمة وتحقيق المساواة، ونحو ذلك.. فسوف يؤدي ذلك إلى التقدم.

(٥) أهمية الأخلاق باعتبارها من أفضل العلوم وأشرفها: لأن علم الأخلاق كما ذكرنا هو علم الخير والشر، والحسن والقبيح، وعلم الأخلاق هو إكليل العلوم، وهو تاج العلوم، وهو علم الواجب، وإذا كان كذلك؛ فإن أهميته تظهر في جميع نواحي الحياة، وأهميته تظهر في جميع العلوم الأخرى، بل إن جوهر الشريعة هو الأخلاق[4].

إن أخلاقنا الإسلامية كسلوك رباني تسهم وبشكل واضح في بناء مجتمع واحد، بعيد عن التفكك والتمزق، مجتمع تسوده روح المودة والمحبة والعطف والتكامل؛ وصدق الله العظيم: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ

---

(١) سورة التوبة: الآيات (٧٥ -٧٧).

(٢) صحيح البخاري: كتاب الإيمان، باب علاقة المنافق، حديث رقم ٣٣، صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب خصال المنافق، حديث رقم ١٠٧.

(٣) أصول المنهج الإسلامي: ص٣٣٥.

(٤) علم الأخلاق الإسلامية: مقداد يالجن، ص٧.

جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا﴾[1]، وصدق رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[2]، مجتمع يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾[3]، مجتمع يؤمن بالعبودية الحقّة لله تعالى؛ يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[4].

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١٠٣).

(٢) صحيح مسلم: كتاب البر والصلة، باب فضل إزالة الأذى عن الطريق، ٤/ ٢٠٢١.

(٣) سورة آل عمران: الآية (١١٠).

(٤) سورة الذاريات: الآية (٥٦).

المبحث الثاني

مدى ضرورة الأخلاق ومكانتها في الإسلام

الأخلاق من أفضل العلوم وأشرفها، وهي التي تميز سلوك الإنسان عن البهائم؛ سواء في تحقيق حاجاته الطبيعية أو في علاقاته مع غيره، وهي التي تحقق السعادة في الحياة للفرد والمجتمع؛ ولهذا تعدُّ الوسيلة الأساسية لنجاح الإنسان ولنهوض الأمة[1].

وقد اهتم الإسلام بالأخلاق، ووضَّح للناس كيف أنها ضرورية، ووضع لذلك القواعد والأسس[2].

والسبب في اهتمام الإسلام بالأخلاق هو أن الأخلاق أمر لابد منه لدوام الحياة الاجتماعية، وتقدمها من الناحية المادية والمعنوية، وذلك أمر لا شك فيه، ومن يتأمل المبادئ الأخلاقية ومدى ضرورتها للحياة الإنسانية؛ يعرف منزلتها، ولنتصور إذا أهملت الأخلاق؛ كيف تكون الحياة؟

والإجابة سهلة وميسرة.. فإنه إذا ما انعدمت أو أهملت الأخلاق لانتشر الفسق والكذب والخيانة والغش والسرقة وسفك الدماء والتعدي على الحرمات، وزالت كل المعاني الإنساني في علاقات الناس، لا شك أن الحياة

---

(١) تسهيل النظر وتعجيل الظفر: الماوردي، ص٦.

(٢) الأخلاق في الإسلام: د. كايد قرعوش، ص٣٤.

عندئذ تتحول إلى جحيم لا يطاق؛ ولهذا فإن الإنسان بحاجة إلى نظام خُلقي يحقق له حاجاته الاجتماعية[1].

وهذه الحاجات الضرورية في الواقع تتمثل في أمرين:

الأمر الأول: دوام الحياة الاجتماعية وتماسكها عن طريق الالتزام بالأخلاق.

الأمر الثاني: تقدُّم الحضارة من الناحية العلمية والعملية بواسطة الأخلاق.

ونتحدث عن هذين الأمرين بالتفصيل:

الأمر الأول: دوام الحياة الاجتماعية وتماسكها عن طريق الالتزام بالأخلاق:

الإسلام يدعو إلى حياة اجتماعية مستقرة وآمنة، بعيدة عن التخبط والتفكك، واستقرار الحياة يتحقق عن طريق الأخلاق، وهذا يتحقق بتوافر عدة أمور:

(١) مبدأ الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة:

الإسلام جعل الأخلاق مناط الثواب والعقاب في الحياة الدنيا والحياة الآخرة؛ فهو يكافئ الأبرار والصالحين بالجنة لحسن أخلاقهم، ويعاقب الفجار والأشرار بالنار يوم القيامة لفساد أخلاقهم[2]؛ يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾[3]، ويقول رسول الله ﷺ: «إن مِن أحبِّكم إليَّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحسنكم أخلاقًا، وإن من أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني مجلسًا يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون»[4]، وفي رواية: «إن أحبَّكم إليَّ أحاسنكم أخلاقًا؛ الموطَّؤون

---

(١) علم الأخلاق الإسلامية: مقداد يالجن، ص١٠٨، ١٠٩.

(٢) إحياء علوم الدين: الغزالي، ٣/ ٤٩.

(٣) سورة الانفطار: الآيتان (١٣، ١٤).

(٤) رياض الصالحين: باب حسن الخُلق، ص٣٧١، والمتفيهق من الناس: المتكبر.

أكنافًا، الذين يألفون ويؤلفون، وإن أبغضكم إلي المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، المتلمِّسون للبراء العيب»[1].

(٢) مبدأ الإخلاص والإتقان والأمانة في العمل الحياتي:

الإسلام أخضع جميع الأعمال للأخلاق الفاضلة؛ وذلك عن طريق الإخلاص في العمل والإتقان له والأمانة؛ ولذلك قيل: «إن لله عبادًا عقلوا، فلما عقلوا عملوا، فلما عملوا أخلصوا، فاستدعاهم الإخلاص إلى أبواب البر أجمع»[2]، ولنضرب مثالاً عن العلم؛ حيث أخضع الإسلام العلم ونشره وتقديمه للناس للأخلاق؛ عن طريق الإخلاص فيه وإتقانه وتبليغه للناس بأمانة، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: «من تعلَّم علمًا لغير الله أو أراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار»[3]، ويقول ﷺ: «من سُئل من علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة»[4].

(٣) العفو مبدأ أخلاقي هامٌّ في الحياة:

العفو فضيلة أخلاقية هامَّة في الحياة الاجتماعية؛ فهو يؤدي إلى إزالة الأضغان والأحقاد، وينقذ حياة الناس؛ لأنه انتقال من غضب إلى عطاء، ومن غيظ إلى برٍّ، ومن انتقام إلى إحسان، فهو أولاً تربية للنفس، وثانيًا رقي لها[5]؛ ولذلك حبب الإسلام للناس العفو والصفح، وصدق الله العظيم القائل:

---

(١) رواه الطبراني والبزار، انظر: مجمع الزوائد، ٨/ ٢١.

(٢) علم الأخلاق الإسلامية: مقداد يالجن، ص١٠٨.

(٣) التاج الجامع للأصول: كتاب العلم، ١/ ٧٣.

(٤) المرجع السابق: كتاب العلم، ١/ ٦٦.

(٥) الأخلاق الإسلامية: د. حسن الشرقاوي، ص٢٢٥.

﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾[1]؛ ولذلك دعا الإسلام إلى العفو حتى في القصاص! يقول تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[2]، ويقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾[3].

والإسلام لم يدع إلى العفو فحسب؛ بل دعا إلى معاملة السيئة بالحسنة؛ لأنها من أكبر عوامل خلق المودة بين الناس[4]، يقول تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[5]، وإذا تذكرنا موقف الرسول الكريم ﷺ مع المسيئين إليه أدركنا تمامًا أثر العفو في جمع الناس وتأليفهم في الحياة العملية، فها هو الرسول ﷺ يُطْرد ويشرَّد من مكة، ثم لما عاد إليها يوم الفتح قاهرًا ظافرًا بجيشه قال لقريش: «يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟»، قالوا: أخ كريم! قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»[6]!

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١٣٤).

(٢) سورة الشورى: الآية (٤٠).

(٣) سورة البقرة: الآية (١٧٨).

(٤) الشريعة والحقيقة: د. حسن الشرقاوي، ص٥٨.

(٥) سورة فصلت: الآية (٣٤).

(٦) السيرة النبوية: لابن هشام، ٤/ ٨٧٣.

وهذا الموقف العظيم من رسول الله ﷺ جعل الناس يجتمعون حوله، ولو كان الرسول فظًا غليظ القلب ما استطاع تأليفهم حوله، وصدق الله العظيم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1].. ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾[2].

(٤) العدالة مبدأ أخلاقي متصل بدوام الحياة الاجتماعية وتقدمها:

العدالة تعني الإنصاف والمساواة بين الناس؛ أي إعطاء كل ذي حق حقه[3].

وفي نظر الإسلام فإن لله تعالى على الإنسان حقوقًا، كما إن لنفسه ولغيره عليه حقوقًا؛ يصدق ذلك قول النبي ﷺ: «إن لربك عليك حقًا، وإن لنفسك عليك حقًا، ولأهلك عليك حقًا، فأعطِ كلَّ ذي حق حقه»[4].

وحقُّ الله هو الاعتراف بربوبيته، وحقوق النفس هي تحقيق متطلباتها الضرورية، وحقوق الغير تتمثل بصورة عامة في احترام حقوقهم الطبيعية.

والإسلام لم يكتف بتقرير الحقوق والواجبات نحو الغير، بل دعا إلى المعاملة الخيِّرة، واعتبر كل عمل وكل إحسان إلى الغير صدقة؛ وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: «كل معروف صدقة»[5].

إن العدالة هي حكم الله الذي لا يُردُّ، وتتمثل في:

(١) سورة القلم: الآية (٤).

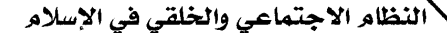
(٢) سورة آل عمران: الآية (١٥٩).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر: ٣/ ٢٧.

(٤) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: كتاب الصوم، حديث رقم ١٩٦٧.

(٥) الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير: السيوطي، ٢/ ٩٥.





عدالة الفرد مع نفسه؛ فلا يعرِّضها لعذاب الله بانحرافها عن الحق، فهو إن فعل ذلك يعدُّ ظالمًا[1]؛ يقول تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾[2].

وعدالته مع الأهل؛ فلا يفرِّق بين الأولاد في المعاملة، ولا يؤْثِر إحدى زوجاته على الأخرى؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُوا﴾[3].

وعدالته مع الغير؛ بأن يعطيه ما له من حق، ولا يظلمه، وأن يقول الحق؛ ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾[4].

وهكذا يأمر الله بالعدالة كلَّ إنسان في فعله وقوله بحسب مسؤوليته؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾[5].

وإذا ما سادت العدالة حياة المجتمع ساد الأمن والمحبة والاستقرار، وإذا ما انعدمت العدالة ساد الرعب والحقد والاضطراب[6].

---

(١) أصول المنهج الإسلامي: ص٣٠٧، مقدمة ابن خلدون: ص٢٤٠.

(٢) سورة الطلاق: الآية (١).

(٣) سورة النساء: الآية (١٣).

(٤) سورة الأنعام: الآية (١٥٢).

(٥) سورة النحل: الآية (٩٠).

(٦) أدب الدنيا والدين: الماوردي، ص١١٧.

(٥) الصبر مبدأ شديد الصلة بالحياة الاجتماعية:

الإنسان بالصبر يستطيع مواجهة الصعاب، والصبر أنواع: الصبر على المصائب، والصبر على أداء الواجبات، والصبر على الشهوات والأهواء، وسيأتي الحديث تفصيلاً عن الصبر بوصفه نموذجًا أخلاقيًّا هامًّا في حياة المسلم.

الأمر الثاني: تقدُّم الحضارة من الناحية العلمية والعملية بواسطة الأخلاق:

الأخلاق ضرورية وهامة في تقدُّم الحضارة من الناحية العلمية والعملية والعمرانية، فمتى كانت هذه النواحي منبثقة عن أخلاق فاضلة ازدهرت الحياة وحصل التقدم، وقد اهتم الإسلام بهذه النواحي، وهذه إطلالة سريعة على كل واحدة منها:

(١) العلم وتقدم الحضارة: إذا رأى الإنسان من الناس تقديرهم لجهوده العلمية، وإذا علم أن له ثوابًا عند الله تعالى لعلمه يناله بعد موته.. فإن هذا يشجعه على أعمال علمية عظيمة، وهذا بدوره يؤدي إلى ازدهار العلم وتقدمه؛ ومن ثَمَّ تكون النتيجة تقدم الحضارة؛ لأن العلم أساس الحضارة، وروح أخلاقية العلم تؤدي إلى الخير[1].

ولهذا حثَّ الإسلام على العلم، ودعا الناس إلى الجدِّ في طلبه، ورفع من شأن العلماء، وحثَّهم على نشر العلم؛ قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[2]، وقال ﷺ: «طلبُ العلم فريضة

(١) أصول المنهج الإسلامي: ص٣١٥.

(٢) سورة الزمر: الآية (٩).

على كل مسلم»[1]، وقد شجَّع الإسلام طلاب العلم؛ فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم؛ رضاءً بما صنع»[2].

(٢) الاقتصاد وتقدم الحضارة: في الإسلام توجيهات أخلاقية تؤدي إلى التقدم الاقتصادي:

ففي مجال الزراعة؛ جاءت النصوص الشرعية لتقرر أن الزراعة أفضل الكسب؛ وذلك لشدة الحاجة إليها، ولما فيها من عموم الانتفاع للناس والتوسعة عليهم[3]؛ ولذلك نرى الرسول ﷺ يحثُّ المسلمين عليها حيث يقول: «ما من مسلم يغرس غرسًا، أو يزرع زرعًا، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة.. إلا كان له به صدقة»[4].

وفي مجال التجارة؛ وردت النصوص التي تحثُّ على أن تكون التجارة عن تراضٍ، لا عن استغلال وظلم[5]؛ يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنْكُمْ﴾[6].

---

(١) رواه ابن ماجة في سننه: ١/ ١٢.

(٢) رياض الصالحين: كتاب العلم، ص٤٨٥.

(٣) مواهب الجليل: ٥/ ١٦٧، الجامع لأحكام القرآن: ٥/ ١٧، قضايا العمل والعُمَّال في الإسلام: أبو الوفا المراغي، ص٤١.

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي: كتاب المزارعة والمساقاة، ١٠/ ٢١١.

(٥) اقتصادنا: محمد باقر الصدر، ص٦٠٥.

(٦) سورة النساء: الآية (٢٩).

وكذلك الحال في مجال الصناعة والبحث العلمي والاختراع، وفي كل ذلك نجد أن الأخلاق الإسلامية تدفع بطبيعتها إلى الكمال في مجال الزراعة والتجارة والصناعة[1].

وفي النهاية: لو علمت الأُمَّة مدى ضرورة الأخلاق للحياة لأصبحت أرقى الأمم وأسعدها من جميع النواحي؛ لأنها تدعو كلَّ فرد إلى أن يكون خيِّرًا عالمًا فاضلاً، ولذلك كانت الأخلاق الإسلامية ضرورة وغاية في الأهمية؛ لدفعها الناس إلى الأفضل والأكمل[2].

---

(١) علم الأخلاق الإسلامية: مقداد يالجن، ص٢٢٢.

(٢) المرجع السابق.

المبحث الثالث

ارتباط الأخلاق بالعقيدة والعبادات

الأخلاق والعقيدة والعبادة أمور ثابتة، لا يُتصور انفكاكها عن بعضها، وفي هذا المبحث نتناول ارتباط الأخلاق بكلٍّ من العقيدة والعبادات.

أولاً: ارتباط الأخلاق بالعقيدة:

العقيدة هي الأساس الأول والضروري للإسلام، وهي مجموعة الأصول الستة الواردة في الكتاب والسنة، والتي يعقد عليها المرء قلبَه؛ جازمًا بصحتها وأن خلافها لا يصح[1].

والأصول الستة للعقيدة هي: الإيمان بالله تعالى، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره[2].

وعلى المسلم أن ينقاد لأوامر الله تعالى ونواهيه؛ لاعتقاده أن الله تعالى هو مصدر تلك الأوامر والنواهي، وفي العمل بها مرضاة لله وشكر على نعمه، فالعقيدة الإسلامية تحمي المسلم من الخطأ، وتحيي فيه الأخلاق الكريمة[3].

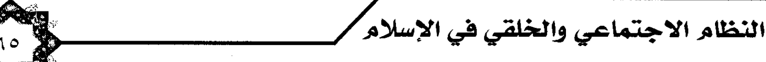
إن الإسلام ربط بين الأخلاق والعقيدة برباط لا ينفكّ، وذلك يظهر جليًّا من خلال النصوص الواردة في كثير من المجالات؛ فمثلا يربط الله تعالى بين الإيمان وبين عمل الصالحات، التي هي أساس الأخلاق؛ فيقول سبحانه:

---

(١) العقيدة والصلاة: محمد بيصار، ص٩٤.

(٢) رسائل في العقيدة: الشيخ ابن عثيمين، ص٥.

(٣) القيم الخُلقية في الإسلام: ص١٣.



﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[1]، ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ❁ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[2].

إن مقتضى الإيمان بالله أن يتحلى المسلم بالأخلاق ويعمل بها؛ فيكون عدلاً، رحيمًا، صادقًا أمينًا، متواضعًا، عفيفًا حييًّا، جوادًا كريمًا، صابرًا محتسبًا، راضيًا بما قدَّر الله له[3].

إذا أردت أن تعرف حقيقة إيمانك التي هي أصل أخلاقك فها هو رسول الله ﷺ يخبرك بعلامة ترشدك لذلك؛ فيقول: «إذا أساءتك سيئتك، وسرَّتك حسنتك؛ فأنت مؤمن»[4].

الإنسان المسلم حقًّا يسعى دائمًا إلى التحلي بالخُلق الحسن؛ لتثقل موازين حسناته يوم القيامة، لينال الأجر؛ فيدخل الجنة[5]؛ وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: «ليس أثقل في الميزان من الخُلق الحسن»[6]، ولقد فهم الصحابة (رضوان الله عليهم) والسلف الصالح ما أعدَّه الله لأصحاب الأخلاق الفاضلة؛ فحرصوا عليها وعملوا بها[7].

---

(١) سورة النساء: الآية (٢٤).

(٢) سورة يونس: الآيتان (٩، ١٠).

(٣) وظيفة الدين في الحياة: محمد الزحيلي، ص٩٧.

(٤) الحديث رواه أحمد في مسنده، عن أبي أمامة الباهلي: ١/ ٢٥١.

(٥) أصول المنهج الإسلامي: ص١٩٨.

(٦) كنز العمال: ٣/ ١٢.

(٧) الأخلاق الإسلامية: المرسي، ص٧٢، أصول المنهج الإسلامي: ص١٩٨.

إن ارتباط الأخلاق بالعقيدة ارتباط لا ينفكُّ، وصِلة لا تنقطع على مرِّ الأزمنة واختلاف الأمكنة، وفي النهاية عليك أن تعلم أن: «الله لا يمحو السيِّئ بالسيِّئ، ولكن يمحو السيِّئ بالحسن؛ إن الخبيث لا يمحو الخبيث»[1].

ثانياً: ارتباط الأخلاق بالعبادات:

الهدف والغاية من العبادات هو السمو الخُلقي بالمسلم، فإذا كانت العبادة تعني: التقرب إلى الله تعالى بما هو أهله، والابتعاد عما نهى عنه.. فإن ثمَّة رابطة قوية بينها وبين الأخلاق، ولنضرب أمثلة توضِّح ذلك:

(١) ارتباط الأخلاق بالصلاة:

الصلاة أول ما أوجبه الله تعالى من العبادات بعد الشهادتين، وهي أول ما يُحاسب عليه العبد يوم القيامة، وهي عمود الإسلام؛ يقول رسول الله ﷺ: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله»[2].

وبالصلاة يُكَفِّر الله تعالى الخطايا ويمحو السيئات، والصلاة تطهِّر المسلم وتزكيه من سوء الأخلاق؛ ولذلك كانت الصلة قائمة بين الصلاة والأخلاق[3]، يدل على ذلك النصوص الشرعية؛ ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ

(١) رواه أحمد وغيره، انظر: الترغيب والترهيب، ٣/ ٣٥٤.

(٢) الحديث متفق عليه.

(٣) الأخلاق في الإسلام: ص٥٣.

﴿اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾[1]، ويقول سبحانه في الحديث القدسي: «إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتي، ولم يستطل على خَلقي، ولم يبت مصرًّا على معصيتي، وقطع نهاره في ذكري، ورحم المسلمين وابن السبيل والأرملة، ورحم المصاب، ذلك نوره كنور الشمس، أكلؤه بعزتي، وأستحفظه ملائكتي، أجعل له في الظلمة نورًا، وفي الجهالة حِلمًا، ومثله في خلقي كمثل الفردوس في الجنة»[2].

هذه هي الصلاة، وهذا هو فعلها بمن كان كريم الأخلاق، عظيم السجايا، أما هذا الإنسان الذي لم تنفعه صلاته، ولم يستفد منها خُلقًا كريمًا.. فهو بعيد عن الله، وفي ذلك يقول رسول الله : «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بُعدًا»[3].

(٢) ارتباط الأخلاق بالزكاة:

الزكاة تطهِّر النفس، وتحقق التكافل بين الناس، وتمنع البخل، وتعوِّد المسلم على البذل والعطاء[4]، وإذا كانت كذلك فهي على صلة وثيقة بالأخلاق الفاضلة، فصاحب الخُلق الفاضل ليس بخيلاً ولا طمَّاعًا؛ ولذلك جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً

(١) سورة العنكبوت: الآية (٤٥).

(٢) رواه ابن عباس رضي الله عنه، انظر: الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية: للإمام المناوي، ص١٢.

(٣) الجامع الكبير: ١/ ٨٣٣.

(٤) المهذب: ١/ ١٤٠، فتح القدير: ١/ ٤٨٢.

﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾[1]؛ أي: تطهِّرهم من داء البخل والشحِّ والطمع، وتزكي بها أنفسهم، وتسمو بهم إلى الخير[2].

(٣) ارتباط الأخلاق بالصيام:

الصيام يعوِّد العبدَ شكرَ ربه على نعمه، ويمرِّن نفسه على الضبط والسيطرة؛ حتى يتمكن من قيادتها وسعادتها، والصيام سبب للتقوى، وهو يبعد الصائم عن كل محرَّم؛ من الكذب والنميمة والغيبة.. وغيرها.

وإذا كانت هذه الصفات تجتمع في الصائم فهو صاحب خُلق محمود، فالصيام يوصِّل الإنسان إلى التقوى؛ التي هي جِمَاعُ الأخلاق الفاضلة[3]؛ وفي ذلك يقول النبي ﷺ: «من لم يدع قول الزور والعمل به؛ فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه»[4].

(٤) ارتباط الأخلاق بالحج:

الحج يجمع خصائص الأركان كلِّها؛ من صلاة وزكاة وصوم، فهو يجتمع مع الصلاة في الإعراض عن الدنيا، ومع الزكاة في البذل والإنفاق والتضحية، ومع الصوم في الخشية والتقوى، والحج ينفي الفقر والذنوب، ويعلِّم المسلم التواضع[5].

---

(١) سورة التوبة: الآية (١٠٣).

(٢) فقه الزكاة: القرضاوي، ص١٩.

(٣) أصول المنهج الإسلامي: ص١٤٦.

(٤) رواه البخاري وأبو داود والنسائي وابن ماجة، انظر: الترغيب والترهيب، ٢/ ١٤٦.

(٥) أصول المنهج الإسلامي: ص١٤٩.

وهذه الصفات التي جمعها الحج بين طياته تدعو جميعها إلى مكارم الأخلاق، وفي ذلك وردت آيات وأحاديث؛ ومنها:

قوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾[1].

وقوله ﷺ: «من حجَّ ولم يرفث ولم يفسق؛ رجع كما ولدته أمه»[2].

وهكذا يوضح رسول الله ﷺ الأثر الأخلاقي للحج؛ حين يربط بين صلاح الحج وتجنب الأخلاق والأفعال المذمومة؛ ليوضح لنا بجلاء المهمة الأخلاقية للعبادات.

(١) سورة البقرة: الآية (١٩٧).

(٢) رواه مسلم في صحيحه: كتاب الحج، باب فضل الحج والعمرة، ٢/ ٩٨٥.

الفصل الثالث

◆-----------◆

معيار القيم في النُّظم الخلقية المعاصرة وفي الإسلام

(مقياس الخير والشر)

الفصل الثالث

معيار القيم في النُّظم الأخلاقية المعاصرة وفي الإسلام

تمهيد:

تعددت الأخلاقيات قديمًا وحديثًا، ولكل نظام خُلقي المقياس الذي يُقاس به، ولكل نظام أخلاقي غاية تحمل قيمة الأخلاق، وهي بدورها تحمل قيمة الشخص نفسه، والسؤال الذي يعرض نفسه هو:

ما هو معيار القيم في النُّظم الأخلاقية المعاصرة؟ وما هو هذا المعيار في الإسلام؟

هذا ما نعرض له في هذا الفصل، فنبدأ الحديث عن معيار القيم (مقياس الخير والشر) في النُّظم الأخلاقية المعاصرة، ثم نتبعه بالحديث عن معيار القيم في النظام الأخلاقي الإسلامي، وذلك في مبحثين:

المبحث الأول: معيار القيم في النُّظم الخُلقية المعاصرة.

المبحث الثاني: معيار القيم في الإسلام.

المبحث الأول

معيار القيم في النُّظم الخُلقية المعاصرة «مقياس الخير والشر»

اتفق علماء الأخلاق على أن القيمة المثلى للأخلاق هي الخير، ويقابلها الشر، إلا أن هذا الاتفاق لم يلبث أن اندثر؛ حيث تبين أنه كان في اللفظ أكثر منه في المضمون!

ولذلك وجدنا اختلافًا كبيرًا في معيار القيم في النُّظم الخلقية المعاصرة؛ فمنهم من يُرجعها إلى العقل البشري وحده، ويجعله هو أساس الأخلاق ومصدرها؛ فما يراه العقل خيرًا يكون خيرًا، وما يراه شرًّا فهو شرٌّ.

ومنهم من يُرجعها إلى اللذة والمنفعة، فما يتحقق باللذة يكون خيرًا، وما يتحقق بالألم يكون شرًّا.

ومنهم من يرجعه إلى عُرف المجتمع وعاداته، ويرى أن منبع الأخلاق ومعيار القيم هو العُرف الاجتماعي.

ونتناول فيما يلي معيار القيم في النُّظم الخلقية المعاصرة على اختلاف مشاربها واتجاهاتها؛ حتى نستطيع تحديد تقويم الأخلاق بوجه عام، وتحديد حقيقة «الخير» و«الشر» بوجه خاص.

الاتجاه الأول: العقل هو معيار القيم في النظام الخُلقي:

يرى أصحاب هذا الاتجاه أن معيار القيم الخُلقية هو العقل وحده، وإذا كانت قيمة الأخلاق تُقاس بإرادة الإنسان الخيِّرة؛ فإن هذه الإرادة

الخيِّرة تُقاس بمدى موافقتها للعقل البشري؛ ذلك أن الأخلاق تعتبر قيمة عقلية؛ ولذا كانت القوانين الأخلاقية خاضعة للعقل؛ كالقوانين الفكرية.

وقد تزعَّم هذا الاتجاه (كانط) وأتباعه من بعده؛ مثل (هاربوغ) و(برنشفيك)[1].

ويعتقد (كانط) أن الهدف الأسمى للإنسان الفاضل هو أن يُخضِع سلوكه لقانون العقل، فلا ينشد الفضيلة من أجل السعادة، وإنما ينشدها من أجل الواجب الخالص[2]، فالكمال الخُلقي عنده يتحقق بالعقل وحده، دون اعتبارات أخرى تكون معيارًا للقيم الخُلقية[3].

الردُّ على هذا الاتجاه:

إذا كان هذا الاتجاه قد اعتمد على العقل بالكلية كمقياس وحيد للقيم الخلقية؛ فإننا نقرر عدة حقائق من خلالها نستطيع الردَّ على هذا الاتجاه؛ وهذه الحقائق هي:

أولاً: العقل نعمة من نعم الله، وهو نور من نور الله سبحانه، من شأنه أن يهدي إلى الحق، ويدعو إلى الخير.

ثانيًا: بالعقل استطاع المرء أن يعمر هذه الأرض، وأن يكشف أسرار الكون ويسخِّره لخدمته.

ثالثًا: بالعقل يكون الإنسان مهيَّأً للتعرُّف على الخير والإقبال عليه والاطمئنان به[4].

---

(١) الفلسفة الخُلقية: توفيق الطويل، ص٢٧٣.

(٢) المرجع السابق، وانظر: علم الأخلاق الإسلامية، ص٢٩٢.

(٣) الفلسفة الخُلقية: ص٢٣٣.

(٤) المرجع السابق.

هـذه حقـائق ملموسـة لا ينكرهـا إلا جاهـل، وإلا لمـا ميَّـز الله تعـالى الإنسان بنعمة العقل.

ولكن السؤال الذي يرد على البال هو:

هل يكفي أن يكون العقل وحده معيارًا للقيم الخُلقية؟

والإجابة بالنفي، فلا يصح أن يكون العقل وحده معيارًا للقيم؛ وذلك لما يأتي:

(١) أن العقل وحده مهما بلغ من العلم وحصَّل من المعرفة فهو معرَّض للزلل والخطأ إذا هو لم يسترشد بدين الله تعالى، ولم يعرض علومه ومعارفه على مقرَّرات هذا الدين؛ ولهذا كانت عقول الفلاسفة مضلّة لأصحابها مع ما احتشد منهم من العلم الذي لم يستتر بنور الله سبحانه.

(٢) أن الأمم التي اعتمدت على عقلها فاعتقت ديانات غير صحيحة حكمت على نفسها بالكفر والضلال[1].

(٣) أن الشرع هو المهيمن على العقل، وليس العقل هو المهيمن على الشرع، وكيف يصح أن يكون العقل قاضيًا وحاكمًا على الشرع؛ والشرع من عند الله خالصًا لم تَشُبْه شائبة، والعقل وإن كان من عند الله إلا أنه معرَّض للابتلاء بأهواء ووساوس الشياطين؟! ومن هنا كان مردُّ العقل إلى ما قضى به الشرع، فإن استساغه العقل حُكم عليه بالصحة والسلامة، وإلا اتُّهم بالفساد.

(٤) أن العقل محكوم بمجموع الخبرات التي خبرها من واقعه، فإن كان واقعه فاسدًا تأثَّر العقل بذلك الفساد؛ ولذلك وجدنا كثيرًا من

(١) علم الأخلاق الإسلامية: حسن الشرقاوي، ص١٩١.

العقلانيين أحكامهم مضطربة، أما العقل الإسلامي فهو نتاج بيئة إسلامية وخبرات ثقافية محكومة بشرع الله.

وفي النهاية نقول: إن العقل وحده لا ينفع أن يكون مقياسًا للأخلاق، فلابد معه وقبله من الهداية؛ المتمثلة في الإيمان بالله، والسير على نهجه المستقيم.

الاتجاه الثاني: اللذة والمنفعة هما معيار القيم الخُلقية:

اللذة: هي شعور داخلي يبعث السعادة في النفس لتحقيق شيء تتوق إليه؛ سواء كان ماديًّا أو معنويًّا؛ كطعم الشيء الحلو عند حاسَّة الذوق، والنور عند البصر[1].

والمنفعة: هي كلُّ ما يُنتفع به.

وهذا الاتجاه يفسِّر القيم الخُلقية باللذة والمنفعة، فاللذة مرغوبة، والمرغوب لذيذ، والألم مكروه مؤلم، وكل لذيذ خير، وكل مؤلم شر؛ أي أن معيار الأخلاق هو اللذة والمنفعة دون سواهما، وبعبارة أخرى: فإن الفضيلة عند أصحاب هذا الاتجاه تدور مع اللذة والمنفعة.

وقد تزعم هذه المذهب «توماس هوبز» و «بنتام» و «جون ميل»[2].

(١) الفلسفة الخُلقية: توفيق الطويل، ص٣٠١.

(٢) المرجع السابق.




وقد حاول «بنتام» تطبيق أفكاره عمليًّا، ويذهب «بنتام» إلى أن الناس يطلبون اللذة ويتجنبون الألم شأنهم في ذلك شأن الحيوانات، إلا أنهم يمتازون عن الحيوان باستخدامهم مبدأ المنفعة[1].

والوقع أن مذهب «بنتام» مذهب نفعي حسِّي ومادي، خالٍ من الفكر المجرَّد؛ حيث أخضع الإنسان فيه إلى سيطرة دوافع نفسية تتمثل في عواطف اللذة والمنفعة، لقد أراد «بنتام» أن يضع علم الأخلاق فعمد إلى إحصاء اللذات والمنافع!!

الردُّ على هذا الاتجاه:

ذكرنا فيما مضى أن العقل وحده لا يمكن أن يكون معيارًا للقيم الخُلقية، وإذا كان هذا حال العقل؛ فهل نستطيع القول: إن اللذة والمنفعة هما معيار القيم الخُلقية؛ أي هما المتياس الذي يُقاس به الخير والشر؟! وما اللذة إلا غريزة يشترك فيها الإنسان والحيوان معًا[2]!

والإجابة بالنفي طبعًا؛ فاللذات ما هي إلا غرائز، وغرائز الإنسان متعددة ومعقدة، وهي مرتبطة بمغريات الحياة، وهي في الوقت نفسه غير مستقرة[3]، والشيء المتعدد والمعقد وغير المستقر لا يمكن أن يكون معيارًا للقيم الخُلقية؛ ومن هنا كان ربط الأخلاق باللذات والمنافع رأس كلِّ خطيئة؛ وذلك للأسباب التالية:

(١) علم الأخلاق الإسلامية: مقداد يالجن، ص٢٩٤.

(٢) المرجع السابق.

(٣) أخلاقنا: ربيع الجوهري، ص١٠.

(١) من أجل هذه اللذات والمنافع قد يبيع الأخ أخاه! ويقتل الابن أباه! ومن أجلها يخونون الأمانات!

(٢) من أجلها يبغي الناس بعضهم على بعض، ويعيشون كسِبَاع الغابة أو أسماك البحار؛ يفترس القويُّ الضعيفَ، ويلتهم الكبير الصغير!

(٣) من أجلها يغشُّ التجار، ويتجبر الرؤساء، ويطغى الأغنياء، وينافق الضعفاء!

(٤) من أجلها ينتشر قول الزور، وتُخفَى الحقائق وهي واضحة جليَّة!

(٥) من أجلها يسرق الإنسان، ويرتشي، وينافق، ويعصي ربه!

(٦) من أجلها تُستعمر الدول، وتُنتهك الحرمات، وتُطمس الحقائق؛ فما كان منفعة للدول فهو حلال ومشروع، وما كان ضدَّ منفعتها فهو انتهاك لحقوق الإنسان وهو إرهاب[1]!!

فهل بعد هذا كله يمكن أن تكون اللذة والمنفعة مقياسًا للخير والشر؟!

نسلِّم أن حبَّ اللذة والمنفعة جزء من فطرة الإنسان، ولولا ذلك ما عمرت الأرض، ولكن الخطر أن يستغرق الإنسان في حب اللذات والمنافع؛ أي في حبِّ الدنيا، وأن تكون هذه الأشياء الصغيرة والحقيرة هي أكبر همِّهم، وهي مبلغ علمهم، وهي منتهى أملهم[2]؛ لذلك عقَّب الله سبحانه وتعالى بعد ذكر ملذات الدنيا أن ما عنده خير وأبقى وأعظم لمن كان له

---

(١) الإيمان والحياة: القرضاوي، ص١٨٥.

(٢) أخلاقنا: ص١٤.

قلب وعقل يعرف به؛ يقول سبحانه: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾[1]، ويقول سبحانه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾[2].

إن الإسلام يعلّمنا أن هناك حبًّا آخر يبقى، وهو حبُّ الآخرة، والأمل في لقاء الله سبحانه، والطمع في عفوه ومثوبته، والخوف من حسابه؛ ولذلك علّمنا رسول الله ﷺ أن ندعو الله فنقول: «اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همّنا، ولا مبلغ علمنا»[3].

وأخيرًا نقول: إنه لابد من خضوع سلطان اللذة والمنفعة لسلطان الإيمان بالله وحده، وقد ذكرنا أن اللذة والمنافع غرائز في الإنسان لا تُنكر، لكن يجب أن تكون خاضعة للإيمان بالله تعالى، والأمثلة على ذلك كثيرة في الكتاب والسنة؛ نذكر منها ما يلي:

(١) سورة الكهف: الآية (٤٦).

(٢) سورة آل عمران: الآيات (١٤ -١٧).

(٣) حديث صحيح.

(١) قد يرغب الإنسان في أن يحقق لذته وشهوته مع امرأة لا تحلُّ له إذا تيسرت له أسبابها وتهيأت وسائلها، ولكنه إذا أخضع ذلك لسلطان الإيمان امتنع عن اقتراف هذه الفاحشة، فبالإيمان عرف أن هذا حرام، وأن عقوبته في الآخرة أشد من عقوبته في الدنيا[١]، وهذا ما حدث من نبي الله يوسف عليه السلام؛ حيث اجتمعت فيه عوامل الرجل، وتهيأت له كل الأسباب، وامرأة العزيز بجمالها وسلطانها تدعوه إليها، وتغلّق الأبواب، وكلُّ السبل ميسرة لقضاء اللذة، ولكن هل خضع لشهوته؟ كلاَّ! إنما قال: ﴿**مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**﴾[٢].

(٢) حب المقاتلة والتشفي بالضرب والجلد لذة عند بعض الناس، فهل يصح أن نقول: إن هذا مقياس للخير أو الشر؟! كلاَّ! إن الإيمان بالله تعالى يعالج هذه الغريزة ويكبح جماحها، فيحثُّ المسلم على كظم غيظه، والعفو عمن ظلمه، بل والإحسان إلى من أساء إليه[٣]؛ ولذلك يقول الرسول ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب»[٤].

(٣) حب تملك المال لذة ومنفعة، ولكن إذا أتى المال عن طريق الربا أو الرشوة أو السرقة.. إلخ؛ هل نقول: إن اللذة والمنفعة تصلح وحدها معيارًا للخير والشر؟! كلاَّ! فالنصوص الشرعية تحرِّم ذلك[٥].

---

(١) علم الأخلاق الإسلامية: ص٢٩٢.

(٢) سورة يوسف: الآية (٢٣).

(٣) علم الأخلاق الإسلامية: ص٩٢.

(٤) صحيح مسلم: كتاب البر والآداب، حديث رقم ١٠٦.

(٥) الأخلاق الإسلامية: حسن الشرقاوي، ص١٩٢.

(٤) في شرب الخمر لذة شديدة، لكن ضررها على العقل؛ بل الجسد كله.. متحقق؛ فهل نقول: إن اللذة والمنفعة مقياس الخير والشر؟! كلاَّ!

والأمثلة في هذا الموضوع كثيرة، والإجابة على ما ذهب إليه هؤلاء واضحة؛ وهي: أن اللذة والمنفعة لا تصلحان مقياسًا للقيم الخلقية، بل لابد من تشريع إلهيّ يفصِّل في كل ذلك.

الاتجاه الثالث: العُرف الاجتماعي هو معيار القيم الخُلقية:

يرى أصحاب هذا الاتجاه أن أعراف الناس وعاداتهم هي المنبع والأساس الذي تُقاس به القيم الخُلقية[١].

وقبل أن نبين حجة هذا المذهب والردَّ عليه يجدر بنا أن نعرض للعُرف والعادة في حياة الناس.

لقد عرَّف العلماء العُرف بأنه: ما استقرت عليه النفوس بشهادة العقول، وتلقَّته الطباع بالقبول[٢].

والعرف يعدُّ قوة من القوى التي يقوم عليها النظام الاجتماعي، وتعود إلى الحُجة التي بني عليها هذا الاتجاه رأيه؛ وهو أن العرف الاجتماعي هو معيار القيمة الخُلقية، حيث قالوا: لعرف الناس وسلوكهم في الحياة تأثير واضح في تكييف الأشياء وتلوينها، فهو مصدر الأخلاق للأفراد، والمعيار الذي يزِنُون به تصرفاتهم و يحكمون به عليها بالخير والشر[٣].

---

(١) علم الأخلاق الإسلامية: ص١٩١.

(٢) سُلّم الوصول إلى علم الأصول: للجرجاني، ص٢١٧، التقرير والتحبير: لابن أمير الحاج، ٢/ ٧١٩.

(٣) أخلاقنا: ربيع الجوهري، ص١١.

الردُّ على هذا الاتجاه:

إذا كان العُرف كما قالوا مصدرًا للناس يزِنُون به تصرفاتهم؛ فهل يصح أن يكون مصدرًا صحيحًا للأخلاق وضابطًا مأمونًا للسلوك؟

والإجابة بالنفي طبعًا؛ وذلك لما يأتي:

(١) إنَّ أعراف الناس وعاداتهم متغيرة غير ثابتة، تختلف من زمان إلى زمان ومن مكان إلى مكان، فما كان عُرفًا مألوفًا في الأزمنة القديمة لا يصلح أن يكون عُرفًا في زمن لاحق، وما كان سائدًا من عُرف في بلد معين لا يصلح أن يكون عُرفًا في بلد آخر[1].

(٢) إن اعتبار العرف معيارًا للقيم الخُلقية قد يؤدي بالجماعة إلى الهلاك والضياع وسوء العاقبة[2].

فمثلاً في العصور السابقة على الإسلام كانت هناك أعراف وعادات سائدة، وهي قائمة على الظلم والفاحشة؛ فهل يصح أن نقول: إن هذه الأعراف معيار للأخلاق؟! فقد كانوا لا يورِّثون البنت! ويرث الابن الأكبر زوجة أبيه بعد موته... إلخ!

وفي العصر الحاضر انتشر العُري والتبرج، وشرب الخمر، والدعوة إلى إقامة علاقات آثمة بين الجنسين... إلخ!! فهل يصح أن نقول: إن هذه العادات معيار للقيم الخلقية[3]؟!

(٣) إن الشرع الإسلامي لم يحكِّم العرف والعادة كمعيار للأخلاق، وإنما الحُكم هو شرع الله[1].

---

(١) المرجع السابق.

(٢) علم الأخلاق الإسلامية: مقداد يالجن، ص٨٩.

(٣) من توجيهات الإسلام: محمود شلتوت، ص٣١.

لقد نعى القرآن الكريم على من يتخذون الأعراف الاجتماعية مصدرًا ومعيارًا لأخلاقهم؛ فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[2].

والخلاصة: أن العرف الاجتماعي لا يصلح أن يكون معيارًا للأخلاق ولا مصدرًا لها، ولا أساسًا ينبني عليه سلوك الإنسان.

الاتجاه الرابع: الضمير هو معيار القيم الخُلقية:

يرى أصحاب هذا الاتجاه أن ضمير الإنسان هو معيار القيم الخُلقية، فإذا كان الضمير ينتهي إلى أن هذا الأمر خيرٌ فهو خيرٌ، أو أنه شرٌّ فهو شرٌّ، وهكذا في بقية التصرفات من العدل والحق ونحو ذلك.

وأصحاب هذا الاتجاه ينتهون إلى أن أحكام الضمير معصومة من الخطأ والزلل، فيجب العمل بمقتضاها[3].

الردُّ على هذا الاتجاه:

نردُّ على هذا الاتجاه بأن الضمير البشري لا يصلح وحده أن يكون معيارًا للأخلاق، ولا منبعًا لها، ولا مقياسًا نقيس به الأمور[4]؛ وذلك لما يأتي:

---

(١) مناهج التربية الإسلامية: محمد قطب، ص٢٦٣، الدين ضرورة حياة للإنسان: عبد الكريم الخطيب، ص٨٦، الإيمان والحياة: القرضاوي، ص١٨٥.

(٢) سورة البقرة: الآية (١٧٠).

(٣) الإسلام والعقل: د. عبد الحليم محمود، ص٦٣، مشكلات الفكر المعاصر في ضوء الإسلام: أنور الجندي، ص١٩٨، أخلاقنا: الجوهري ص١٤.

(٤) المراجع السابقة.

(١) أن أحكام الضمير غير مستقرة، بل هي مختلفة باختلاف الزمن، فأحكام الضمير لإنسان القرن الحالي تختلف كثيرًا عن أحكام ضمير من عاش في العصور القديمة.

(٢) أن أحكام الضمير تختلف أيضًا بحسب البيئة والمكان، فالضمير في الدول الإسلامية غيره في أوربا غيره في البلاد الشيوعية.

(٣) أن أحكام الضمير في الغالب تكون مُبْهمة ومجملة لا وضوح فيها، والمجمل والمبهم كيف يُعتمد عليه ليكون معيارًا للأخلاق؟!

(٤) أن الضمير الإنساني ينبني في الأساس تحت مفهوم الدين والخُلق، فكيف يكون هو الحكم؟! ومن ثَمَّ فإن من ذهب إلى القول باعتباره وحده مقياسًا للأخلاق.. خاطئ.

وفي النهاية يمكن أن نقول: إن الضمير يمكن أن يكون معيارًا في حالة واحدة؛ إذا تشبَّع بالروح الإسلامي والعقيدة الصحيحة، التي من شأنها إصلاح أيِّ ضمير فاسد، وتحقيق هذا أمر صعب؛ لأنه لا يتحقق إلا مع القلة القليلة.

المبحث الثاني

معيار القيم في الإسلام «مقياس الخير والشر»

علم الأخلاق في نظر الإسلام هو علم الخير والشر، والحسن والقبيح، والطيب والخبيث، وللسلوك الأخلاقي في الإسلامي جانبان: جانب شكلي مادي، وجانب باطني معنوي.

والجانب الشكلي أو المادي يتمثل في: القوانين الأخلاقية المرسومة من قِبل الشرع.

والجانب الباطني المعنوي يتمثل في: الإرادة والغاية والنية.

والقيم الخُلقية مرتبطة بالجانبين معًا؛ لارتباط السلوك الأخلاقي بهما معًا.

وإذا بحثنا عن المعايير الأخلاقية في الإسلام وجدنا أنه وضع معيارين

أساسين في هذا الموضوع:

- معايير أخلاقية موضوعية خارجية.
- معايير أخلاقية ذاتية داخلية.

ونتحدث عن هذين المعيارين بالتفصيل:

أولاً: المعايير الأخلاقية الموضوعية:

يُقصد بالمعايير الأخلاقية الموضوعية: تلك المبادئ التي وضعها الدين الإسلامي، والتي من خلالها تحدد إرادة الله فيما ينبغي أن يكون عليه

السلوك البشري في هذه الحياة؛ سواء كان هذا السلوك متعلقًا بصلة الإنسان مع الله، أو مع النفس، أو مع الغير[1].

وهذه المبادئ تستمد أسسها وقواعدها من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، والمتمثلة في صورة الشريعة والتشريع للبشر[2].

لقد وضع الله تعالى شريعته وتشريعه وجعلها معيارًا أمام الناس ليكون سبيلاً هاديًا لطريق السعادة يميز به بين الحق والباطل والخير والشر في السلوك[3]، يقول الله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾[4]، ويقول سبحانه: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[5]، ويقول الرسول ﷺ: «تركتُ فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدًا؛ كتاب الله، وسنتي»[6].

إن تحديد الإسلام لسلوك الإنسان متعلق بصلة الإنسان بربه، وصلته بنفسه، وبغيره، وذلك كله في إطار المعيار الموضوعي للأخلاق المنبثقة من الشريعة، والذي يمكن تنوعه إلى نوعين:

النوع الأول: معيار التخلق مع الله تعالى:

تحديد علاقة الإنسان بربه ليس فيها مجال للاجتهاد أو إعمال العقل والفكر؛ لأنها مرتبطة بطاعة الله وعبادته، فالله سبحانه حدَّد صورة عبادته

---

(١) علم الأخلاق الإسلامية: مقداد يالجن، ص٢٩٧.

(٢) المرجع السابق.

(٣) دراسات في الفلسفة الإسلامية: محمود قاسم، ٣/ ٨٠.

(٤) سورة المائدة: الآية (١٥).

(٥) سورة إبراهيم: الآية (١).

(٦) حديث صحيح، انظر: التاج الجامع للأصول، ١/ ٤٧.

وطريقة تقديسه بالطريقة التي أراد أن يُعبد ويُقدَّس بها ، ولا مجال لتدخل الإنسان هنا ، فالله أعلم بذلك، وعلى هذا فإن العبادات لا تخضع لمنطق العقل في تفصيلاتها الزمنية[1].

لقد خلق الله تعالى جميع الناس لأجل عبادته وتوحيده؛ **﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾**[2]، فمعيار التخلُّق مع الله العبادة المطلقة له وحده دون سواه، والاعتقاد والاعتراف به سبحانه وبرسالة نبيه ﷺ: ولذلك قرن الله الاعتراف به مع هذه الكلمة العظيمة؛ ولذلك جاء في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ثلاثٌ من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان؛ أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحبَّ المرء لا يحبُّه إلا لله تعالى، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذف في النار»[3].

وبقدر الالتزام بكلمة التوحيد ومقتضياتها يكون الالتزام بالتخلق مع الله سبحانه، وبالتالي الالتزام بالحقِّ مع الناس كافة[4]؛ ولذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «ليس للقلوب سرور ولا لذة تامَّة إلا في محبة الله والتقرب إليه بما يحبه، ولا يمكن محبته إلا بالإعراض عن كل محبوب سواه، وهذا حقيقة لا إله إلا الله،وهذه ملة إبراهيم الخليل عليه السلام وسائر الأنبياء والمرسلين صلاة الله وسلامه عليهم أجمعين»[5].

---

(١) علم الأخلاق الإسلامية: ص٢٩٨.

(٢) سورة الذاريات: الآية (٥٦).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) دراسات في الفلسفة الإسلامية: ٣/ ٨٠.

(٥) الحسبة: لابن تيمية، ص٥٩.

إن معيار التخلق مع الله تعالى يتمثل في:

- توحيد الربوبية له؛ عن طريق الاعتراف بتدبير الله في مُلكه، وتربيته لخلقه، وشمولهم بأنواع الرعاية، وأنه الخالق الرزاق، المحيي المميت، المدبر القادر العالم[1]، وهو وحده يعزُّ من يشاء ويذل من يشاء؛ ﴿**وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ**﴾[2]، وهو رب العالمين النافذ أمره؛ ﴿**بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[3].

- وتوحيد الإلوهية؛ وهو يعني صرف كل أنواع العبادة لله وحده، إن معيار التخلق مع الله تعالى ألا تشرك به؛ ﴿**إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾[4]، وألا تجعل بينك وبين الله وسائط تدعوهم وتسألهم الشفاعة وتتوكل عليهم، وألا تجعل القوانين والأنظمة الوضعية أفضل من شريعة الله، وألا تستهزئ بشيء من دين الله تعالى: ﴿**قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۞ لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ**﴾[5]، وألا تُظاهِر الكفار وتعاونهم على المسلمين؛ ﴿**وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾[6]، وأن تؤمن بالغيب؛ فالإيمان بالغيب من صفات أهل الجنة؛ ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ**

---

(١) المرجع السابق.

(٢) سورة يونس: الآية (١٠٧).

(٣) سورة الملك: الآية (١).

(٤) سورة النساء: الآية (١١٦).

(٥) سورة التوبة: الآيتان (٦٥، ٦٦).

(٦) سورة المائدة: الآية (٥١).

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[1]، وأن تؤمن بالرسل أجمعين، وبالملائكة، وجميع الكتب السماوية، والقضاء والقدر، واليوم الآخر[2].

فإذا ما انتهيت إلى هذا كلّه تكون متخلّقًا بحق مع الله تعالى، سعيدًا في الدنيا والآخرة.

النوع الثاني: معيار القيم الخُلقية مع الغير «مجال التعامل الاجتماعي»:

هذا المعيار الموضوع للخُلق مع الغير يكون بالالتزام بما أوجبه الإسلام تجاه الغير؛ من حسن المعاملة والطاعة، فإذا فعل الإنسان كمُل له ما يحقق السعادة، فهو بالإضافة إلى تخلُّقه مع الله سبحانه كان على خُلق كريم مع الغير؛ متمثلاً في الالتزام والمحافظة على أحكام الشريعة.

إن هذا الموضوع الخارجي للقيم يظهر جليًّا في أمرين أساسيين؛ هما:

الأمر الأول: المحافظة على الكليات أو الضرورات الخمس التي هي أمهات لكل الأحكام الشرعية[3]؛ والمتمثلة في:

- حفظ الدين: فلا يكفر، ولا يدعو غيره للكفر، ولا يسمح بحرية الردة والكفر والزندقة[4].
- حفظ النفس: فلا يقتل نفسًا معصومة؛ يقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ

---

(١) سورة الملك: الآية (١٢).

(٢) علم الأخلاق: ص٢٩٩.

(٣) التحرير في قاعدة المشقة تجلب التيسير: ص١١.

(٤) المرجع السابق.



عَذَابًا عَظِيمًا﴾[1]، ولا يُقبل على الانتحار كما يفعل أهل الشرك؛ يقول تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾[2].

- حفظ المال: فلا يسرق غيره: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللهِ﴾[3]، ولا يتعامل مع غيره بالربا؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾[4]، ولا يأكل مال غيره بالباطل، ولا يرتشي ولا يغش.
- حفظ العقل: فلا يشرب الخمر، ولا يدعو غيره إلى شربها، ويندرج تحت تحريم الخمر كل ما يضرُّ العقل ويغيِّبه، فكل مُسْكر خمر، وكل خمر حرام[5].
- حفظ العِرض: فلا يقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، ولا يخوض في أعراض الناس.

الأمر الثاني: المعايير العامة في التعامل مع الغير:

وهذه المعايير العامة التي يتحلى بها الإنسان مع الغير، وتكون معيارًا خُلقيًا موضوعيًا منبثقًا من الشريعة الإسلامية.. تتمثل في الآتي:

(١) على المسلم أن يضع نفسه موضع غيره عند التعامل معه، فإذا فعل ذلك كان مؤمنًا حقًا؛ وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه»[1].

---

(١) سورة النساء: الآية (٩٣).

(٢) سورة النساء: الآية (٢٩).

(٣) سورة المائدة: الآية (٣٨).

(٤) سورة البقرة: الآية (٢٧٥).

(٥) الأشباه والنظائر: ص١٥.

(٢) على المسلم أن يكون مخلصًا عند العمل ومعاملة الغير؛ لأنه الله تعالى يجازيه على عمله بمقدار إخلاصه له، وهذه النقطة هي ذات أهمية كبرى في التعامل مع الغير؛ لأن عدم انتظار الجزاء من الناس واحتساب العمل عند الله على حسن المعاملة يعدُّ صفقة تِجارية وخُلقية عظيمة[٢].

لقد ضرب الله تعالى مثلاً للعمل المخلص الذي ينبغي أن يكون نموذجًا ومثالاً على عمل المخلصين؛ فقال سبحانه: **﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۞ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُورًا ۞ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۞ فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۞ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾**[٣].

(٣) أن يكون آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر؛ فهذا من أهم مبادئ المسؤولية الأخلاقية؛ وفي ذلك يقول الله تعالى: **﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاَةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾**[٤]، ويقول ﷺ: «والذي نفسي بيده، لتأمرُنَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر؛ أو ليوشكنَّ الله أن يبعث عليكم عقابًا منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم»[٥]، ويقول ﷺ: «مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة؛ فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، وكان الذين في أسفلها إذا استقوا في الماء مرُّوا على من فوقهم؛

---

(١) صحيح الجامع الصغير: للألباني، برقم ٧٠٨٥.

(٢) علم الأخلاق الإسلامية: ص٣٠٤.

(٣) سورة الإنسان: الآيات (٨ -١٢).

(٤) سورة لقمان: الآية (١٧).

(٥) سبق تخريجه.

فقالوا: لو أنَّا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نُؤذ من فوقنا! فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا»[1].

فإذا نظرنا إلى النصوص السابقة وغيرها تبيَّن لنا إثبات المسؤولية على الإنسان تجاه الغير.

(٤) أن يكون محافظًا على العهود والمواثيق وأداء الأمانات؛ فلا ينقض عهدًا، ولا يخون أمانة، وأن يفي بما وعد به[2].

وقد وردت الأخبار تؤكد ذلك؛ ومنها:

- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾[3].
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾[4].
- قوله سبحانه: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾[5].
- قوله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»[6].
- قوله ﷺ: «اضمنوا لي ستًّا من أنفسكم أضمن لكم الجنة؛ اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا وعدكم، وأدُّوا إذا ائتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضُّوا أبصاركم، وكُفُّوا أيديكم»[1].



---

(١) سبق تخريجه.

(٢) علم الأخلاق الإسلامية: مقداد يالجن، ص٣٠٢.

(٣) سورة المائدة: الآية (١).

(٤) سورة النساء: الآية (٥٨).

(٥) سورة الأنعام: الآية (١٥٢).

(٦) رواه البخاري في صحيحه: كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، حديث رقم ٣٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب خصال المنافق، حديث رقم ١٠٧.

(٥) أن يتعاون معه على الخير، ولا يتعاون على الشر؛ وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[٢].

(٦) أن يعلم أن الناس متساوون في أصل الخِلقة، فليس هناك جنس أفضل من جنس، بل الناس متساوون في الكرامة؛ لأنهم جميعا بنو آدم[٣]؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[٤].

وقال رسول الله ﷺ: «كلُّكم بنو آدم، وآدم خُلق من تراب، لينتهينَّ أقوام عن فخرهم بآبائهم؛ هُم فحم من فحم جهنم! أو ليكونُنَّ أهون على الله من الجعلان[٥]، تدفع النتن بأنوفها»[٦].

وهذه المساواة بين الناس توجب العدالة في المعاملة؛ فلا يُرجَّح فرد على فرد آخر في التكريم على أساس الجنس أو اللون، والعدالة تعني إعطاء كل ذي حقٍّ حقَّه[٧]؛ وفي ذلك يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ

---

(١) رواه أحمد في المسند، وابن حبان في صحيحه، والحاكم في المستدرك، انظر: الترغيب والترهيب، ٤/ ٧٥.

(٢) سورة المائدة: الآية (٢).

(٣) إحياء علوم الدين: ٤/ ١٦٨، الأخلاق الإسلامية: ص٢١٤.

(٤) سورة الحجرات: الآية (١٣).

(٥) الجُعْلان: بضم الجيم والعين: مفرده (جُعَل)، وهو ذكر الجعران، انظر: لسان العرب، مادة (جعل).

(٦) رواه أبو داود والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح، انظر: السُّنة، للبغوي: ١٣/ ١٢٤، المشكاة: حديث ٣٩٦.

(٧) الحسبة في الإسلام: ابن تيمية، ص٦، أصول المنهج الإسلامي: ص٣٠٣.

وَالإحْسَانِ﴾[1]، ويقول سبحانه: ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى﴾[2].

ويقول رسول الله ﷺ: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين؛ الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وُلُّوا»[3].

(٧) أن يكون صادقًا في القول والفعل؛ صادقًا مع الله، صادقًا مع النفس، صادقًا مع الغير في هذا المجال؛ فلا يكذب، ولا يغتاب، ولا يداهن، ولا يرائي[4]، وقد وردت أخبار كثيرة في هذا الموضوع؛ نذكر منها ما يلي:

- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[5].
- وقوله ﷺ: «عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلى البرِّ، وإن البرَّ يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يُكتَب عند الله صدِّيقًا، وإياكم والكذب؛ فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يُكتب عند الله كذَّابًا»[6].

---

(١) سورة النحل: الآية (٩٠).

(٢) سورة المائدة: الآية (٨).

(٣) صحيح مسلم: كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، ٣/ ١٤٥٨.

(٤) رسالة المسترشدين: ص١٧١، إحياء علوم الدين: ١/ ٢٠٢، الجامع لأحكام القرآن: للقرطبي، ٦/ ١٤٠.

(٥) سورة التوبة: الآية (١١٩).

(٦) صحيح البخاري بشرح فتح الباري – كتاب الأدب – باب قوله تعالى: +يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ"١٠/ ٥٠٨. صحيح مسلم – كتاب البر والصلة – باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله ٤/ ٢٠١٣.

(٨) أن يكون متقنًا لعمله كما ينبغي: وهذا المبدأ لا ترجع أهميته إلى التعامل الاجتماعي فقط بل إلى التقدم الحضاري، فلا تنتظم أور الناس إلا بإتقان كل واحد عمله ولا يتقدم العلم ولا تتقدم الحضارة إلا إذا بذل العلماء والعاملون في جميع الميادين أقصى جهدهم لإتقان العمل[١]، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»[٢].

(٩) التسابق إلى الخيرات، ومقابلة الإساءة بالإحسان؛ ولهذا يقول سبحانه: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾[٣]، ويقول ﷺ: «كلُّ معروف صدقة، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق، وأن تفرغ من دلوك في إناء اخيك»[٤]، ويقول ﷺ: «تبسُّمك في وجه أخيك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلال وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة»[٥].

وبعد؛ فهذه هي المعايير الموضوعية الخارجية التي ينبغي أن يكون عليها المسلم، فهي معايير منبثقة من الشريعة الغراء، هذه الشريعة التي نظّمت حياة الفرد والمجتمع في جميع المجالات؛ اجتماعيًا، وسياسيًّا،واقتصاديًا،تلك الشريعة التي تقيِّد المسلم بتوجيه أخلاقي عامّ من حيث تخلقه مع الله ومع الغير.

(١) علم الأخلاق الإسلامية ص٣٠٤. في المجتمع الإسلامي: أبو زهرة ص٥٤.

(٢) تمييز الطيب من الخبيث: الشيباني ص٤٣.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٤٨.

(٤) أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١/ ٤٠٥.

(٥) أخرجه ابن ماجة في سننه، والترمذي في سننه، وقل حديث حسن، انظر: الترغيب والترهيب ٣/ ٤٢١.

ثانياً: المعايير الأخلاقية الذاتية :

تحدَّثنا عن المعايير الأخلاقية الموضوعية؛ التي هي مجموعة من المبادئ الشرعية والأخلاقية، التي جاء بها الإسلام ووضعها في صورة مواد تشريعية لنظام الحياة من خلال الكتاب والسنة.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو:

هل نكتفي بهذا المعيار الخارجي أساسًا للأخلاق، أم أننا نحتاج إلى معيار آخر يساعدنا على معرفة أخلاقية كل سلوك؟

وللإجابة على ذلك نقول: إنه لابد من معيار آخر يكتسبه الإنسان ليكون أساسًا للأخلاق بالإضافة إلى المعيار الخارجي؛ هذا المعيار يكون ذاتيًّا وداخليًّا في الإنسان؛ فالإنسان كما نعلم له قوتان للتمييز بين الخير والشر؛ وهما: القوة العاقلة، والقوة القلبية (الوجدانية)، وهما من المعايير الداخلية الذاتية التي اعتدَّ بها الإسلام لوزن الأعمال الأخلاقية.

وهذا المعيار الداخلي يتمثل في العقل، والوجدان، والنية؛ فهذه معايير ثلاثة نتحدث عنها بالتفصيل:

المعيار الأول: معيار العقل:

العقل نعمة من الله تعالى، يختصُّ به الإنسان من بين خلق الله، وبه يميِّز بين الحق والباطل، والخير والشر، والفلاح والضلال، وإذا كان العقل كذلك فإن دوره يظهر كمعيار لوزن الأعمال الأخلاقية.

بالعقل يستطيع الإنسان أن يفكِّر ويحصل على العلم، إن الآيات التي تنتهي بكلمة «يعقلون»، أو «يعلمون»، أو «يتفكرون»، أو «يتدبرون».. كثيرة جدًّا، لقد جاء الإسلام ليطلق العقل من إساره، ويضع عنه الأغلال التي عطَّلته

زمنًا طويلاً[1]؛ يقول الله تعالى: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[2]، ويقول سبحانه: ﴿أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ﴾[3]؛ ففي الآيتين دعوة للعقل إلى النظر والتفكير دون حدود.

لقد أقرَّ الإسلام معيارية العقل؛ حيث اعتبره كثير من الفقهاء مصدرًا من مصادر التشريع الإسلامي، وهو المسمى بالاجتهاد «القياس»؛ حيث كان يستعمل الفقيه وُسْعَه ويبذل جهده في استنباط الحكم الشرعي في ضوء الكتاب والسنة[4].

وقد استعمل النبي ﷺ عقله في كثير من المسائل؛ فقد ثبت وقوع الاجتهاد منه، بل وأقرَّ أصحابه على معيارية العقل واستخدامه، وما قصة معاذ بن جبل إلا دليلاً على صدق ما نقول، فقد ثبت أنه لما أرسل معاذًا إلى اليمن قاضيًا قال له: «كيف تقضي إذا عرض لك قضاء؟»، قال: أقضي بكتاب الله، قال: «فإن لم تجد؟»، قال: فبسنة رسول الله ﷺ، قال: «فإن لم تجد؟» قال: أجتهد رأيي لا آلو (أي: لا أقصر)، فضرب رسول الله ﷺ على صدره، وقال: «الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يُرضي الله ورسوله»[5].

---

(١) معالم الثقافة الإسلامية: عبد الكريم عثمان، ص٦١.

(٢) سورة يونس: الآية (١٠١).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٨٥).

(٤) المستصفى: للغزالي، ١/ ١٢١، الاعتصام: للشاطبي، ٢/ ٣٣٢، نهاية السول: للإسنوي، ٤/ ٥٢٤، المحصول في أصول الفقه: ٤/ ٣٦٤.

(٥) انظر: التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول، ٣/ ٦٦.

وعلينا أن نقرِّر أن المعيار العقلي وحده دون الاستعانة بالشرع لا يمكن أن يكون هو الأساس لقياس السلوك الأخلاقي.

المعيار الثاني: المعيار الروحي أو الوجداني:

المعيار الروحي والوجداني هو ما يُعبَّر عنه بالضمير الأخلاقي.

والضمير (أو كما يعبر عنه بالوجدان) هو عماد الأخلاق وركيزتها الأولى، ما دام وجد هذا الضمير مددًا له؛ وهذا المدد يتمثل في الإيمان، فعقيدة المؤمن في الله أولاً، وعقيدته في الحساب ثانيًا؛ تجعل ضميره في حياة وفي صحوٍ أبدًا.

إن الضمير الديني هو الركيزة الأولى للأخلاق، وهو الأساس الأصيل لحياة اجتماعية فاضلة، وليس الضمير الفلسفي الذي يبني آراءه على مجرد خرافات لا تمتُّ إلى الحقيقة بصِلة!

إن الضمير الإيماني هو الذي يجعل المؤمن عفيفًا شريفًا نقيًّا، بعيدًا عن المحرمات، محبًّا للناس، وهو الذي يجعل الحاكم عادلاً في حكمه، هو الذي يجعل التاجر أمينًا؛ لا يغش ولا يحتكر ولا يكذب، هو الذي يجعل الرجل يحبُّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه.

وإذا كان الملحدون يزعمون أنه يمكن الاستغناء عن الإيمان بالضمير، واتخاذه أساسًا ومقياسًا للأخلاق بدل الدين؛ فهذا هراء ادَّعاه الغربيون لكي يتحرروا من سلطان الكنيسة، وعليه فإن الضمير وحده دون قوة إيمانية لا يصلح معيارًا للسلوك الأخلاقي.

ثالثًا: النية ودورها في السلوك الأخلاقي:

النية شيء باطني؛ وهي عبارة عن: قصد الشيء وعزم القلب عليه[1].

والنية في السلوك الأخلاقي هامَّة، فلا يكفي العمل الظاهر معيارًا للسلوك الأخلاقي، بل لابد من عمل داخلي، وهذا العمل متمثل في نية الإنسان؛ فكل تصرفاته يجب أن تكون منبثقة عن نية؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»[2]؛ وعلى هذا فمن نوى نية حسنة فله أجر العمل بها وإن لم يعملها.

والحقيقة أن النية ليست كل شيء في العمل الأخلاقي، وإنما هي ركن فيه، فالعمل الأخلاقي له كيان مادي وروحي؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسامكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[3].

وبهذا تتكامل العناصر الثلاثة لتكون معيارًا للأخلاق التي يجب أن يكون عليها الإنسان الصالح، وهي حينما تكون مشبعة بروح الإيمان فإنها تصحُّ أن تكون حاكمًا وضابطًا لسلوك الإنسان في الحياة بما يرضي ربه وخالقه.

(١) الأشباه والنظائر: للسيوطي، ص١٦.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الإيمان، باب ما جاء أن الأعمال بالنية، حديث رقم ٥٤، صحيح مسلم: كتاب الإمارة، باب إنما الأعمال بالنية، رقم ١٩٠٧.

(٣) رواه مسلم في صحيحه: كتاب البر، ٤/ ١٩٨٧.



الفصل الرابع

تقرير مبدأ الإلزام والالتزام الأخلاقي



الفصل الرابع

تقرير مبدأ الإلزام والالتزام الأخلاقي

تمهيد:

من المعلوم أن حرية الإنسان موجودة، إلا أنها قد تختلف من مجال إلى آخر؛ أعني أن حرية الإنسان العملية ليست حرية مطلقة؛ ومن ثَمَّ نقرِّر وجود حرية أخلاقية، ووجود سلطة أو جبرية أخلاقية؛ ونقصد بالجبرية هنا تلك الجبرية التي يمكن للإنسان أن يخالف دواعيها بشكل من أشكال المخالفة، وهذا ما نقصده من الإلزام الأخلاقي.

فالإلزام الأخلاقي إذن هو: ما توجبه الجماعة على الفرد من الالتزام بالأخلاق التي شرعها الله سبحانه لتكون هذه الأخلاق حُجَّة له أو عليه، أو هو ما يوجبه الفرد على نفسه طواعية دون تدخل من الجماعة.

والواقع يقرِّر أنه لابد من وجود إلزام والتزام أخلاقي حتى تسير الحياة، ودرجة هذا الالتزام مبنيَّة على درجة الإلزام؛ من حيث القوة والضعف.

ولما كان من أهم مقوِّمات الأخلاق مدى ما فيها من قوة تدفع الناس إلى العمل بها كان الإلزام إذن من أهم الأسس التي يقوم عليها صرح بناء الأخلاق، ومتى أردنا أن نقدِّر ما في الأخلاق من إلزام فنتحدث في هذا الفصل عن الاتجاهات المختلفة في الإلزام الأخلاقي، ورأي الإسلام في الإلزام الأخلاقي، ثم نتحدث عن مجالات الالتزام الأخلاقي ودرجاته، وعن

خصـائص هـذا الإلـزام وآثـاره، وإثبـات الجـزاء الأخلاقـي؛ وذلـك في عـدة مباحث:

المبحث الأول: الاتجاهات الوضعية المختلفة في الإلزام الأخلاقي.

المبحث الثاني: موقف الإسلام من الإلزام الأخلاقي.

المبحث الثالث: مجالات الالتزام الأخلاقي ودرجاته ومراتبه.

المبحث الرابع: خصائص الإلزام الأخلاقي.

المبحث الخامس: المسؤولية الأخلاقية؛ (مفهومها، ومجالها، وأقسامها).

المبحث السادس: أنواع الجزاء الأخلاقي.

المبحث الأول

الاتجاهات الوضعية المختلفة في الإلزام الأخلاقي

الإلـزام الأخلاقـي في النُّظم الوضـعية يختلـف نتيجـة اخـتلاف البيئـات والعقائد والمذاهب، وبفحص هـذه الخلافـات أو الاتجاهـات بينهـا خلصـنا إلى أن هنــاك اتجــاهين رئيســين يحكمــان مبــدأ الإلــزام الأخلاقــي في الــنُّظم الوضعية:

*** الاتجاه الأول**[1]:

وهـو الـذي يـردُّ مرجعيـة سـلطة الإلـزام الأخلاقـي إلى ذات الإنسـان؛ المتمثلة في العقل والوجدان والمنفعة واللذة... إلخ.

وإذا كـان أنصـار هـذا الاتجـاه قـد اتفقـوا علـى أن أسـاس الإلـزام الأخلاقـي هـو ذات الإنسـان نفسـه، إلا أنهـم فيمـا بيـنهم اختلفـوا في مرجعيـة هذه الذات؛ وذلك على النحو التالي:

- من هؤلاء من يُرجع هذه السلطة إلى العقل البشري، ويرى أنـه لابـد أن نحتكم إلى العقل في وضع القانون الأخلاقي؛ لأنه هو الـذي يُعـرف بـه الخـير والشـر، والفضـيلة والرذيلـة، فهـو قـادر علـى وضـع القـانون

(١) الفلسـفة الخُلقيـة: توفيـق الطويـل، ص١٥٨، علـم الأخـلاق الإسـلامية: مقـداد يـالجن، ص٢٣٢، مشكلات الفكر المعاصر في ضوء الإسلام: أنور الجندي، ص١٩٥.

الأخلاقي في جوانبه الفردية والاجتماعية، وبالتالي فهو أساس الإلزام الخلقي، ومن أنصار هذا المذهب «صمويل كلارك» و«لاستون»[1].

- ومنهم من يُرجِع سلطة الإلزام الخلقي إلى اللذة والمنفعة؛ حيث يرى أنصار هذا الاتجاه أن معيار الأعمال ومناط الأحكام هو اللذة والمنفعة، فالفضيلة تدور مع اللذة والمنفعة وجودًا وعدمًا، فهي إذن أساس الإلزام الأخلاقي، ومن أنصار هذا المذهب قديمًا «أبيقور»، وحديثًا «بنتام»، و«توماس هوبز»، و«جون ستيوارت ميل»[2].
- ومنهم من يُرجع سلطة الإلزام إلى الوجدان أو الحاسة الخلقية؛ وهذا الاتجاه يذهب إلى أن الوجدان «الضمير» هو أساس الإلزام الخلقي؛ لأنه هو القوة الخفية النابعة من نفس الإنسان، التي توضح له طريق الخير وتدفعه إلى سلوكه، وتبين له طريق الشر وتحذِّره منه، ومن أنصار هذا المذهب «جان جاك روسو»، و«عمانويل كانت»، و«جون لوك».. وغيرهم[3].

تفنيد هذا الاتجاه:

إذا كان أنصار هذا الاتجاه يُرجِعون أساس الإلزام الخلقي إلى ذات الإنسان، على اختلاف بينهم في تكييفها؛ هل هذا الإلزام مرجعه العقل، أو اللذة والمنفعة، أو الوجدان «الضمير».. فإنه من المسلَّم به أن هذه الأشياء الداخلية وإن كانت مهمة إلا أنها لا تصلح أن تكون وحدها أسسًا للإلزام

(١) الفلسفة الخُلقية: الطويل، ص١٦٠، أخلاقنا: الجوهري، ص٢٠.

(٢) الخُلق الكامل: محمد أحمد جاد المولى، ص٢٠٢، علم الأخلاق الإسلامية: ص٢٣٢.

(٣) الإسلام والعقل: ص٦٣.

الأخلاقي الذي يرجع إليه، وبالتالي يكون الإنسان مسؤولا عنه مسؤولية أخلاقية[1].

- فإذا نظرنا إلى العقل: فإنا نسلّم بأهميته ومنزلته، إلا أن القول بأنه أساس الإلزام الأخلاقي قولٌ غير مستقيم، فالعقول متفاوتة في الماضي والحاضر، ثم إلى أيِّ عقل نحتكم؟! إلى عقل الفيلسوف القديم في مصر أواليونان، أو الفيلسوف في العصور الوسطى، أو الحديثة؟!! إننا لا نريد أن نحطّ من قدر العقل ولا أن نقلل من منزلته؛ كيف وهو من أكبر النعم على الإنسان؟! ولكننا نريد أن نحدِّد مجاله فقط، ومجاله أن يكتشف ويخترع ويهدي إلى الخير، لكن لأن يكون مصدرًا للأخلاق وحده؛ فلا، إلا إذا كان مغروسًا بشجرة الإيمان[2].
- وإذا نظرنا إلى اللذة والمنفعة فقد عرفنا أن معايير اللذة والمنفعة متفاوتة؛ لأن غرائز الناس متضاربة ومتعددة؛ فمثلاً اللذة عند بعض الناس قد توجد مؤقتًا في بعض الأمور المحرَّمة؛ مثل: تناول المُسْكرات، وارتكاب الموبقات، كما أن المنفعة قد تُوجد عند بعض الناس في أمور محرَّمة مثل: التعامل بالربا، والسرقة، والاختلاس، والاتِّجار في المحرَّمات؛ فهل يمكن بعد ذلك أن نقول: إن المنفعة واللذة يصلحان وحدهما أساسًا للإلزام الخلقي[3]؟!

---

(١) الفلسفة الخُلقية: توفيق الطويل، ص١٥٨.

(٢) المرجع السابق.

(٣) الإيمان والحياة: القرضاوي، ص٢٠١.




إن ما يراه بعض الناس نافعًا في أماكن وأزمان معينة قد يكون ضارًّا في أماكن وأزمان أخرى، وما قد يسبب اللذة لإنسان يمكن في الوقت نفسه أن يكون مصدر ألم لإنسان آخر، والواقع يؤكّد ذلك.

نخلص إلى أن اللذة والمنفعة لا يصلحان أساسًا ومصدرًا للإلزام الخلقي وحدهما، بل لابد معهما وفي مقدمتهما من مصدر إلهي، يوضح أن اللذة والمنفعة الحقيقية فيما شرعه الله تبارك وتعالى، فمن أراد سعادة الآخرة تحقق له سعادة الدنيا والآخرة، ومن أراد سعادة الدنيا ولذتها تحقق له ذلك دون أن ينال من الآخرة شيئًا[1]، وصدق الله العظيم إذ يقول: **﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾**[2].

- وإذا نظرنا إلى الوجدان «الضمير» فإن أحكام الضمير غير ثابتة، بل تختلف بحسب الزمن، فأحكام ضمير من عاش في القرون المظلمة تختلف كثيرًا عن أحكام من عاش في العصور المتوسطة، عنها في العصور الحديثة، وكذلك تختلف أحكام الضمير بحسب البيئة والمكان، فالضمير في إفريقيا غيره في أوربا غيره في الدول الإسلامية[3].

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: المودودي، ص١٧٦، الإيمان والحياة: القرضاوي، ص٢٠٤.

(٢) سورة الشورى: الآية (٢٠).

(٣) الإسلام والعقل: ص٦٤، مشكلات الفكر المعاصر: ص١٩٨.

ونخلص إلى أن الضمير وحده لا يكفي لأن يكون أساس الإلزام الخلقي بل لابد معه من دين يوجهه إلى طريق الصواب، وخير دين هنا هو الإسلام[1].

الاتجاه الثاني:

يُرجع سلطة الإلزام الأخلاقي إلى مصادر خارجية؛ مثل القانون، أو الضغط الاجتماعي[2]، فأنصار هذا الاتجاه بالرغم من اتفاقهم على أن المصادر الأخلاقية الخارجية هي الأساس والمصدر للإلزام الأخلاقي، إلا أنهم اختلفوا في مصدر هذا الأساس.

- فمنهم من يرى أن سلطة الإلزام الأخلاقي هو القانون وحده؛ ويُقصد بالقانون هنا تلك القوانين التي وضعها البشر والتزم بها الناس؛ حيث قالوا: ما دامت نظمت شؤون الحياة، وحددت العلاقات بين الناس بعضهم بعضًا؛ وجب الالتزام بذلك في كل شؤون الحياة، ومنها الأخلاق، فيكون القانون وحده هو سلطة الإلزام الأخلاقي[3].

تفنيد هذا الاتجاه:

نسلّم أن القانون أمر لابد منه، ولكن لا نسلّم أنه أساس الإلزام الخلقي؛ وذلك أنه من وضع البشر؛ لأن سلطانه على الأمور الظاهرة فقط، أما الأمور الباطنة فلا سلطان للقانون عليها، كما أن مهمة القانون

---

(١) المرجعين السابقين.

(٢) علم الأخلاق الإسلامية: مقداد يالجن، ص٢٣٢، الفلسفة الخُلقية: توفيق الطويل، ص١٥٨.

(٣) مشكلات الفكر المعاصر: ص١٩٩.

الأساسية هي معاقبة المسيء، دون أن يستطيع مكافأة المحسن[1]، وذلك في الغالب الأعمِّ منه.

كما أن التحايل والإفلات من سلطة القانون سهل وميسور، والهرب من عقوبته ليس بالشيء العسير.

وإذا كان القانون عاجزًا عن كبح الجريمة والفساد؛ فإنه لأعجز عن أن يكون دافعًا إلى الخير[2].

ومهما افترضنا في القانون البشري من مطابقة العدل والحق فإنه ليس فيه قوة ذاتية أخلاقية، وإنما قوَّته في السلطة القائمة على تنفيذه.

ومن كل هذا ندرك أن القانون البشري لا يصلح وحده أن يكون أساسًا للإلزام الخلقي[3].

- ومنهم من يُرجِع سلطة الإلزام الأخلاقي إلى الضغط الاجتماعي؛ والضغط الاجتماعي هو عبارة عن التشديد والتضييق من المجتمع على تصرُّفات الإنسان الأخلاقية، ومحاسبته عليها[4]، وهؤلاء يرون أن التربية الاجتماعية تهتم بتحديد القواعد التي تضبط سلوك الناس الاجتماعي، والذي يسهم في استقرار الحياة الاجتماعية واستمرارها على النحو الذي يحقق لهم الأمن والاستقرار والرخاء.

  وعلى هذا فإن علماء الغرب يرون أن الجماعة هي أساس الإلزام الأخلاقي؛ عن طريق الضغط على غير السويِّ ليحسِّن أخلاقه،

---

(1) الإيمان والحياة: القرضاوي، ص١٨٧، رسالة الردِّ على الدهريين: جمال الدين الأفغاني، ص٧٢.

(2) المراجع السابقة، وانظر: الدين، محمد عبد الله دراز، ص٣٥.

(3) المراجع السابقة.

(4) الدين: محمد عبد الله دراز، ص٣٤.

وعلى هذا فإن كل جماعة تتفق فيما بينها على مستوى مرغوب من السلوكيات، وإن كان يختلف عن جماعة أخرى.. فهو مصدر الإلزام الأخلاقي!

تفنيد هذا الاتجاه:

هذا الاتجاه لا يصلح أساسًا للأخلاق؛ لأننا لو سلّمنا بالموافقة على تعدد السلوكيات والأخلاق بتعدد المجتمعات، لا نسلّم بوحدة هذه السلوكيات، فما يكون حسنًا في مجتمع قد يكون قبيحًا في مجتمع آخر؛ لذلك كان المجتمع والإنسان في حاجة إلى تشريع يحكم غرائزه ويوجّهها الوجهة السليمة.

إن الضغط الاجتماعي لا يصلح أن يكون مصدرًا للإلزام الأخلاقي ما لم يهتد بشرع سماوي منزّل من عند الله تعالى؛ الذي يعرف طبائع البشر ويشرّع لها ما يصلحها في كل زمان ومكان.

المبحث الثاني
رأي الإسلام في الإلزام الأخلاقي

الإسلام؛ عقيدة وشريعة.. لا يكتفي بعامل واحد للإلزام الأخلاقي، بل يستخدم عوامل متعددة ومتنوعة، وهذا أمر يناسب الفروق الفردية بين الناس؛ نظرًا إلى أن الناس ليسوا سواء في درجة التأثر بتلك الدوافع إلى السلوك.

ونتحدث فيما يلي عن أهم العوامل التي استخدمها الإسلام للإلزام الأخلاقي:

العامل الأول: سلطة الله سبحانه:

وهي الأساس الأول للإلزام الأخلاقي، فقد خلق الله سبحانه وتعالى الكون وما فيه، ووضع النظام الأخلاقي لكل الناس في كل زمان ومكان[1]، وعلى الإنسان أن يراعي في المقام الأول هذه السلطة وذلك الالتزام بالأمور التالية:

(١) الخوف من الله:

الخوف مطلوب من كل مكلَّف، والخوف من الله دليل على معرفته حق المعرفة[2]، وهذا يحجز الإنسان عن المعاصي؛ يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ

---

(١) مجموع الفتاوى: ١/ ٩٦، أصول المنهج الإسلامي: ص٥١، ٥٢.

(٢) المرجعين السابقين.

الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[1]، وأصل ذلك الخوف من الله هو قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2]، وقوله سبحانه: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾[3]، والخوف من الله خُلق المسلم، وقد بيَّن الله تعالى في قرآنه جزاء الخوف منه؛ فقال:

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[4].

(٢) التوكل على الله:

وهو تفويض الأمر إلى الله تعالى والثقة به، مع ما قُدِّر له من التسبُّب، وهذا يعني أن يعتمد الإنسان على ربه، فهو أساس الإلزام في الحياة؛ ومنها الإلزام الخلقي[5]، والتوكل على الله محلُّه القلب، ولا تنافيه حركة الجوارح والعمل، فهما صنوان لا يفترقان، ومن أراد غير ذلك فهو سيئ الخُلق؛ لأنه حرَّف الحُكم؛ يقول تعالى: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[6]، بل إن الله يأمرنا بالأخذ بالأسباب المؤدية إلى جلب الرزق؛ فيقول سبحانه: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٢٠١).

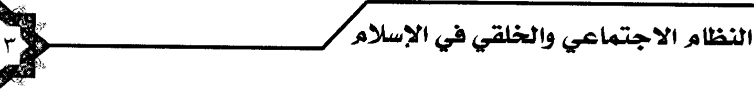
(٢) سورة آل عمران: الآية (١٧٥).

(٣) سورة الرعد: الآية (٢١).

(٤) سورة الرحمن: الآية (٤٦).

(٥) أصول المنهج الإسلامي: ص٥٥.

(٦) سورة الملك: الآية (١٥).



فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[١].

فقد جعل السعي والعمل مشمولاً بذكر الله؛ حتى يجعل الإنسانُ اللهَ نُصبَ عينيه، وهو نوعٌ راقٍ من الإلزام بأسلوب يليق بجلال الله والإيمان به، وهو طريق الفلاح كما حددت الآية.

والتوكل على الله من أُسس الإلزام الخلقي، وما عليه بعض الناس من التواكل وعدم العمل والبقاء عالة على الناس؛ هو في الحقيقة مما يتنافى مع السجيَّة الإيمانية والأخلاقية والإسلامية[٢].

(٣) محبة الله تعالى:

وهي أساس الإلزام الخلقي، ومحبة الله ليس لها حدود، ولكن لها علامات تدل عليها، ولها شواهد وثمرات وأحكام وموجبات، وحب الله يورث طاعته واتباع أوامره، ويرفع الإنسان إلى مرتبة الإحسان ومكارم الأخلاق[٣].

إن محبة الله تعالى خير معين على التآلف والتوادُدِ والتراحم وصلاح أمر الناس[٤].

(٤) مراقبة الله تعالى وخشيته:

فقد اهتمَّ الإسلام بتربية الإنسان تربية سليمة، قوامها مراقبة الله تعالى وخشيته في كل ما يصدر عنه من قول أو عمل، فالمسلم يعلم علم

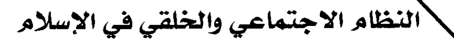
---

(١) سورة الجمعة: الآية (١٠).

(٢) أصول المنهج الإسلامي: ص٥٦.

(٣) مدارج السالكين: لابن القيم، ص٣٧.

(٤) مجموع الفتاوى: ١/ ٦٥.





اليقين أن الله معه في كل زمان ومكان، وأنه مطّلع على حركاته وسكناته، ولا يخفى عليه شيء من أمره، ولا يعزُب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء[1]، وهو يؤمن بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[2]، وبقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَخْفَىَ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء﴾[3]، وبقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾[4]، وقوله سبحانه: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُور﴾[5].

إن الإسلام يربي في نفس المؤمن الرقابة الذاتية؛ التي تضبط سلوكه وتصرفاته حتى ولو كان بعيدًا عن أعين السلطة الحاكمة؛ لأنه يعلم أن عين الله لا تغيب، وأن رقابته لا تتركه لحظة واحدة؛ ﴿إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[6]، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾[7]، ﴿وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾[8].

إن الرقابة التي نبغيها هي مراقبة الله تعالى؛ والمتمثلة في الخشية والخوف من الله تعالى؛ بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وهي التي

---

(١) الرقابة على الأموال في الفكر الإسلامي: محمد عبد الحليم عمر، ص٢٦٩؛ اقتصادنا: باقر الصدر، ص١٥١.

(٢) سورة الحديد: الآية (٤).

(٣) سورة آل عمران: الآية (٥).

(٤) سورة طه: الآية (٧).

(٥) سورة غافر: الآية (١٩).

(٦) سورة النساء: الآية (١).

(٧) سورة الأحزاب: الآية (٥٢).

(٨) سورة يونس: الآية (٦١).

تجعل المؤمن محافظاً على أن يسير في الخير، حريصاً على أن يبتعد عن كل ما يجلب سخط الله تعالى عليه[1].

العامل الثاني: سلطة الجماعة:

جعل الإسلام سلطة الجماعة ملزمة للسلوك الأخلاقي، وبناء على ذلك اعتبر المجتمع مسؤولاً عن انحراف الأفراد؛ فللمجتمع في التربية الإسلامية سلطة عظيمة في الإلزام الأخلاقي الذي تعتنقه الجماعة، وهو لا يتنازل عن هذه السلطة ما دامت مستمدة من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ[2].

ومسؤولية الجماعة أو المجتمع مستمدة أصولها من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة؛ ففي كتاب الله تعالى آيات كثيرة تؤيد هذا الأصل وتؤكده؛ من ذلك:

(١) قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[3].

(٢) قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[4].

---

(١) البحر المحيط: لأبي حيان، ٣/ ١٥٠، الكشاف: للزمخشري، ٢/ ٥٤٦، تفسير القرآن الكريم: ٤/ ٣٣٨.

(٢) أصول المنهج الإسلامي: ص٤٣٥.

(٣) سورة آل عمران: الآية (١١٠).

(٤) سورة التوبة: الآية (٧١).

(٣)قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [١].

وأما السنة؛ فأحاديث كثيرة، نذكر منها:

(١)ما رُوي عن رسول الله ﷺ قال: «مثلُ القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا (أي: اقترعوا) على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الله مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنَّا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا! فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا وهلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا» [٢].

ففي هذا الحديث مثَّل رسول الله ﷺ رقابة المجتمع للفرد ورقابة الفرد للمجتمع بالسفينة؛ ليؤكد لكلِّ مسلم وظيفته الاجتماعية في الرقابة والأخذ على يد من يظلم حتى يرتدع [٣].

(٢) ما روي عن النبي ﷺ قال: «لا يؤمن أحدُكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه» [٤].

والأحاديث في هذا المجال كثيرة، والهدف منها أن الجماعة المسلمة كالجسد الواحد للأمة، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «يد الله مع الجماعة» [١].

---

(١) سورة المائدة: الآية (٢).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أصول المنهج الإسلامي ص٤٥٥.

(٤) سبق تخريجه.

وحتى تحقق الجماعة مسؤوليتها في ظل الإسلام لابد لها من دور تقوم به؛ بل أدوار.. لصالح المسلمين، وهذه الأدوار التي تقع على عاتق الجماعة المسلمة تتمثل في الآتي:

أولاً: التعاون على البرِّ والتقوى:

التعاون في حياة الأمم مظهر حضاري يقوي شخصيتها ويوحِّد كلمتها، وقد حثَّ الإسلام على التعاون على البرِّ والتقوى فيما بين المسلمين، والدعوة إلى الاعتصام بكتاب الله وسنة النبي ﷺ[2]؛ يقول تعالى: ﴿**وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾[3]، ويقول رسول الله ﷺ: «الدين النصيحة»، قيل: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ورسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم»[4]، وفي هذين الدليلين دعوة مُلِحَّة للمؤمن ليكون إيجابيًّا متعاونًا في مجتمعه.

ومن مظاهر التعاون على البرِّ والتقوى في الحياة:

- التعاون الاجتماعي: ومن صوره: الإحساس بمشاعر المسلمين[5]؛ فحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفَّس الله عنه كُربة من كُرَب يوم القيامة، ومن ستر

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أصول المنهج الإسلامي ص٤٥٥.

(٣) سورة المائدة: الآية (٥).

(٤) سبق تخريجه.

(٥) أصول المنهج الإسلامي: ص٤٥٦.

مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة، ومن يسَّر على مُعْسِر يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»[1].

ومنها: تعليم الجاهل، وتذكير الغافل، وإغاثة الملهوف، وتقديم العون، والتيسير على المعسر[2]؛ لقوله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان؛ يشدُّ بعضه بعضًا»[3].

ومنها: إصلاح ذات البين؛ لقوله تعالى:

﴿فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ﴾[4].

ومنها: زجر الظالم والأخذ على يديه.. ونحو ذلك من وجوه التعاون بين الناس.

- التعاون بين الدُّول: والمتمثل في حفظ حقوق الشعوب وما فيه خير البشرية، وتحريم الظُّلم والعدوان[5].

ثانيًا: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

المعروف: هو كلُّ ما أمر الله به وما أمر به رسوله ﷺ.

والمنكر: هو كلُّ ما نهى عنه الله ورسوله ﷺ[6].

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو من سلطة الجماعة المسلمة، التي يقع على عاتقها سلطة الإلزام الأخلاقي؛ يقول تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أصول المنهج الإسلامي: ص ٤٥٥.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سورة الأنفال: الآية (١).

(٥) أصول المنهج الإسلامي: ص٤٥٧.

(٦) رسالة الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر: عبد الله الجار الله، ص٦٨، أصول المنهج الإسلامي: ص٤٦٣.

﴿الْمُفْلِحُونَ﴾[1]، وقد فضَّل الله تعالى أمة محمد ﷺ على سائر الأمم بهذا الأمر؛ ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[2].

والأمر بالمعروف لا يقتصر على طائفة دون أخرى، ولا على الرجال دون النساء، ولا على الأغنياء دون الفقراء.. بل الكلُّ مشترك فيه، كذلك الحال بالنسبة للنهي عن المنكر[3]؛ يقول تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[4].

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفاية؛ التي إذا قام البعض بها سقط الحكم عن الباقين، ولكنه في حقِّ العلماء يتأكد وجوبه؛ يؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾[5].

والنهي عن المنكر هو النهي عن ارتكاب الموبقات والمحرَّمات، والمجاهرة بها، ودعوة المجتمع؛ سواء كان في البيت، أو المسجد، أو الشارع، أو العمل.. بصوت مسموع، ينبِّه الغافل، ويردُّ العابث، ويعلِّم الجاهل، ويزجر المجاهر بالمعصية؛ لتستقيم أمور الناس وحياتهم على الوجه الأكمل[6].

(١) سورة آل عمران: الآية (١٠٤).

(٢) سورة آل عمران: الآية (١١٠).

(٣) أصول المنهج الإسلامي: ص٤٦٤.

(٤) سورة التوبة: الآية ص٧١.

(٥) سورة الحج: الآية (٤١).

(٦) أصول المنهج الإسلامي: ص٤٦٥.

درجات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

درجات إنكار المنكر ثلاث، جاءت في حديث أبي سعيد ﷺ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه؛ وذلك أضعف الإيمان»[1].

الأول: التغيير باليد:

ويملكه الحاكم ونائبه، والرجل في بيته، وليس ذلك لعامة الناس.

الثاني: التغيير باللسان:

وهذا يملكه كلُّ الناس الذين لهم القدرة على ذلك، ويتحقق ذلك بالكلمة الطيبة والوعظ والنصيحة.

الثالث: التغيير بالقلب:

وهو إنكار المنكر سرًّا؛ وهو أضعف الإيمان، وتتحقق الكراهية بالقلب بعدم المجالسة أو الرضا[2].

إن تطبيق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يكفل العيش السعيد للمجتمع؛ حيث يعيش الناس في أمن واستقرار، وعلينا أن نعلم أنه وظيفة الأنبياء والمرسلين[3].

ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وآثار ذلك:

ذكرنا أن على الجماعة المسلمة أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وأن ذلك من فروض الكفاية، وأنه أساس الإلزام الأخلاقي الإسلامي،

---

(١) رواه مسلم والترمذي وابن ماجة والنسائي، انظر: الترغيب والترهيب، ٣/ ٢٣١.

(٢) أصول المنهج الإسلامي: ص٤٦٤.

(٣) المرجع السابق.

وعلى ذلك فإن إهماله يكون سببًا في انتشار الأخلاق الذميمة؛ من انتشار الفاحشة، وشيوع الرذيلة في المجتمع[1].

إن ترك هذه الفريضة يترتب عليه عدم تطبيق أحكام الشريعة؛ حيث تنقلب الأوضاع؛ فيصير القبيح حسنًا، والباطل حقًّا، ويضطرب النظام، وتهتزُّ القيم والمبادئ، ويظهر الظلم، وتُمحق البركة، وتكثر النوازل والنكبات، ويصدِّق ذلك كله:

- قوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[2].

- قوله ﷺ: «ما من رجل يكون في قوم يعمل فيهم بالمعاصي، يقدرون أن يغيروا عليه فلا يغيروا؛ إلا أصابهم الله بعقاب من قبل أن يموتوا»[3].
- قوله ﷺ: «إذا رأيت أمتي تهاب أن تقول للظالم: يا ظالم؛ فقد تُودِّع منهم»[4]؛ ومعنى «تُودِّع منهم»: أي أصبحت لا خير فيها ولا فائدة منها.
- قوله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لتأمرونَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر، أو ليوشكنَّ الله أن يبعث عليكم عقابًا منه، ثم تدعون فلا يستجاب لكم»[5].

وفي النهاية يجب على الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر أن يقصدوا وجه الله، ويلتزموا بما يأمرون به؛ لتتحقق لهم النجاة في الدنيا

(١) رسالة الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر: ص٦٩.

(٢) سورة هود: الآية (١١٧).

(٣) رواه أبو داود في سننه، وإسناده حسن، انظر: صحيح أبي داود، للألباني، رقم: ٣٦٤٦، الترغيب والترهيب: ٣/ ٢٣٦.

(٤) رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد، انظر: الترغيب والترهيب، ٣/ ٢٣٨.

(٥) رياض الصالحين: باب الأمر بالمعروف، ١٠٤.

والآخرة، أما إذا كان فعلهم يخالف أمرهم ففي شأنهم يقول تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾[1]، ويقول رسول الله ﷺ: «يُؤتى بالرجل يوم القيامة فيُلقى في النار؛ فتندلق أقتاب بطنه، فيدور كما يدور الحمار بالرحى! فيجتمع عليه أهل النار فيقولون: يا فلان، ما لك؟! ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟! فيقول: بلى، قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه! وأَنْهَ عن المنكر وآتيه»[2].

وأخيـــرًا:

على من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أن يتَّصف بالآتي:

(١) أن يكون حَسَن الخُلق، لطيفًا في أمره وإنكاره للشيء، ولنا في رسول الله ﷺ الأسوة والقدوة، فقد وصفه ربه بهذه الصفات فقال سبحانه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[3].

(٢) أن يكون حكيمًا في نصحه غير متنطع؛ يقول تعالى: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[4].

---

(١) سورة البقرة: الآية (٤٤).

(٢) متفق عليه، انظر: الترغيب والترهيب، ٣/ ٢٤٠، ومعنى «**تندلق**»: تخرج، و«**الأقتاب**»: الأمعاء.

(٣) سورة آل عمران: الآية (١٥٩).

(٤) سورة النحل: الآية (١٢٥).

(٣) أن يكون رقيقًا في دعوته؛ أي لطيفًا سهلاً؛ ليتألف قلب أخيه، ولنذكر ما فعله رسول الله ﷺ بالأعرابي الذي بال في المسجد وهمَّ الصحابة بزجره، فأخذه النبي بالرفق، والقصة يرويها أبو هريرة رضي الله عنه قال: بال أعرابي في المسجد، فقام الناس إليه ليقعوا فيه، فقال النبي ﷺ: «دعوه، وأريقوا على بوله سَجْلاً[١] أو ذنوبًا[٢] من ماء؛ فإنما بُعثتم ميسِّرين، ولم تُبعثوا معسِّرين»[٣]، ويقول ﷺ في فضيلة الرفق في الأمر كله: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يُنتزع من شيء إلا شانه»[٤].

(٤) أن يكون صابرًا على الأذى، وليتأس بالسابقين الذين تعرضوا للأذى، وليأخذ من وصية لقمان لابنه وصية له؛

﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[٥].

---

(١) السَّجْل؛ بفتح السين وسكون الجيم: هي الدلو الممتلئة بالماء، انظر: كشَّاف اصطلاحات الفنون، مادة (سجل).

(٢) الذَّنوب؛ بفتح الذَّال: مثل السَّجْل، وقيل: هي الدلو؛ سواء كانت ممتلئة ماء أو لم تكن، لسان العرب: مادة (ذنب).

(٣) رواه البخاري في صحيحه: كتاب الوضوء، باب صبِّ الماء على البول في المسجد، حديث رقم ٢٢٠.

(٤) رواه مسلم في صحيحه: كتاب البر والصلة، باب فضل الرفق، حديث رقم ٢٥٩٤.

(٥) سورة لقمان: الآية (١٧).

ثالثًا: إصلاح ذاتِ البَيْن «الإصلاح بين الناس»:

الصُّلح:

اسم بمعنى «المصالحة»، وأصله من «الصلاح» الذي هو ضد الفساد[1].

والإصلاح هو: التصالح بين الناس والتوفيق بينهم، والحدُّ من الخصومات، وإعادة الحب والطمأنينة إلى النفوس[2].

والإصلاح بين الناس من المسؤوليات التي تقع على عاتق الجماعة المسلمة، فقد حرص ديننا الإسلامي الحنيف على أن تكون العلاقات والروابط بين الناس طيبة، فلا فرقة ولا خصومة، بل وئام وتوافق ومودة ومحبة[3].

وأعلى درجات الإصلاح ودعائمه: إصلاح ذات البين، فهو أحد القواعد الرئيسية والمهمة في بناء المجتمع والتآلف بين أفراده، ويتمثل في:

- الصلح بين الأقارب، وقد حثَّ الإسلام على ذلك؛ يقول تعالى: ﴿**فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُم**﴾[4]، ويدخل فيه الزوجان لقوله تعالى: ﴿**إِن يُرِيدَا إِصْلاَحاً يُوَفِّقِ اللّهُ بَيْنَهُمَا**﴾[5].

---

(١) القاموس المحيط: مادة (صلح)، المعجم الوسيط: مادة (صلح)، معجم مقاييس اللغة: مادة (صلح)، الصحاح: للجوهري، مادة (صلح).

(٢) في ظلال القرآن: سيد قطب، ٣/ ١٥٤٨، أصول المنهج الإسلامي: ص٤٨٣.

(٣) مختصر منهاج القاصدين: ص٢٩١.

(٤) سورة الأنفال: الآية (١).

(٥) سورة النساء: الآية (٣٥).

- الصلح بين المسلمين عامَّة؛ برهان ذلك قوله تعالى: ﴿لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾[1].
- الصلح بين المتنازعين؛ يقول تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[2]؛ أي: العادلين، ويقول سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[3]، فكما نعلم إن النزاع سبب لتفرقة الأمة واختلافها؛ مما يغري العدو بها، فيتمكن منها ويسيطر عليها؛ سواء كان عدوًّا ظاهرًا أو مستترًا، ولذلك كان الصلح أساس الخير؛ يقول تعالى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾[4].

إن السعيَّ للإصلاح بين الناس من الأمور الملزمة للجماعة المسلمة، وهي أمور محمودة؛ حيث تبعث على تجديد المحبة والأخوة والموالاة بين الناس كافَّة[5].

الوسائل المرغِّبة في الإصلاح بين الناس:

هناك جملة من الوسائل يرغَّب بها في الإصلاح بين الناس؛ ومنها:

- المسامحة، وعدم الهجر، والإسراع في المصالحة: فالتسامح مع الغير، وعدم هجرانه، بل والإسراع إلى التصالح معه.. من أهم الوسائل الناجعة

---

(١) سورة النساء: الآية (١١٤).

(٢) سورة الحجرات: الآية (٩).

(٣) سورة الحجرات: الآية (١٠).

(٤) سورة النساء: الآية (١٢٨).

(٥) أصول المنهج الإسلامي: ص٤٨٧.

في الإصلاح[1]، فقد سئل النبي ﷺ عن الإيمان؛ فقال: «الإيمان: الصبر والسماحة»[2]، وكأنما أراد النبي ﷺ بالسماحة علاقة العبد بأخيه؛ بحيث تغلب عليه السهولة والمياسرة والسماحة، وأما عدم الهجر فقد أمر به الإسلام؛ حيث حرَّم الهجر بين المسلمين، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، يلتقيان.. فيعرض هذا، ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام»[3].

- التورية والتعريض بالخير: وأساسه وهدفه الإصلاح بين الناس، والسعي إلى الخير، حتى وإن كذب[4]؛ ويدل لذلك حديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط (رضي الله عنها) أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس الكذَّاب الذي يُصلح بين الناس؛ فيقول خيرًا أو ينمي خيرًا»[5]، وقالت (رضي الله عنها): «ما سمعت رسول الله ﷺ يرخِّص في شيء من الكذب إلا في ثلاث: الرجل يقول القول يريد به الإصلاح، والرجل يقول القول في الحرب، والرجل يحدِّث امرأته والمرأة تحدِّث زوجها»[6].

إن الإصلاح بين الناس من الأسس التي يقوم عليها النظام الخُلقي في الاسلام متمثلاً في الجماعة المسلمة.

(١) هذه أخلاقنا: الخازندار، ص٤٧٥.

(٢) صحيح الجامع الصغير: للألباني،حديث رقم ٢٧٩٥.

(٣) صحيح البخاري: كتاب الأدب، باب الهجرة، حديث رقم ٦٠٧٧؛ صحيح مسلم: كتاب البر والصلة، باب تحريم الهجرة فوق ثلاث، حديث رقم ٢٥٦٠.

(٤) إحياء علوم الدين: ١/ ٩٥٨، الآداب الشرعية: ابن مُفْلِح ١/ ١٦.

(٥) رواه البخاري في صحيحه: كتاب الصلح، باب ليس الكاذب الذي يصلح بين الناس، ٥/ ٢٩٩.

(٦) رواه مسلم في صحيحه: كتاب البر، باب تحريم الكذب، ٤/ ٢٠١٢.

رابعًا: التكافل الاجتماعي:

التكافل الاجتماعي: يقصد به أن يكون القادر في المجتمع كفيلاً يمدُّ هذا المجتمع بالخير والعون، وأن تكون القوى البشرية متلاقية، والهدف من ذلك إقامة حياة اجتماعية تضمن لكل فرد العيش الكريم، وهذا من أسس النظام الأخلاقي الإسلامي[1].

لقد جاء مبدأ التكافل الاجتماعي في نصوص الكتاب والسنة؛ ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[2]، وقوله تعالى:

﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى﴾[3].

قوله : «المؤمن للمؤمن كالبنيان؛ يشدُّ بعضه بعضًا»[4].

والآيات والأحاديث التي تدعو إلى التكافل الاجتماعي كثيرة[5].

وقد بلغ من أهمية التكافل الاجتماعي واحتفاء الإسلام به أن وجدناه ينعكس في أول خطاب ألقاه الرسول ﷺ عقب وصوله المدينة المنورة، وفيه يقول بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «أما بعد أيها الناس، فقدِّموا لأنفسكم، تعلمُنَّ والله ليُصعقنَّ أحدُكم، ثم ليدعنَّ غنمه ليس لها راعٍ! ثم ليقول له ربه وليس له ترجمان ولا صاحب يحجبه دونه: ألم يأتك رسولي فبلَّغك؟ وآتيتك

---

(١) العدالة الاجتماعية: سيد قطب، ص٦٣، اشتراكية الإسلام: مصطفى السباعي، ص١٩٣، في المجتمع الإسلامي: محمد أبو زهرة، ص٥.

(٢) سورة الحجرات: الآية (١٠).

(٣) سورة المائدة: الآية (٢).

(٤) سبق تخرجه.

(٥) الشريعة والقانون الوضعي في المجتمعات الإسلامية: محمد البهي، مجلة مصر المعاصرة، العدد ٣٦٩ لسنة ٨٦، يوليه ١٩٧٧م.

وأفضلت عليك؟ فما قدمت لنفسك؟ فلَينظرنَّ يمينًا وشمالاً فلا يرى شيئًا، ثم لَينظرنَّ قُدَّامه فلا يرى غير جهنم! فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولم يجد فكلمة طيبة، فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف! والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»[1].

والتكافل الاجتماعي في الإسلام يشترك فيه الناس كافَّة؛ حكَّامًا كانوا أو رعية[2].

فعلى الحكَّام أن يضمنوا المستوى اللائق للأفراد في المعيشة، بحيث إذا حال الفقر والشيخوخة دون تحقيق مستوى المعيشة تكفَّلت الدولة بذلك عن طريق مواردها[3].

وعلى الرعية المتمثلة في السواد الأعظم من الناس تقرير هذا المبدأ؛ عن طريق القيام بشؤون الفقراء[4].

نخلص من ذلك إلى أن سلطة الجماعة المسلمة من الأسس الهامَّة لمبدأ الإلزام الأخلاقي، وهذه السلطة كما رأينا مستمدة أصولها من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ.

(١) سيرة ابن هشام: القسم الأول، ص٥٠٠، العدالة الاجتماعية: سيد قطب، ص٦٣، في المجتمع الإسلامي: أبو زهرة، ص٥.

(٢) المراجع السابقة.

(٣) اشتراكية الإسلام: مصطفى السباعي، ص١٩٣.

(٤) المحلَّى: لابن حزم ٦/ ٢٢٤ -٢٢٥.

العامل الثالث: الضمير الديني ملزِم للسلوك الخُلقي:

جعل مبدأ الإسلام سلطة الضمير الديني أيضًا مُلْزِمة للسلوك الخُلقي.

تحدَّثنا عن الضمير من قبل، وقد عبرنا هنا بالضمير الديني؛ أي الضمير القائم على الإيمان، والضمير القائم على مراقبة الله ﷻ ومحاسبة النفس.

والضمائر متعددة، ومشاربها مختلفة، وأعظمها ذلك الضمير المنبثق عن شجرة الإيمان، ذلك الضمير الذي يربيه الإيمان، وهو ضمير حيٌّ يَقِظٌ، نابع من قلبٍ مؤمن بالله تعالى، يقشعرُّ من كل ما هو قبيح وضارٌّ، ويطمئن لكل ما هو حسن جميل[1]؛ وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ**﴾[2]، ويقول تعالى: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ**﴾[3]، ويقول رسول الله ﷺ: «البرُّ ما اطمأن إليه القلب، واطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في القلب، وكَرِهْتَ أن يطّلع عليه الناس»[4].

الضمير الديني وأثره:

ذكرنا أن الإيمان يؤثِّر في ضمير الإنسان المؤمن، وهذا الضمير من الركائز الأساسية للأخلاق، وهو من الأسس لحياة اجتماعية فاضلة؛ ويتبين ذلك فيما يلي:

---

(١) الأخلاق الإسلامية: ص١١٦، الإسلام وبناء المجتمع: ص٨٧.

(٢) سورة الزمر: الآية (٢٣).

(٣) سورة ق: الآية (٣٧).

(٤) رواه أحمد في المسند: ٤/ ٢٢٧.

أولاً: الضمير الديني وأثره في الحاكم:

نعلم أن الحُكم بين الناس معبَّد بالطغيان والغرور والظلم، إلا من رحم ربك، وعلى هذا فإن الحاكم إذا ما كان عنده ضمير منبثق من إيمان فإن العدالة هي الأساس الكامل لديه، فلا ظلم ولا طغيان[1].

ولنا في السلف الصلاح الأسوة والقدوة، فقد كان الضمير المؤمن هو الذي يحكم ويسود، فسادت العدالة، وانتشرت المساواة، ونمَتْ الأخلاق الكريمة الفاضلة في أبهى صورة لها.

هذا الضمير المؤمن الذي جعل عمر بن الخطاب ﷺ يقيم القصاص على والي مصر وابنه، وذلك في قضية الفتى القبطي؛ فقد دخل فتى من الأقباط في سباق بالخيل مع ابن والي مصر؛ عمرو بن العاص، ولما كان الفوز للقبطي عمد ابن عمرو إلى القبطي فلطمه! فما كان منه إلا أن توجَّه إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب شاكيًا، فطلب عُمَرُ عَمْرُو بن العاص وابنه لمجلس القضاء، وأثبت الحقَّ للقبطي، وطلب إليه أن يبدأ بالقصاص من عمرو بن العاص نفسه! فقال القبطي: إنما ضربني ابنه، فقال عمر: أَجِلْهَا (أي: العصا) على صلعةِ عمرو! فباسمه ضربك، وكانت من بعد كلمة الفاروق الخالدة: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟!»[2]

---

(١) الأخلاق في الإسلام: ص٢٨٧.

(٢) البداية والنهاية: ٣/ ٤٥.

هذا الضمير الذي جعل عمر وهو خليفة المسلمين يدخل حائطًا لقضاء حاجة، فيسمعه أنس بن مالك يقول: «عمر الخطاب أمير المؤمنين! بخ بخ! والله لتتقينَّ الله يا بن الخطاب أو ليعذبنك»[1].

هذا الضمير الذي جعل عمر متواضعًا في الله، خشن العيش، شديدًا في ذات الله، يحمل القِربة على كتفيه مع عظم هيبته! ويركب الحمار عريًا والبعير مخطومًا بالليف! وكان نقش خاتمه: «كفى بالموت واعظًا يا عمر»! ومآثر عمر في هذا المجال كثيرة[2].

هذا الضمير المؤمن الذي جعل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يقف خصمًا أمام القاضي «شريح» ضد يهودي، ويقضي القاضي لليهودي، يحدِّثنا الشَّعبي: «أن عليًّا ﷺ ضاعت منه درع، فوجدها عند يهودي، فأقبل به إلى القاضي «شريح» يخاصمه، وقال عليٌّ: هذه الدرع درعي، ولم أَبعْ ولم أَهَبْ! قال «شريح» لليهودي: ماذا تقول فيما يقول أمير المؤمنين؟ قال: ما الدرع إلا درعي، وما أمير المؤمنين عندي بكاذب!! فالتفت «شريح» وقال: يا أمير المؤمنين، ألك بيِّنة؟ فابتسم وقال: أصاب «شريح»، ما لي بيِّنة، فقضى «شريح» بالدرع لليهودي، فأخذها ومشى خطوات، ثم رجع فقال: أما أنا فأشهد أن هذه أحكام الأنبياء؛ أمير المؤمنين يدينني إلى قاضيه، فيقتضي، فيقضي عليه؟! أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، الدرع

---

(١) المرجع السابق.

(٢) نهج البلاغة: ١/ ٢٥٠.

والله درعك يا أمير المؤمنين، سقطت منك وأنت منطلق إلى صِفِّين! قال علي: أما إذ أسلمت فهي لك!»[1].

والأمثلة في هذا المجال كثيرة، وقد ذكرنا بعضها، ومن خلالها رأينا كيف كان الضمير المؤمن هو الذي يحكم الحاكم والقاضي والرعية.

وإن الحكم الذي لا يقوم عليه رجال مؤمنون، والسياسة التي لا يرعاها ضمير مؤمن.. إنما هي كما قال بعضهم:

كمثل الطبل يُسمع من ... وباطنه من الخيرات خالِ

ثانيًا: الضمير الديني وأثره في الإيثار:

تتجلّى آثار الضمير الديني في الإيثار بالمال والنفس للمسلمين، وذلك بأن يحبَّ الرجلُ لأخيه ما يحبُّ لنفسه، ويبذل له مما عنده، ويقف بجانبه، بل ويقدِّم نفسه فداء لأخيه، وهذا كله نابع من الإيمان بالله تعالى، لا قانون يلزمه، ولا حاكم يطالبه[2].

وتاريخ الإسلام مليء بالمواقف التي بلغ فيها الإيثار والمواساة أشده، ونكتفي هنا بذكر ثلاثة أمثلة:

ما رُوي أن معاوية بن أبي سفيان ﷺ بعث بثمانين ألف درهم إلى عائشة (رضي الله عنها) وكانت صائمة، وعليها ثوب خلق، فوزَّعت هذا المال من ساعتها على الفقراء والمساكين، ولم يبق منه شيء! فقالت لها جاريتها: يا أم المؤمنين، ما استطعت أن تشتري لنا لحمًا بدرهم تفطرين عليه؟! فقالت: يا بنيَّة، لو ذكرتيني لفعلت[3]!

---

(1) الأحكام السلطانية: ص١١٥.

(2) الأخلاق الإسلامية: ص٢٨٠.

(3) المرجع السابق.

روي أن عيرًا[1] قدمت لعبد الرحمن بن عوف ﷺ، فكان لأهل المدينة يومئذ رجَّة! فقالت عائشة: ما هذا؟! فقيل لها: هذه عير عبد الرحمن بن عوف قدمت، فقالت عائشة -رضي الله عنها-: أما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كأني بعبد الرحمن بن عوف على الصراط، يميل به مرة، ويستقيم أخرى! حتى يفلت، ولم يكده»! فبلغ ذلك عبد الرحمن فقال: هي وما عليها صدقة[2]!!

ما روي عن أنس بن مالك ﷺ قال: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحب أمواله إليه «بيرحاء»[3]، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من مائها، قال أنس: فلما نزلت الآية ﴿**لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾[4]، قام أبو طلحة فقال: يا رسول الله، إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿**لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾، وإن أحبَّ أموالي إليَّ «بيرحاء»، وإنها صدقة، أرجو برَّها وذخرها عند الله، فضعْها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال رسول الله ﷺ: «بخ بخ! ذاك مال رابح، ذاك مال رابح!»[5].

والمواقف كثيرة، وهي تصوِّر حقيقة المجتمع الإسلامي القائم على المبادئ الأخلاقية السليمة؛ والمتمثلة في الضمير الديني القائم هنا على الإيثار والمواساة.

---

(١) قافلة محمَّلة بالغذاء.

(٢) حديث صحيح.

(٣) بيرحاء؛ بكسر الباء وفتحها ممدودًا: اسم لحديقة نخل كانت لأبي طلحة ﷺ، انظر: النهاية، لابن الأثير، مادة (برح).

(٤) سورة آل عمران: الآية (٩٢).

(٥) رواه مسلم في صحيحه: كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين، حديث رقم ٩٨٨.

ثالثًا: الضمير الديني وأثره في المعاملات المالية:

ويظهر أثر الضمير الديني في مجال التعامل المالي والتجاري؛ حيث يقوم على الصدق وحسن المعاملة، فلا غشَّ ولا احتكار، ولا تدليس ولا غبن، ولا أكل لأموال الناس بالباطل.

رابعًا: الضمير الديني وأثره في الحقوق:

والحقوق كثيرة؛ منها ما هو حق لله تعالى، ومنها ما هو حق للعبد، وأداء الحقوق أمر لازم قائم على شرع الله، يغذيه ضمير إيماني سليم، فالضمير الإيماني يفرض على الغني إخراج الزكاة، وعلى المَدين الوفاء بدينه، وعلى البائع والمشتري الالتزام بواجباتهما، وعلى الزوج أداء حقوق زوجته، والزوجة كذلك.. وهكذا في جميع أمور الحياة الاجتماعية[1].

خامسًا: الضمير الديني وأثره في الاعتراف بالجريمة وتحمُّل العقوبة:

الضمير الإيماني هو الذي يجعل الجاني معترفًا بجريمته متحملاً لعقوبتها، والشواهد في الإسلام على ذلك كثيرة:

- فقد اعترف ماعز بن مالك بجريمة الزنا، وتحمَّل العقوبة، ورُجم!
- واعترفت الغامدية بجريمة الزنا، وتحمَّلت العقاب، ورُجمت!
- وكان السارق يأتي إلى رسول الله ﷺ يعترف بالسرقة؛ فتُقطع يده[2]!

وهكذا.. والسبب في إقدام مثل هؤلاء وغيرهم على الاعتراف بجرائمهم، وبالتالي تحمل العقوبة.. هو ذلك الضمير الإيماني القائم على هدى التشريع الإسلامي.

---

(١) الإسلام وحقوق المرأة: ص١٥.

(٢) علم الأخلاق الإسلامية: ص٢٣٤.

العامل الرابع: الدوافع النفسية من عوامل الإلزام الخُلقي:

الإنسان بطبيعته يحبُّ الخير والنفع لنفسه؛ ولذلك يسعى إلى تحقيق ذلك من خلال دوافعه النفسية الكامنة، وهذه الدوافع الكامنة إذا ما سيَّرها الإنسان في الصالحات من الأعمال تحققت لديه المحبة والخير المرجوُّ، أما إذا سيرها في غير الصالحات من الأعمال تحققت عنده أيضًا أنواع من النفع، ولكنه نفع مذموم خبيث[1].

وعلى ذلك فإن هذه الدوافع تصلح أن تكون مقياسًا للإلزام الخُلقي القائم على المنهج الإسلامي الصحيح.

ولذلك وعد الله تعالى الذين يعملون الصالحات بالثواب العظيم والمكافآت الجزيلة في الدنيا والآخرة؛ يقول تعالى: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا**﴾[2]، ويقول سبحانه: ﴿**فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ**﴾[3].

العامل الخامس: سلطة ولي الأمر من عوامل الإلزام الخُلقي:

ولي الأمر: من وَلِي أمر المسلمين، ويندرج تحته الرئيس والسلطان والأمير.. ونحو ذلك من المسميات.

وسلطة ولي الأمر تعني: سيطرة من نصَّبه الناس ليحكمهم بشرع الله وحده[4].

---

(١) علم الأخلاق الإسلامية: ص٢٣٥.

(٢) سورة النور: الآية (٥٥).

(٣) سورة الحج: الآية (٥٠).

(٤) الخلافة الرشيدة: عباس العقاد ص١٩، الأخلاق في الإسلام: كايد قرعوش ص٢٨٦، أصول المنهج الإسلامي: ص٣١٣.

وحتى يستتب الأمن وينتشر العدل وتنتشر الفضيلة في الدولة المسلمة؛ فلابد من وجود حاكم يدير هذه الدفَّة ويقودها، ويرعى شؤونها ويتولى أمورها، وتمتثل لأوامره[1].

إن سلطة الحاكم سلطة فاعلة، لها من الصلاحيات ما يجعلها قادرة على التطبيق الصحيح للشريعة، ومعاقبة المخالفين بالعقاب.

إن الناس هم الذين يختارون الحاكم عن طريق البيعة، وإقرار أهل الحل والعقد، أو طريق انتخاب الأمة له[2].

وإذا ما اختير الحاكم فإنَّ عليه أن يرجع إلى الأمة ويأخذ رأيها في شؤون الدولة، وبذلك يتحقق النفع والمصلحة العامة، وهذا ما فعله خليفة رسول الله ﷺ؛ الصدِّيق أبو بكر، حين تولى الخلافة؛ حيث وقف خطيبًا فقال: «أيها الناس، إني وُلِّيت عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتموني على حقٍّ فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسدِّدوني، وأطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم»[3].

وجوب طاعة ولي الأمر:

طاعة ولي الأمر تعني الامتثال لأوامره والخضوع لأحكامه، ما دامت هذه الأوامر وتلك الأحكام لا يترتب عليها معصية الخالق سبحانه وتعالى؛ ولذلك جاء في الحديث: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[4].

---

(١) الأحكام السلطانية: للماوردي، ص٢٣، الحسبة: لابن تيمية، ص٧، العقد الفريد: لابن عبد ربه، ١/ ٢٣.

(٢) الأحكام السلطانية: للمارودي ص٧.

(٣) الخلافة الرشيدة ص١٩.

(٤) صحيح البخاري: كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم يكن معصية، رقم ٧١٤٣.

والحكمة في وجوب الطاعة لولي الامر؛ حتى تتوحد الأمة، ولا يتمزق شملها، ولا يظهر ضعفها، فإن خرج الناس على الإمام ضعُفت الأمة، وسيطر العدو عليها، واستغل ثرواتها[1].

وقد وردت النصوص في كتاب الله وسنة النبي ﷺ تأمر بطاعة الحاكم؛ ومن ذلك.

- قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾**[2].
- قوله ﷺ: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يُطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعصى الأمير فقد عصاني»[3].
- قوله ﷺ: «اسمعوا وأطيعوا، وإن استُعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة!»[4].
- وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وعلى أثرة علينا، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله، وعلى أن نقول الحق أينما كنَّا، ولا نخاف في الله لومة لائم[5].

---

(١) الأحكام السلطانية: ص٢٤.

(٢) سورة النساء: الآية (٥٩).

(٣) حديث صحيح.

(٤) حديث صحيح رواه أصحاب السنن.

(٥) صحيح البخاري: كتاب الفتن، باب قول النبي ×: «**سترون بعدي أمورًا تنكرونها**»، حديث رقم ٧٠٥٦، صحيح مسلم: كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء، حديث رقم ١٧٠٩.

وحتى تستقرَّ الأمة الإسلامية ولا يطمع فيها غيرها، وهُم في هذا الزمان كُثُرٌ.. فعلى الجماعة طاعة الإمام، ولا يحلُّ لها الخروج عليه، أو مقاطعته، أو رفض ولايته، والأدلة على ذلك كثيرة[1]؛ نذكر منها ما يلي:

- ما روي عن ابن عمر (رضي الله عنهما) قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من خلع يدًا من طاعة لقي الله يوم القيامة ولا حُجة له»[2].
- ما روي عن ابن عمر (أيضًا) أن رسول الله ﷺ قال: «من بايع إمامًا فأعطاه صفقة يده، وثمرة قلبه، فليُطِعْه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنقه»[3].
- ما روي عن أبي هنيدة؛ وائل بن حجر ﷺ، قال: سأل سلمة بن يزيد الجعفي رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله، أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألونا، ويمنعونا حقنا؛ فما تأمرنا؟ فأعرض عنه، ثم سأله، فقال رسول الله ﷺ:

  «اسمعوا وأطيعوا؛ فإنما عليهم ما حُمِّلوا وعليكم ما حُمِّلتم»[4].
- وما روي عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنها ستكون بعدي أثرة وأمور تنكرونها»، قالوا: يا رسول الله، كيف تأمرنا؟ قال: «تؤدُّنَّ الحقَّ الذي عليكم، وتسألون الله الذي لكم»[5].

---

(١) الأحكام السلطانية: للماوردي، ص٢٠، نظم الحضارة الإسلامية: ص٣٥.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام، حديث رقم ٧١٤٣.

(٣) حديث صحيح رواه أصحاب السنن.

(٤) التاريخ الجامع للأصول: ٥/ ٣٠٨.

(٥) حديث صحيح.

ونكتفي بما ذكرنا في وجوب الطاعة لولي الأمر.

ومن الطاعة لهم النصيحة؛ لهذا قال الإمام النووي: «وأما النصيحة لأئمة المسلمين فمعاونتهم على الحق، وطاعتهم فيه، وأمرهم به، وتنبيههم وتذكيرهم برفق ولطف، وإعلامهم بما غفلوا عنه ولم يبلغهم من حقوق المسلمين، وترك الخروج عليهم، وتألف قلوب الناس بطاعتهم»[1].

وعلى الحاكم أن يقيم شرع الله في الأرض، فيأمر بأداء العبادات، ويطبق حدود الله، ويأمر بالعدل، ويجنح إلى السلام، وأن لا يتخذ بطانة من الأعداء؛ يقول تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾**[2].

(١) شرح النووي: ٢/ ٣٨.

(٢) سورة آل عمران: الآية (١١٨).

ويقول رسول الله ﷺ: «ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان؛ بطانة تأمره بالمعروف وتحضُّه عليه، وبطانة تأمره بالشرِّ وتحضُّه عليه»[1].

والبطانة من الناس: من يخصُّهم الحاكم بالمشورة والاطلاع على شؤون وأسرار الدولة.

خلاصة:

بعد هذا السبح حول رأي الإسلام في الإلزام الخُلقي؛

نخلص إلى أن ثمة عوامل كثيرة جعلها الإسلام مقياسًا للإلزام الخُلقي بين الناس، وليس عاملاً واحدًا.

وهذا التنوع في العوامل خير دليل على ما تضمَّنه الدين الحنيف من أسباب للتقدم والرفاهية للإنسان في كل زمان ومكان.

(١) رواه البخاري في صحيحه: كتاب الأحكام، حديث رقم ٧١٩٨.

المبحث الثالث

مجالات الإلزام الأخلاقي ودرجاته ومراتبه

ذكرنا آنفًا أن الأخلاق هي علم الخير والشر، والحسن والقبيح، والأخلاق الفاضلة الكريمة هي مبتغى كل إنسان، والأخلاق المذمومة تنفر منها الطباع السليمة.

والالتزام الأخلاقي مجالاته هي الخير كله، فالإنسان الذي فضَّله الله وأكرمه ملزم بعمل الخير والابتعاد عن الشر، في كل وقت وفي أي مكان.

والخيرات كثيرة، والنعم لا تُحصى، والسؤال الذي يعرض نفسه هو:

هل الإنسان ذو القدرات المحدودة والزمن المحدود يستطيع عمل كل الخيرات؟

والإجابة: إن الإنسان لا يستطيع ذلك، وإنما يكفيه أن يعمل بعضها ليصل إلى غايته؛ ولذلك لم يتركه الإسلام، فقرَّر له درجات في الإلزام ومراتب في الأعمال الأخلاقية؛ حتى لا يقف هذا الإنسان موقف الحيرة في فعل بعضها وترك بعضها الآخر.

لذا ترى أن الشريعة الإسلامية رتبت الأعمال الأخلاقية إلى لازم، وألزم، ومباح، وهي ما تسمى في علم الشريعة بالأحكام التكليفية الخمسة؛ والمتمثلة في: الفرض، والندب، والتحريم، والكراهة، والإباحة.

وأعلى هذه المراتب هو الفرض[1]، وهو ما ثبت بدليل قطعي لا شبهة فيه، أو هو طلب الفعل طلبًا جازمًا، وهو أعلى مراتب الإلزام الأخلاقي، وهو قسمان:

---

(١) علم أصول الفقه: عبد الوهاب خلاَّف، ٧٨.

- **فرض عين**[1]: وهو الذي يجب على كل مسلم مكلَّف فعله، وبفعله تترتب الأخلاق الفاضلة، وأهمها الإيمان بالله وعدم الإشراك به، فإذا أراد الإنسان أن يصل إلى الأمن والاستقرار وتتحقق له الراحة النفسية؛ فعليه أولاً وقبل كل شيء أن يعتقد ويقتنع بأن لا إله إلا الله، ثم يؤدي العبادات على خير وجه؛ فيقيم الصلاة، فبها يحصِّن الإنسان نفسه ضد الفحشاء والمنكر والبغي، ويربيها على الاستقامة والحق، ويزكيها بالخير، فهو إن فعل ذلك كمُلت عنده الأخلاق، وكذلك الأمر بالنسبة للزكاة والصيام والحج، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهكذا الحال في كل عبادة.

- **وفرض الكفاية:** وهو ما إذا قام به البعض سقط الحكم عن الآخرين، وهو إلزام أخلاقي رُوعي فيه بعض الناس دون بعض؛ من حيث الظروف والقدرات، وذلك كمن يشيِّع جنازة مسلم أو يصلي عليها، فإنه يكفي أن يؤدي ذلك البعض دون البعض.

- **والمندوب**: وهو إلزام أخلاقي أيضًا، ويأتي في درجة ثانية من حيث الإلزام؛ ولذلك يُعرف بأنه: طلب الفعل طلبًا غير جازم، ويشمل السنن المؤكدة والسنن غير المؤكدة[2].

- **ثم يأتي التحريم:** وهو ما ثبت بدليل قطعي لا شبهة فيه؛ كالشرك بالله، والزنا، والخمر، والقتل.. ونحو ذلك من المحرَّمات.

- **ثم يأتي المكروه:** وهو ما يُمدح تاركه ولا يُذمُّ فاعله.

- **ثم يأتي المباح:** وهو ما لا يتعلق بفعله ولا تركه مدح ولا ذمٌّ.

---

(١) المرجع السابق.

(٢) أصول السرخسي: ١/ ٢٠١.

وهذه الإلزامات على اختلاف درجاتها من ميزات الأخلاق الإسلامية التي تتميز بها على الأخلاق الفلسفية الأخرى، فليس هناك فلسفة أخلاقية نظّمت وبيَّنت الأعمال الأخلاقية، وموضوعات الخير الأخلاقي، ودرجات الالتزام بها.. كما بيّنها وفصَّلها الإسلام[1].

فخُلق المسلم يتجلى في القول والسلوك والحياة، وهذه الأخلاق العظيمة التي يستطيع أن يؤدي بعضها المسلم تتمثل في أمور كثيرة على اختلاف درجاتها، ويبدأ ذلك من أعلى القمة الخُلقية حتى أدناها.

من أعلى القمة؛ حيث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحتى أدناها؛ حيث إماطة الأذى عن الطريق[2].

إن كلَّ سلوك إنساني يحقق الخير والبرَّ للإنسان أو لغيره يعدُّ أخلاقًا، طالما كان يريد بسلوكه هذا عمل الخير لوجه الله قبل كل شيء، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «عجبًا لأمر المؤمن! إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا المؤمن؛ إن أصابته سرَّاء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيرًا له»[3].

إن الإسلام يحاول أن يطبع كل سلوك إنساني صادر من الإنسان بالطابع الأخلاقي، بصرف النظر عن مكان هذا السلوك وزمانه، وبصرف النظر عن صلته بالآخرين[4]؛ ولهذا نرى الإسلام يأمر بالأدب في المأكل؛ من

---

(١) المرجع السابق.

(٢) الأخلاق الإسلامية: حسن الشرقاوي: ص١٥٠.

(٣) صحيح مسلم: كتاب الزهد والرقاق، رقم ٢٩٩٩، جامع الأصول في أحاديث الرسول: لابن الجزري. ٩/ ٣٦٩.

(٤) الأخلاق الإسلامية: حسن الشرقاوي: ص١٥٩.

حيث الجلوس وطريقة الأكل، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: «إنما أجلس كما يجلس العبد، وآكل كما يأكل العبد!»[1]، وأن يذكر اسم الله عند الأكل؛ وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «سمِّ الله، وكُلْ بيمينك، وكُلْ مما يليك»[2]، وقد نهى رسول الله ﷺ عن أن يأكل الرجل وهو منبطح على وجهه أو متكئًا[3].

وفي أدب الشراب، وأدب اللباس، وأدب السلام، وأدب الاستئذان.. وهكذا.

إن الإسلام قد فتح الباب أمام الراغبين في الازدياد من الخيرات من نوع هذه الأعمال المقرَّرة المفروضة، بل دعا إلى التسابق في الخيرات والفضيلة في الأعمال والمعاملات والتنافس فيها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ﴾[4]، وقال سبحانه: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾[5].

إن أعمالنا الأخلاقية الإيجابية كثيرة، ودرجاتها متنوعة، ومراتبها لا تُحصى، وفي جميعها خير، وفي بعضها خير، وعلى المرء أن يُكثِر من فعل الخيرات حسب قدرته وأحواله.

---

(١) زاد المعاد: لابن القيم، ٣/ ١٣٧.

(٢) زاد المعاد: لابن القيم، ٤/ ١٤٢.

(٣) رواه ابن ماجة في سننه: ٢/ ١٣٥.

(٤) سورة البقرة: الآية (١٤٨).

(٥) سورة المطففين: الآية (٢٦).

المبحث الرابع

خصائص الإلزام الأخلاقي في الإسلام

الإلـزام الأخلاقـي في الإسـلام يمتـاز بخصـائص لا توجـد في الأنظمـة الخُلقية الأخرى؛ وهذه الخصائص هي:

الخصيصة الأولى: الإلزام بقدر المستطاع، وعدم التكليف بالمحال:

راعـى الإسـلام الإنسـان مـن حيـث اسـتطاعته في إلزامـه بـالقوانين الخُلقية، فلم يكلّفه فوق طاقته، ولم يلزمه بما هو محال[1].

إن الشريعة الإسلامية لم تقصد إعنات الناس وتكليفهم بما فيه مشقة عليهم، ولم يجعل الله تعالى من وسائل علامات الخضوع والانقياد له أن يحمِّلهم فوق ما يطيقون، وإنما شرع لهم ما هو في حدود طاقتهم[2].

وهـذا المبـدأ كمـا تقتضيـه الأخـلاق السـامية تقتضيـه كـذلك العدالـة الإلهية؛ إذ لا يمكن أن تكون الأخلاق صالحة للتطبيق إلا بهذا الشرط.

والإلزام بقدر الاستطاعة ثابت بالكتاب والسنة:

---

(١) قواعد الأحكام: للعز بن عبد السلام، ٢/ ٧، إعلام الموقّعين: ٢/ ١١٤، الأشباه والنظائر: للسيوطي، ص٨١، الفروق: للقرافي، ١/ ١٢٠.

(٢) المراجع السابقة.

فمن الكتاب:

قوله تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَ مَا آتَاهَا﴾[2]، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾[4].

ومن السنة:

قوله ﷺ: «بُعثت بالحنيفيَّة السمحة»[5]، وقوله عليه الصلاة والسلام: «عباد الله، وضع الله الحرج، إلا من اقترض من عرض أخيه شيئًا؛ فذلك الذي حرج»[6].

الخصيصة الثانية: التيسير وقلَّة التكاليف:

ليست الأخلاق الإسلامية متوافقة مع قدرات الناس فحسب، بل إنها أسهل مما يطيقونه، فقد راعى الإسلام حقيقة الإنسان وما يكتنفه من ظواهر؛ ولذلك كلَّفه ما يطيق، فكان التيسير ابتداء وانتهاء أساسًا من الأسس التي رعاها المشرِّع الإسلامي[7].

---

(١) سورة البقرة: الآية (٢٨٦).

(٢) سورة الطلاق: الآية (٧).

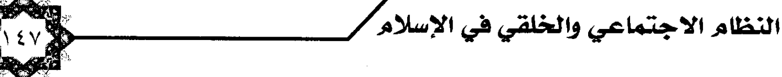
(٣) سورة الحج: الآية (٧٨).

(٤) سورة المائدة: الآية (٦).

(٥) رواه البخاري في صحيحه.

(٦) رواه أحمد وابن ماجة والنسائي والحاكم وصحَّحه، انظر: الترغيب والترهيب، ٣/ ٣١٦.

(٧) الموافقات: للشاطبي، ٤/ ١٩٨، الأشباه والنظائر: لابن نجيم، ص٧٥.



ومن مظاهر قلة التكاليف في جميع الأحكام:

في العبادات: شُرعت الصلاة خمسًا في اليوم والليلة، وهي مما يسهل أداؤه؛ حيث لا يستغرق من اليوم كله إلا القليل من الوقت، وشُرع الصوم شهرًا واحدًا في السَّنة، والحجُّ مرة واحدة في العمر[1].

وفي المعاملات: وجدنا التيسير في البيع والشراء والمعاملة بصفة عامة، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «رحم الله عبدًا سمحًا إذا باع سمحًا إذا اشترى»[2]... الحديث.

ويؤيد جميع ما ذكرنا وغيره قوله ﷺ: «إن الله فرض فرائض فلا تضيِّعوها، وحدَّ حدودًا فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلا تبحثوا عنها»[3].

وهنا تظهر حكمة الله تعالى في وضعه النظام بهذه الصورة؛ إذ إنه لو لم ييسر لنا ولو كلَّفنا بما لا نطيق لما تحمَّلناه، ولو تحمَّلنا فترة من الزمن فلا يستطيع المرء أن يتحمَّله إلى الأبد، وهنا تظهر رسالة الإسلام مميزة وواضحة على الرسالات كلها[4].

الخصيصة الثالثة: التدرج في الإلزام الخُلقي:

الأخلاق الإسلامية وضعها الشرع الحنيف بما يتمشى مع طبيعة الإنسان؛ الذي خلقه الله سبحانه وتعالى طوْرًا بعد طور؛ يقول تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾؛

---

(١) المراجع السابقة، وانظر: رفع الحرج، عاطف محفوظ، ص١٢.

(٢) صحيح البخاري: كتاب البيوع، باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع، حديث رقم ٢٠٧٦.

(٣) رواه الطبراني في الصغير: ٢/ ٢٤٩، وأبو يعلى في المسند ٤/ ٣٤٣، وانظر: جامع العلوم والحكم، لابن رجب، ص٢٧٥.

(٤) أصول التشريع الإسلامي: علي حسب الله، ص٣٤٢.

ولهذا نزل التشريع الإسلامي متدرجًا، تتوالى أحكامه وتكاليفه شيئًا فشيئًا، ومنها الإلزام الخُلقي، فلم تنزل دفعة واحدة، وإنما نزلت متتالية خلال ثلاث وعشرين سنة هي مدة البعثة المحمدية[1].

ففي تشريع الصلاة كان التدرج واضحًا، فقد شُرعت في أول الأمر ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي؛ لأن الناس كانوا حديثي عهد بالإسلام، ولم يتذوقوا بعد حلاوة المثول بين يدي الله ومناجاته، فلمَّا تذوقوها وعرفوا فضلها زادها الله؛ فجُعلت خمسًا في اليوم والليلة[2].

وفي تحريم الخمر نزل التحريم متدرجًا، ولم يحرمها الشرع دفعة واحدة؛ كي يتمكن المدمنون من الامتثال والخضوع دون أن يصيبهم حرج أو ضرر[3].

والأمثلة في هذا المجال كثيرة، والحكمة من أن يوصف الإلزام الشرعي -ومنه الإلزام الخُلقي- بالتدرج؛ لكي تكون الأحكام والتكاليف أخفَّ على الناس فيقبلونها، بخلاف ما لو تنزل مرة واحدة، وتخيل معي لو أن القرآن الكريم كله نزل دفعة واحدة، ولو أن الرسول ﷺ قال أو فعل كل ما ورد عنه مرة واحدة.. كيف سيكون تلقي الناس واستيعابهم وحفظهم[4]؟!

---

(١) تاريخ التشريع: حسن الشاذلي، ص٤٦، المدخل لدراسة الشريعة: عبد الكريم زيدان، ص٩٣.

(٢) تاريخ التشريع الإسلامي: حسن الشاذلي، ص٤٧، تاريخ التشريع ومراحله الفقهية: الطريفي، ص٤١.

(٣) المرجعين السابقين.

(٤) تفسير آيات الأحكام: السايس، ١/ ٢٣١.

الخصيصة الرابعة: مراعاة الحالات الاستثنائية:

إذا كانت رسالة الإسلام تمتاز على الرسالات الأخرى فإن نظامها الأخلاقي يمتاز كذلك على الفلسفات الأخلاقية الأخرى؛ التي تتسم بالقسوة وعدم مراعاة الطبيعة الإنسانية في الظروف المختلفة[1].

وتظهر هذه المراعاة في تخفيف الإسلام عن المكلَّفين بعض التكاليف أو إعفائهم منها في بعض الظروف والحالات المحرجة الطارئة؛ ولذلك شُرع التخفيف وشُرعت الرُّخص الشرعية؛ لتكون هي الملاذ أو المخرج من هذا الظرف الطارئ الذي حلَّ بالمسلم[2].

ولذلك نرى أنه حيث تزداد المشكلات وتضيق بالناس حوادث الزمان؛ تكون الشريعة الإسلامية وتعاليمها وأخلاقها سفينة النجاة إلى شاطئ السعادة[3]!

إن الظروف الطارئة والحرجة أمر بدهي في حياة كل إنسان، ومثل هذه الظروف تُوقِع الناس في مشقة، والإسلام (كما ذكرنا) لا يقضي بالشاق، فهو يُسر، ومبادؤه ميسرة وسهلة، وعلى هذا فإذا ما وقع بعض الناس في المشاق من خلال هذه الظروف فقد أتى الشرع بالحل الأمثل؛ والمتمثل في التخفيف ورفع المشقة[4]، والقاعدة تقول: «المشقة تجلب التيسير»[5]، وهي قاعدة عظيمة رُوعي فيها أن المشقة الزائدة عن الطاقة، والتي لا يستطيع أن يتحملها الإنسان في الأحوال العادية، فكيف بالظروف

---

(١) حجة الله البالغة: ١/ ٢٣٣، أصول الفقه: الخضري، ص٦٥.

(٢) تنقيح الفصول: القرافي، ص٨٥، المستصفى: للغزالي، ٢/ ٩٨، تبيين الحقائق: للزيلعي، ٥/ ١٨٥.

(٣) التحرير في قاعدة المشقة تجلب التيسير: عامر الزيباري، ص٤.

(٤) مفردات الراغب الأصبهاني: ٢/ ٢٢٩، أساس البلاغة: ص٢٣٩.

(٥) الأشباه والنظائر: للسيوطي، ص٨١، القواعد: لابن عبد السلام، ٢/ ٨،٩، الفروق: ١/ ١٢٠.

الطارئة والحرجة؟! لذلك شُرعت التخفيفات والتيسيرات والرُّخص في هذه الأحوال الاستثنائية[1].

فمن ذلك:

- **السفر:** ظرف طارئ، وهو سبب من أسباب التخفيف، تُستعمل فيه الرُّخص الشرعية؛ فيُباح الفطر فيه، وتُقصر الصلاة فيه، ويجوز الجمع بين الصلاتين، وجواز المسح على الخفين مدة ثلاثة أيام بلياليها، وعدم المطالبة بصلاة الجمعة والجماعة والعيدين، وجواز النوافل على ظهر الدَّابة[2].
- **المرض:** وهي حالة تطرأ على جسم الإنسان فتؤثر فيه؛ مما يعجزه عن القيام بالمطلوب شرعًا، ولذلك كان سببًا للتخفيف، وقد رخَّص الشارع للمريض التيمم عند مشقَّة استعمال الماء، والقعود في صلاة الفرض، والاضطجاع فيها والإيماء، وجواز التخلف عن صلاة الجمعة والجماعة، وجواز الجمع بين الصلاتين، وجواز الفطر في رمضان.. ونحو ذلك[3].
- **الإكراه:** وهو حمل الغير على ما لا يرضاه من قول أو فعل، بحيث لا يختار مباشرته لو خُلِّي ونفسه[4]، وهو سبب من أسباب التخفيف في بعض الأحكام الشرعية لا كلها؛ فمثلاً: لا يُؤاخَذ المكرَه على

(١) إعلام الموقعين: لابن القيم، ٢/ ١١١، إرشاد الفحول: ص١٨٢، المحلَّى: لابن حزم، ٥/ ٣.

(٢) الأشباه والنظائر: لابن نجيم، ص٧٥، الأشباه والنظائر: للسيوطي، الموافقات: ٢/ ١٢٢، تحفة المحتاج: ٢/ ٣٣٩.

(٣) مقدمات ابن رشد: ١/ ١٣٠، كشاف القناع: ٢/ ٣، نهاية المحتاج: ٣/ ١٨٩، الدر المختار: ٢/ ٢٢.

(٤) التلويح على التوضيح: ٣/ ٢٢٦، الأشباه: للسيوطي، ص٢٩٩.

النطق بكلمة الكفر، ولا يؤاخذ على الإكراه على شرب الخمر، ولا السرقة.. ونحو ذلك[1].

- **الجهل:** وهو عدم العلم بالأحكام الشرعية، وقد جعله الشارع سببًا للتخفيف في بعض الأحكام الشرعية لا كلها.
- **النسيان:** وهو يرفع الإثم والمؤاخذة على ترك حقوق الله تعالى.

وغير ذلك من الأحوال الاستثنائية التي تُباح فيها الرُّخص والتخفيفات؛ كإباحة الكذب في حالات معينة طارئة وحرجة[2].

إن إباحة التخفيفات والرُّخص في هذه الحالات الاستثنائية هي سلوك إنساني لحالات ضرورية، وفي هذه الجزئية توجد بعض الأمور التي تحتاج إلى تفصيل:

الأمر الأول: هذه الحالات الاستثنائية لا تُعتبر جزءًا من الأخلاق:

فهذه الحالات الاستثنائية هي استثناء من القواعد الأخلاقية العامة، ولا تعتبر جزءًا من الأخلاق، وإنما هي ضرورة، والضرورات تبيح المحظورات؛ ولهذا فهي ليست أصلاً، فلا يجوز اتخاذها لتحقيق الأهداف كلما وجد الإنسان شيئًا من القَسْر في استخدام الطرق الأخلاقية السليمة؛ متذرعًا في ذلك بالصعوبة[3].

إن الحل الإسلامي لمشكلة الاستثناء من الإلزام الأخلاقي بتلك الصورة يعتبر حلاً وسطًا في التفكير الخُلقي؛ ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي

(١) المغني: ٦/ ١٨٧، حاشية ابن عابدين: ٦/ ١٣٧.

(٢) روضة الناظر: لابن قدامة، ١/ ١٤٩، الأشباه: للسيوطي، ص٢٢٠، القواعد الفقهية: ص٣٤٣.

(٣) المذاهب الأخلاقية: عادل العوا، ٢/ ١٩.

بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[1]؛ فإذا ألقينا نظرة عابرة على الاتجاهات الأخلاقية الأخرى في هذه الجزئية بالذات وجدنا فيها اتجاهين:

اتجاه: لا يبيح الاستثناء في القاعدة الأخلاقية، وهو اتجاه «كانط»[2].

والثاني: يعتبر الأهداف والغايات هي الأساس، وأنها تبرر الوسيلة، فكل وسيلة تحققها تعدُّ عملاً أخلاقيًّا، وهو الاتجاه النفعي في الأخلاق[3].

أما الإسلام فلم يقف مع أحد الاتجاهين مطلقًا، وإنما كان له تفكيره الخاص؛ المتمثل في مراعاة الظروف والحالات الحرجة والضرورية، حيث وجود التخفيفات والرُّخص.

ويجب التنبيه إلى نقطة مهمة هنا؛ وهي أن الإسلام إذ أباح بعض الأمور التي ذكرناها؛ مثل التلفظ بكلمة الكفر حالة الإكراه، والكذب في بعض الأحوال.. فهذا يُعتبر رخصة، وليس عزيمة، والإنسان إذا تمسَّك بالعزيمة مع وجود الرخصة يُعتبر هذا فضيلة منه، ولا يكون آثمًا إذا تمسَّك بالرُّخصة.

فقد رُوي أن عيونًا لمسيلمة الكذَّاب أخذوا رجلين من أصحاب النبي ﷺ، فذهبوا بهما إلى مسيلمة، فقال لأحدهما: أتشهد أن محمدًا رسول الله؟ قال: نعم، قال: أتشهد أني رسول الله؟ قال: نعم، فخلَّى عنه، وقال للآخر: أتشهد أن محمدًا رسول الله؟ قال: نعم، وتشهد أني رسول الله؟ قال: أنا أصمُّ لا أسمع! فعذَّبه وضرب عنقه.

(١) سورة فصلت: الآية (٣٤).

(٢) المذاهب الأخلاقية: ٢/ ٢٠.

(٣) علم الأخلاق الإسلامية: مقداد يالجن، ص٢٤٦.

فجاء الآخر إلى النبي ﷺ فقال: هلكتُ، قال: «وما أهلكك؟»..
فذكر الحديث، فقال ﷺ: «أما صاحبك فقد أخذ بالثِّقة، وأما أنت فقد أخذت بالرُّخصة، علام أنت عليه الساعة؟»، قال: أشهد أنك رسول الله، قال: «أنت على ما أنت عليه»[1].

ويقول تعالى: ﴿**وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ**﴾[2]، وكما يفهم من النصِّ السابق فإن الاستثناء لم يُسقط حرمة المحظورات، وإنما وعد الله بأنه لن يؤاخذ على ارتكابه[3].

الأمر الثاني: مراعاة الفروق الفردية في هذه الاستثناءات:

الإسلام راعى في الحالات الاستثنائية الفروق الفردية بين الناس، فبعض الناس مثلاً لا يستطيع تحمُّل تلك المواقف الحرجة الشديدة تحت وطأة الخوف أو الجوع، فيقدم على ارتكاب الحرام، وكل إنسان يعمل على حسب طاقته، وهو يعرف نفسه عند الإقدام على الرُّخصة مدى اضطراره لها[4]؛ يقول تعالى: ﴿**بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ❁ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ**﴾[5]، وأن الله سيحاسبه بناء على معرفته بنفسه في حالة الاضطرار؛ ولهذا لا يحق للناس أن يرتكبوا المحرَّمات لمجرد بعض الصعوبات التي يشعرون بها إزاء القيام بالأعمال الأخلاقية.

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة: ٢/ ٣٠٦؛ الدر المنثور: للسيوطي، ٤/ ١٣٢.

(٢) سورة الأنعام: الآية (١١٩).

(٣) علم أصول الفقه: عبد الوهاب خلاف، ص١٤١.

(٤) الموافقات: للشاطبي، ٢/ ٨٧.

(٥) سورة القيامة: الآية (١٤).

الأمر الثالث: مرونة التشريع الإسلامي في مختلف الظروف والحالات:

إن مراعاة الإسلام لهذه الأمور تدل على مرونة التشريع الإسلامي في مختلف الظروف والحالات[1]، وفي مختلف الأزمنة والأمكنة؛ لأن هذه القوة القاهرة التي تُكْرِه الناس أو بعضهم على الخروج على القوانين الأخلاقية، قد ترجع إلى اختلاف طبائع الناس، أو إلى الطبيعة، أو إلى تطور الحياة، أو الظروف الطارئة، فعن طريق قانون الاستثناء نستطيع أن نواجه تلك الظروف ونحلَّ كثيرًا من المشكلات الطارئة[2].



خلاصة:

من خلال الخصائص التي تميَّز بها الإلزام الخُلقي الإسلامي؛ من الإلزام بقدر الاستطاعة وعدم التكليف بالمحال، والتيسير، وقلة التكاليف، والتدرج، ومراعاة الحالات الاستثنائية.. نخلص إلى أن هذه الخصائص تتناسب مع سيكولوجية الفروق الفردية في الطبيعة البشرية، وذلك من خلال النصوص التشريعية الواردة في كتاب الله تعالى وسنة النبي ×، وهو ما استوعبه علماء الأصول؛ خاصَّة أصول الفقه، وبنوا عليها قواعد الأحكام الفقهية؛ سواء الملزِمة، أو الميسِّرة للناس.

---

(١) الموافقات: للشاطبي، ١/ ٢٢٠.

(٢) علم الأخلاق الإسلامية: مقداد يالجن، ص٢٤٩.

المبحث الخامس

المسؤولية الأخلاقية..
مفهومها، ومجالها، وأقسامها

المسـؤولية الأخلاقيـة نتيجـة طبيعيـة لمسـألة الإلـزام والالتـزام الخلقـي، والـتي سـبق أن تعرَّضـنا لهـا، فـالإلزام بشـيء مـا يسـبق المسـؤولية مـن حيـث الوجود، فلا يمكن أن تكون هناك مسؤولية يحاسَب عليها الإنسـان إلا إذا كان ملزَمًا قبلها بشيء معين.

وفي هـذا المبحـث نتنـاول مفهـوم المسـؤولية الأخلاقيـة، ومجالهـا، وأبعـاد هذه المسؤولية، ثم نتحدث أخيرًا عن أقسام المسؤولية بحسب الجزاء والعقاب المقرَّر لها؛ وذلك في النقاط التالية:

أولاً: مفهوم المسؤولية الأخلاقية والأساس الذي تقوم عليه:

تُعرف المسـؤولية الأخلاقيـة بأنهـا: «أن يتحمـل الإنسـان نتيجـة التزاماتـه وقراراتـه واختياراتـه؛ إيجابًـا وسـلبًا، أمـام الله تعـالى في المقـام الأول، وأمـام ضميره الإنساني، وأمام الجماعة المسلمة»[1].

الأساس الذي تقع عليه هذه المسؤولية:

والأسـاس الـذي تقـع عليـه المسـؤولية الأخلاقيـة هـو الإنسـان نفسـه، فهـو المسؤول للقيام بالمسؤوليات التي يتحملها ويلتزم بها[2].

---

(١) علم الأخلاق الإسلامية: مقداد يالجن، ص٢٥٢، هذه أخلاقنا: ص٢٢.

(٢) المرجعين السابقين.

وإذا كنا قد اعتبرنا الإنسان هو المسؤول وحده؛ فإنه لابد من توافر عدة شروط في هذا الإنسان؛ حتى يتحمل نتيجة التزاماته،

وبالتالي يكون مسؤولاً؛ وهي:

(١) أن تكون له حرية الإرادة والاختيار والتصرف فيما يختار.

(٢) أن يكون هذا الإنسان واعيًا مدركًا لطبيعة ذاته ولسلوكه ونتائج تصرفاته، بحيث يحقق النفع له أو لغيره آجلاً أو عاجلاً.

(٣) أن يكون مستطيعًا للقيام بمسؤولياته، فمن الظلم تكليف إنسان بأعمال لا يستطيع تحمل أعبائها والقيام بها.

وهذه الشروط مجتمعة تعدُّ أساس المسؤولية الأخلاقية، ولا يمكن الاستغناء عن أي واحد منها.

هذه المسؤولية التي تحمَّلها الإنسان بجدارة بيَّنها الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾[1].

ثانيًا: مجال المسؤولية الأخلاقية:

للمسؤولية الأخلاقية مجالان:

المجال الأول: مجال المسؤولية الفردية.

المجال الثاني: مجال المسؤولية الاجتماعية.

وإليك تفصيلهما:

---

(١) سورة الأحزاب: الآية (٧٢).

المجال الأول: مجال المسؤولية الفردية:

وتتمثل في مسؤولية الإرادة والقصد والتصميم، فليس من الضروري أن يكون عمل الإنسان ماديًّا ظاهرًا ليكون مسؤولاً عنه، بل إن العزم على فعل شيء كافٍ لتحمل المسؤولية؛ ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ﴾[1]، فمثلاً: إذا ترك فعل الحرام خوفًا من الحساب يكتب له حسنة؛ مصداق ذلك قوله ﷺ: «إن الله ﷻ كتب الحسنات والسيئات، ثم بيَّن ذلك؛ فمن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله حسنة كاملة، فإن عملها كتبها الله عنده عشرة حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له حسنة كاملة، فإن عملها كتبها الله سيئة واحدة»[2].

ولا يُفهم من هذا أن الذي أراد السيئة وأصرَّ عليها، ولم يستطع تنفيذها لمانعٍ ما.. أنه يُعفى من العقاب والمسؤولية، فهناك فرق بين نية لم تحصل محاولة لتنفيذها، ونية حصلت محاولة ولم تنجح[3]؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار»! قلنا: هذا القاتل، فما بال المقتول؟! قال: «إنه كان حريصًا على قتل صاحبه»[4].

ولا يدخل في نطاق المسؤولية ما يقع في القلب من خطرات الخير ووساوس الشر؛ يقول رسول الله ﷺ: «إن الله تجاوز عن أمتي عما حدثت به

---

(١) سورة البقرة: الآية (٢٨٤).

(٢) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: باب من همَّ بحسنة أو سيئة، ١٤/ ١٠٦.

(٣) علم الأخلاق الإسلامية: ص٢٥٦.

(٤) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: باب من همَّ بحسنة أو سيئة، ١٤/ ١١٠.

أنفسها، ما لم تعمل أو تتكلم به»[1]، وهذا الذي تحدثنا عنه هو المجال الداخلي الباطني[2].

وأما المجال الظاهري للمسؤولية الأخلاقية الفردية فهو السلوك المادي المحسوس، الذي يظهر إلى الوجود الخارجي، ويُشترط فيه أن يكون ناتجًا عن قصد واختيار من الشخص، فإذا كان ناتجًا عن غير قصد أو اختيار فلا مسؤولية، وبالتالي فلا يُسأل المجنون والنائم والصبي والمكْرَه عن سلوكهم الأخلاقي؛ لانعدام الإرادة[3]؛ يقول تعالى: ﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[4]، ويقول ﷺ: «رُفع القلم عن ثلاث: عن النائم حتى يستقيظ، وعن المجنون المغلوب على عقله حتى يفيق، وعن الصبي حتى يحتلم»[5].

وفي النهاية: نستطيع تحديد مجال المسؤولية الفردية بوجه عام: فالحياة كلها مجال المسؤوليات الأخلاقية، والإنسان مسؤول فيها عن كل تصميم وسلوك صادر عن قصد واختيار، يتصل بخير أو شر، وكل فرد تتوفر فيه شروط المسؤولية مسؤول عن سلوكه في إطار مجاله؛ ولهذا قال ﷺ: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته، الأمير راعٍ ومسؤول عن رعيته، والرجل راعٍ على أهل بيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده، فكلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته»[6].

---

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: باب إذا حلف ناسيًا، في الأيمان، ١٤/ ٢٥٦.

(٢) علم الأخلاق الإسلامية: مقداد يالجن، ص٢٥٦.

(٣) المرجع السابقة.

(٤) سورة البقرة: الآية (٢٨٦).

(٥) المستدرك على الصحيحين: ٤/ ٤٨٩.

(٦) صحيح البخاري بشرح بفتح الباري: كتاب النكاح، باب المرأة راعية في بيت زوجها، ٩/ ٢٨٩.

المجال الثاني: مجال المسؤولية الاجتماعية (المسؤولية الغيرية):

المسؤولية الاجتماعية تتمثل في مسؤولية الجماعة عن سلوك الأفراد، ومسؤولية الفرد عن سلوك غيره[1]، وقد جاءت النصوص صريحة وواضحة تقرِّر هذه المسؤولية، ومن تلكم النصوص ما يلي:

- قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[2].
- قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[3].
- قوله ﷺ: «كلاَّ! والله لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر، ولتأخذُنَّ على يد الظالم، ولتأطرُنَّه على الحق أطرًا، ولتقصرُنَّه على الحق قصرًا.. أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم ليلعنكم كما لعنهم»[4].
- قوله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم»[5].
- قوله ﷺ:

«تقرَّبوا إلى الله ببُغض أهل المعاصي، والقوهم بوجوه مكفهرَّة، والتمسوا رضا الله بسخطهم، وتقرَّبوا إلى الله بالتباعد منهم»[1].

---

(١) المسؤولية والجزاء: علي عبد الواحد وافي، ص٦٢.

(٢) سورة الأنعام: الآية (١٤٦).

(٣) سورة الأنفال: الآية (٢٥).

(٤) رياض الصالحين: باب الأمر بالمعروف، ص١٠٤.

(٥) المصدر نفسه: ص٩٩.

• سألت زينب بنت جحش (رضي الله عنها) رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم، إذا كثُر الخبث»[2].

ففي هذه النصوص وجدنا مسؤولية الإنسان عن نفسه ثابتة، ومسؤوليته عن الغير كذلك، ومسؤولية الجماعة عن الأفراد ثابتة[3].

ثالثًا: أقسام المسؤولية الأخلاقية بحسب جزاءاتها:

ذكرنا أن المسؤولية الأخلاقية تقع على عاتق الإنسان فقط؛ لأنه هو الذي يتحمل الإلزام والالتزام الخلقي، ومتى ثبتت هذه المسؤولية فإن الجزاء المترتب عليها ينقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية؛ هي:

القسم الأول: العقاب الدنيوي:

يعاقَب الإنسان المسؤول عن الأخلاق عقابًا دنيويًّا فقط، إذا ترك مقاومة الفساد والمنكر والباطل من الأقوال والأفعال، لا رغبة منه في انتشاره، ولكن لكونه عاجزًا عن المقاومة[4].

وهذا العقاب قد يكون عقابًا إلهيًّا، وقد يكون عقابًا طبيعيًّا.

(1) العقاب الإلهي: إذا انتشر الفساد والمنكر في أمة فإن الله تعالى يعاقب هذه الأمة عقابًا دنيويًّا؛ لعدم مقاومتها الفساد، ويعاقب الله تعالى الصالحين منهم أيضًا لتركهم مقاومة الفساد[5].

يدل على هذا العقاب أحاديث؛ منها:

---

(1) منتخب كنز العمال بهامش مسند أحمد: 1/ 146.

(2) سبق تخريجه.

(3) علم الأخلاق الإسلامية: مقداد يالجن، ص262 وما بعدها.

(4) أصول المنهج الإسلامي: ص466، علم الأخلاق الإسلامية: ص264.

(5) المرجعين السابقين.

- ما روي عن جرير ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من رجل يكون في قوم يعمل فيهم بالمعاصي، يقدرون أن يغيروا عليه فلا يغيروا؛ إلا أصابهم الله بعقاب من قبل أن يموتوا»[١].
- ما روي عن عبد الله بن عمرو (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتَ أمتي تهاب أن تقول للظالم: يا ظالم؛ فقد تودِّع منهم»[٢].
- ما روي عن حذيفة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لتأمرُنَّ بالمعروف ولتنهنَّ عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا منه، ثم تدعون فلا يستجاب لكم»[٣].
- سألت زينب بنت جحش رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم، إذا كثُر الخبث»[٤].
- ما روي عن النبي ﷺ قال: «إذا ظهر السوء فلم ينهوا عنه أنزل الله بهم بأسه»، قيل: وإن كان فيهم الصالحون؟! قال: «نعم، يصيبهم ما أصابهم، ثم يصيرون إلى مغفرة الله ورحمته»[٥].

ومن خلال النصوص السابقة نرى ما أنزله الله تعالى من عقاب دنيوي على تاركي مقاومة الفساد، حتى وإن الصالحين منهم يصيبهم بعض هذا العقاب؛ لتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[١].

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) سبق تخريجه.
(٤) سبق تخريجه.
(٥) منتخب كنز العمال: ١/ ١٤٩.

(٢) العقاب الطبيعي: إذا انتشر الفساد والمنكر في المجتمع ولم يوجد من يقاومه؛ فإن هناك عقابًا طبيعيًا لترك مقاومة هذا الفساد؛ يتمثل في انتشار الضرر بجميع صوره في الأمة؛ من ضيق في العيش، وقلة في الرزق، ومحق للبركة، وتعامل بالحرام.. ونحو ذلك من العقاب الطبيعي في الدنيا، وكلٌّ من عند الله سبحانه وتعالى[٢]؛ ولهذا يقول سبحانه: ﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾[٣]، ويقول ﷺ: «إن الله لا يعذِّب العامَّة بعمل الخاصَّة حتى تكون العامة تستطيع أن تغيِّر على الخاصَّة، فإذا لم تغيِّر العامة على الخاصة عذَّب الله العامَّة والخاصَّة»[٤].

---

(١) أصول المنهج الإسلامي: ص٤٦٧.

(٢) المرجع السابق.

(٣) سورة الأنفال: الآية (٢٥).

(٤) التاج الجامع للأصول: كتاب الفتن، ٥/ ٣٠١.

القسم الثاني: عقاب دنيوي وأخروي معًا:

يعاقَب المسؤول مسؤولية أخلاقية عقابًا دنيويًا وأخرويًا إذا كان يقصد الفساد ولم يقاومه، أو كان غير قاصد للفساد ولكنه قصَّر في مقاومته وأهمل ذلك.

أما عقابه لقصده الفساد؛ فلسوء نيته، ولتركه أمر الله في مقاومته هذا الفساد من جهة أخرى[1].

وأما الثاني؛ وهو إهماله في مقاومة الفساد؛ فلتركه الواجب؛ لأنه أمر إلهي، وهو واجب هامٌّ من واجبات الأخلاق الإسلامية؛ يقول تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾[2]، ويقول ﷺ: «إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه، أوشك الله أن يعمَّهم بعقابه»[3]، ويقول ﷺ: «لعن الله من رأى مظلومًا فلم ينصُره»[4].

والعقاب واللعن يكون في الدنيا والآخرة.

---

(١) علم الأخلاق الإسلامية: ص٣٦٥.

(٢) سورة الأنفال: الآية (٢٥).

(٣) رواه أحمد عن أبي بكر، انظر: الجامع الكبير، ١/ ٢١٥.

(٤) كنز العمال: ٣/ ٤١٤.

القسم الثالث: العقاب عن إضلاله غيره:

المسؤول عن الأخلاق يعاقَب أيضًا عن إضلاله غيره بآرائه وتوجيهاته، فيتبع الغير آراءه وطريقته[1]، فهو مسؤول هنا لأنه جعل الغير يهتدي بسلوكه؛ يقول الله تعالى في هذا الصدد: ﴿لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ﴾[2].

وتحمُّل الإنسان مسؤولية سلوك الغير في هذا الإطار ليس فيها أي غرابة في التفكير الأخلاقي؛ وذلك أن الإنسان ليس مسؤولا فقط عن فعل الشر، بل هو مسؤول عن دفع الشر؛ لأن هدف الأخلاق تحقيق السعادة، والسعادة لا تتحقق إلا بإنقاذ الإنسان من الشر أولاً، ثم تحقيق الخير له ثانيًا[3].

---

(١) علم الأخلاق الإسلامية: مقداد يالجن، ص٢٦٥.

(٢) سورة النحل: الآية (٢٥).

(٣) علم الأخلاق الإسلامية: ص٢٦٦.

المبحث السادس

أنواع الجزاء الأخلاقي في الإسلام

إذا كانت المسؤولية هي نتيجة طبيعية للالتزام، فإن الجزاء نتيجة طبيعية لتلك المسؤولية، والجزاء من حيث إنه أساس فهو مهم باعتباره دافعًا إلى التمسك بالقيم الأخلاقية، والعدالة تقتضيه؛ لأنه يفرِّق بين إنسان سويٌّ يبني، وآخر يهدم، وبدون الجزاء تفقد الأخلاق معناها وتصبح أمرًا لا قيمة له.

وللجزاء الأخلاقي أنواع: فقد يكون جزاءً إلهيًّا، وقد يكون جزاءً اجتماعيًّا، وقد يكون جزاءً طبيعيًّا، وقد يكون جزاءً وجدانيًّا.

فمعنا أربعة أنواع للجزاء، نتحدث عنها تفصيلاً:

(١) الجزاء الإلهي:

ويتمثل في مبدأ الثواب والعقاب، فالثواب في حالة الاستقامة، والعقاب في حالة الانحراف، وهذا يكون في الدنيا والآخرة.

فمن حيث المثوبة فقد قطع الله على نفسه الوعد بإثابة المحسن على إحسانه؛ قليلاً كان أم كثيرًا، ووعد الله الحق، فللمحسن جزاؤه على التزامه بمكارم الأخلاق[1]، وفي ذلك وردت الآيات الكريمة؛ ومنها:

- قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۞ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾[1].

---

(١) علم الأخلاق الإسلامية: ص٢٦٨.

- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواُ مَنّاً وَلاَ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2].
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً * خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾[3].
- قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[4].

فهذه الآيات تشير إلى ثواب المحسنين في الآخرة، وهناك آيات تشير إلى ثوابهم في الدنيا؛ ومنها:

- قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[5].
- قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[6].
- قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾[1].

---

(١) سورة الحج: الآيتان (٢٣، ٢٤).

(٢) سورة البقرة: الآية (٢٦٢).

(٣) سورة الكهف: الآيتان (١٠٧، ١٠٨).

(٤) سورة البقرة: الآية (٢٦١).

(٥) سورة الزمر: الآية (١٠).

(٦) سورة النحل: الآية (٩٧).

- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾[2].
- قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾[3].
- قوله تعالى: ﴿بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[4].
- قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[5].

فالجزاء الإلهي المتمثل في العقاب والثواب لابد منه لحماية الأخلاق.

(٢) الجزاء الاجتماعي:

جعل الإسلام لمن لم يتمسك بالإلزام الأخلاقي جزاء اجتماعيًّا؛ لحماية المجتمع من سلوك هذا الإنسان الذي تحلّل من مبادئ الأخلاق الكريمة، وهذا الجزاء منه ما هو ماديٌّ حسيٌّ، ومنه ما هو أدبيٌّ[6].

أما الجزاء المادي: فهو ما يقرره المجتمع من مكافأة للمستقيم وعقاب للمنحرف؛ وقد هيأ الإسلام الجو المناسب للحياة الأخلاقية القائمة على الفضيلة، وحثَّ على الالتزام بمكارم الأخلاق، والهدف من ذلك حماية

---

(١) سورة الطلاق: الآيتان (٢، ٣).

(٢) سورة إبراهيم: الآية (٤٢).

(٣) سورة الزلزلة: الآية (٨).

(٤) سورة البقرة: الآية (٨١).

(٥) سورة النساء: الآية (١٤).

(٦) علم الأخلاق الإسلامية: ص٢٨٥.

المجتمع من الانحراف، فمن خرم هذا الناموس الإلهي كان لابد من أن يقع عليه الجزاء الإلهي، وقد أعطى الشرع للمجتمع حق تنفيذ هذه العقوبات[1]:

- ففي عقوبة الزنا أعطى الشارع للمجتمع المتمثل في الحاكم سلطة تنفيذ هذه العقوبة[2]؛ يقول تعالى: ﴿**الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[3]، وفي عقوبة الزنا لمن كان محصنًا خول للجماعة تنفيذ هذه العقوبة، فقد نفذت الجماعة إقامة الحد على ماعز بن مالك، والغامدية، وقد رجما[4].
- وكذلك الأمر في عقوبة السرقة[5]؛ ﴿**وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ**﴾[6].
- وكذلك الحال في عقوبة المحاربين (قُطّاع الطريق) جعل سلطة تنفيذ هذه العقوبة[7]؛ ﴿**إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ**

---

(١) علم الأخلاق الإسلامية: ص٢٨٦، معالم في الثقافة الإسلامية: عبد الكريم عثمان، ص٦٣.

(٢) قوانين الأحكام الشرعية: ص٣٨٥، المحرر في الفقه: ٢/ ١٦٥، اللباب: ٣/ ١٨٣.

(٣) سورة النور: الآية (٢).

(٤) البحر الرائق: ٥/ ١١، المبدع: ٩/ ٦٥، المبسوط: ٩/ ٥١، البدائع: ٧/ ٤.

(٥) مواهب الجليل: ٦/ ٣٠٦، مغني المحتاج: ٤/ ١٥٨، الفواكه الدواني: ٢/ ٢٩١.

(٦) سورة المائدة: الآية (٣٨).

(٧) بداية المجتهد: ٢/ ٤٥٨، إعانة الطالبين: ٤/ ١٦٥، المنتقى: ٧/ ١٠٥.



خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1].

وكذلك الحال في بقية الحدود والقصاص، وهي عقوبات مادية، فقد أعطى الشرع للمجتمع سلطة تنفيذ هذه العقوبات.

وهكذا نرى أن العقاب المادي هنا حق الله من جهة وحق المجتمع من جهة أخرى؛ حق الله من جهة أن الجاني قد تعدَّى حدود الله وعصى أوامره، وحق المجتمع باعتبار أن الجاني تعدى حرمات المجتمع؛ لأن ضرر هذه الجرائم لاحقٌ بالمجتمع، والجريمة مرض في جسم المجتمع، فإذا لم تعالجه الجماعة المسلمة فسيستفحل، ولا نستطيع علاجه، ويكون سببًا لهلاك الجميع.

وأما الجزاء الأدبي: فهو عدم الاعتداد بشخصية هذا الإنسان؛ من حيث عدم الثقة به، فلا تُقبل شهادة الفاسق؛ يقول تعالى: ﴿وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[2].

وإذا كان المشرِّع أسقط القيمة الأدبية للفاسقين؛ ففي المقابل أمر الإسلام برفع القيمة الأدبية للصالحين، ورفع درجاتهم بحسب درجة أخلاقهم، والنصوص في ذلك كثيرة؛ منها:

- قوله ﷺ: «إن الهدي الصالح والسمت الصالح جزء من خمسة وعشرين جزءًا من النبوة»[3].
- قوله ﷺ: «أنزلوا الناس منازلهم من الخير والشر»[1].

---

(١) سورة المائدة: الآية (٣٣).

(٢) سورة النور: الآية (٤).

(٣) التاج الجامع: باب الهدي الصالح، ص٦٦.



- وقد دعا النبي ﷺ إلى مصاحبة ذوي الأخلاق الصالحة، ومجانبة ذوي الأخلاق السيئة؛ فقال: «إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك؛ إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه رائحة طيبة، ونافخ الكير؛ إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحًا خبيثة»[2].

(٣) الجزاء الطبيعي:

الأخلاق لها صلة وثيقة بالقوانين الطبيعية، والخارج على النظام الخُلقي والمفسد له سيرتدُّ عليه إفساده من الطبيعة نفسها.

وقد يرجع هذا الجزاء إلى القوانين الطبيعية؛ كالإصابة بالأمراض السرِّية بسبب ارتكاب جريمة الزنا؛ كالإصابة بمرض السيلان[3]، ومرض الزهري[4]، والإيدز، وهي أمراض فتَّاكة، فإن لم يُصَب الزاني بالأمراض السرية فإنه يصاب بالسفاسف الخُلقية[5]؛ كالوقاحة، والخديعة والكذب، والخضوع للشهوات، والغدر وقلة الوفاء، كل أولئك من آثار الزنا التي تترتب على أخلاق الزاني نفسه.

ومن الأمراض (أيضًا) تلك الأمراض التي تصيب الشخص بسبب مخالفته قانون النظافة، وتناول المسكرات، ومثل الإصابة بالإرهاق النفسي والعصبي

---

(١) كشف الخفاء: ١/ ٢٤٩.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) مرض السيلان: هو قرحة في الإحليل قلَّما تندمل، ومن أُصيب به مرة أُصيب به إلى الأبد.

(٤) مرض الزهري: يسمم الجسم كله، ولا يبقى عضو من أعضائه غير متأثر بسمومه وأذاه، وينتقل من المريض إلى نسله.

(٥) انظر: الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر، ص١٤٥، دراسة في أدب منحل: جلال كشك، ص٤٠.

بسبب الخروج عن حدِّ الاعتدال في العمل[1]، ولقد كان رسول الله ﷺ ينهى عن الإفراط في أي عمل حتى في العبادة، فقال لمن يقوم الليل ويواصل الصوم: «... فإنك إن فعلت ذلك هجمت عينُك، ونفهت نفسك، لعينك حق، ولنفسك حق، ولأهلك حق، قُمْ ونَمْ، وصُمْ وأفطِر»[2].

وقد يرجع الجزاء إلى قوانين الطبيعة الاجتماعية؛ فمثلاً من يخالف قانون الصدق تزول ثقة الناس به.

وهنا نجد الإسلام قد ربط قوانينه الأخلاقية بالقوانين الطبيعية؛ فنهى عن كل شيء يضرُّ فعله بالطبيعة، وأمر بكل شيء ينفع فعله الطبيعة[3].

(٤) الجزاء النفسي «الوجداني»:

الجزاء الوجداني هي تلك الحالة الشعورية التي تكون في أعماق قلوبنا بالفرح أو التأنيب بعد كل فعل أو قول.

وعذاب الوجدان أو وخز الضمير وتأنيبه ألم معنوي، ينتج عن تصوُّر شرٍّ وقع والإنسان مسؤول عنه، إنه هو الذكرى التي تعضُّ قلب المجرم ولا تفارقه ليل نهار[4].

ويكفي هؤلاء أنهم في حالة الخوف والقلق مستمرين، ولهذا فهم يتحرَّجون من الحديث حول الموضوعات التي ارتكبوا فيها الجرائم والآثام خوفًا من الانكشاف، وصدق الله العظيم إذا قال: ﴿وَلَوْ نَشَاء لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾[5].

وقد عبَّر النبي ﷺ عن عذاب الضمير ووضَّح كيف أنه يؤدي إلى سقم الجسم؛ فقال: «من ساء خُلقه عذَّب نفسه، ومن كثُر همُّه سقم بدنه»[6]، وقال أيضًا «من شقاوة ابن آدم سوء الخُلق»[7].

---

(١) علم الأخلاق الإسلامية: ص٢٨٤.

(٢) رواه مسلم في صحيحه: كتاب الصيام، حديث رقم ١٨٨.

(٣) علم الأخلاق: ص٢٨٥.

(٤) المرجع السابق.

(٥) سورة محمد: الآية (٣٠).

(٦) منتخب كنز العمال: ١/ ٢٥٨.

(٧) المرجع السابق.

الفصل الخامس

خصائص النظام الخُلقي في الإسلام



الفصل الخامس

خصائص النظام الخُلقي في الإسلام

للنظـام الخُلقـي الإسـلامي خصـائص ينفـرد بهـا دون غـيره مـن الأنظمـة الأخلاقية الأخرى.

وإذا أراد الإنسان أن يتفهَّم هـذا النظـام الخلقـي الإسـلامي فعليـه أولاً أن يتخلَّص ممـا حصَّله مـن منـاهج متداولـة؛ حسيَّة كانـت أو روحيـة، وذلـك أن النظام الخُلقي في الإسلام يستقي أصوله من شريعة الله تعـالى؛ الـتي لا تبـديل فيها، ولا تناقض، ولا اختلاف[1].

وإذا كانت أخلاقنا الإسلامية تقوم على شريعة الله تعالى، فهـي بـذلك تتسم بالشمول والعمومية، فهي شاملة لكـل مـا في الحيـاة، كمـا أنهـا عامَّـة لكل الناس في كل زمان ومكان، كما أنها تقوم على المسؤولية، والإقنـاع العقلي والوجداني معًا، كما أنها تحكم على الأعمال ظاهرًا وباطنًـا، وهـي في النهاية تضع الجزاء العادل لكل من الأخيار والأشرار في الدنيا والآخرة[2]. وفي هذا الفصل سنتحدث عن خصائص النظام الخُلقي في الإسلام فيما يلي:

(١) العلم والإيمان في الإسلام: ص٨٣ وما بعدها.

(٢) مبادئ أساسية لفهم القرآن: المودودي، ص٥٧، الأخلاق الإسلامية: حسن الشرقاوي، ص٨٦.

الخصيصة الأولى: ربانية المصدر:

النظام الخُلقي الإسلامي يعتمد على كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ؛ فهو رباني المصدر والهدف والغاية، بعيد عن الرأي البشري والفكر الفلسفي القائم على الأهواء والأغراض(١).

وما دام نظامنا الخُلقي رباني المصدر فهو يتسم بسمة الخلود والصدق والصحة، ولم لا؛ وهو من عند الله؟! ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(٢).

إن النظام الخُلقي القائم على شريعة الله تعالى:

(١)ينشئ أرقى أخلاق عرفتها البشرية على مرِّ التاريخ.

(٢)يقدِّم أشمل منهج للحياة في الحاضر والغابر، في جميع الأمور؛ حيث الرحمة، والصدق، والعدل، والثقة، والإحسان، والتواضع، والحب، والتكافل، والورع، والحياء، والأمانة، والبر.. وغير ذلك(٣).

إن جميع ما يدعو إلى مكارم الأخلاق نجد أنه رباني المصدر، لا يخضع لأهواء البشر، وفي جميع ما ذكرنا نجد الآيات والأحاديث المؤكدة له والدالة عليه.

وإذا كان لنا في رسول الله الأسوة والقدوة فقد لفت القرآن الكريم نظر المسلمين إلى التحلي بالخُلق الكريم؛ حين وصف نبيه ﷺ بقوله:

---

(١) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته: ص٦٧، القيم الخُلقية في الإسلام: ص٣٥.

(٢) سورة الحجر: الآية (٩).

(٣) الإسلام عقيدة وشريعة: الشيخ شلتوت، ص٥٦.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1]، بل قد نبَّه النبي ﷺ على مهمة بعثته وحدَّدها؛ حيث قال: «إنما بُعثت لأتمِّم مكارم الأخلاق»[2].

لقد أُصيب الفكر الإسلامي في هذه الفترة بنوع من الأخلاقيات الفاسدة، القائمة على التقليد الأعمى، والسبب في ذلك بُعد الكثير من الناس عن منهج الشريعة الذي هو أساس الأخلاق الإسلامية، الأمر الذي جعل الصفات السيئة تنتشر كالسرطان؛ فكثُر الغشُّ، والخداع، والكذب، والخيانة، والنفاق، والظلم، والمنكر، وما ذلك إلا لبعدهم عن طريق الله الواضح، والذي لا عِوَج فيه ولا غموض[3]؛ يقول تعالى: ﴿وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ﴾[4].

الخصيصة الثانية: الشمول والعمومية:

النظام الأخلاقي الإسلامي نظام شامل ومتكامل، وهذه الخاصية منبثقة من خاصية «الربانية»، فالإنسان لمَّا كان محدود التفكير، وهو محكوم عليه بضعفه وميله وشهويته.. كان من المستحيل أن يستقي أخلاقه من النُّظم الوضعية؛ لأنها نظم ليست شاملة وليست عالمية، فأما حين يتولى الله ذلك كله؛ فإن التصور العقائدي والمنهج الحياتي للإنسان يجيئان بكل ما يَعْتور الصبغة البشرية من القصور، وهكذا كان الشمول من أهم الخصائص الأخلاقية[5].

---

(١) سورة القلم: الآية (٤).

(٢) منتخب كنز العمال: ١/ ١٣٣.

(٣) أخلاقنا الاجتماعية: مصطفى السباعي، ص١٧٠، الأخلاق الإسلامية: حسن الشرقاوي، ص٢٠.

(٤) سورة الشورى: الآية (١٥).

(٥) الخصائص العامة في الإسلام: للقرضاوي، ص١٦٠.

وتتمثل خاصية الشمول التي تتصف بها الأخلاق الإسلامية بأنها تغطي شؤون الحياة كلها، فهي ذات صلة بالعقيدة والعبادة، ومختلف العلاقات؛ علاقة الفرد بربه، وبنفسه، وبالأشخاص، والأشياء[1].

- فهي تشمل علاقة الفرد بربه؛ الذي خلقه فسوَّاه فعدَلَه؛ من حيث العبودية الخالصة له سبحانه، والإخلاص له.
- وهي تشمل علاقة الفرد بنفسه؛ من حيث ترويضها على فعل الخير، والابتعاد عن الشر، وذلك من منطلق قوله تعالى: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿**بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ**﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ**﴾[4].
- وهي تشمل علاقة الفرد مع الناس؛ في بيته، وأهله، وعمله، في الظاهر والباطن.
- وفي النهاية تمتد لتشمل علاقة الفرد مع المخلوقات الأخرى من غير بني البشر؛ كالحيوانات والطيور ونحوها، فلا يصح تعذيب الحيوان، أو إتلاف النبات، أو تخريب الجماد[5]؛ لأن ذلك كله من الفساد، ﴿**وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ**﴾[6].

---

(١) المرجع السابق، وانظر: النظام الأخلاقي في الإسلام: محمد عقلة، ص٥٩.

(٢) سورة فصلت: الآية (٤٦).

(٣) سورة القيامة: الآية (١٤).

(٤) سورة المدثر: الآية (٣٨).

(٥) ميزان العمل: الغزالي، ص٥٧؛ الأخلاق الإسلامية وأسسها: ١/ ١٥؛ أخلاقنا الاجتماعية: السباعي، ص٢٠٢.

(٦) سورة البقرة: الآية (١٨٥).

وجميع ما ذكرنا نابع من تعاليم الإسلام؛ ولذلك كان الخطاب شاملاً وعامًّا، شاملاً لكل الناس على اختلاف مشاربهم، وعامًّا مع جميع ما خلق الله تعالى، ومن هنا تظهر عظمة الإسلام وعموميته في كل الجوانب؛ ومنها الجانب الأخلاقي.

الخصيصة الثالثة: الكمال:

القرآن الكريم والسنة النبوية هما عماد المنهج الإسلامي، الذي يعدُّ النظام الخُلقي جزءًا منه، وهذا المنهج هو الذي يجب على الإنسان أن يتمسك به في هذه الدنيا؛ لأنه يمتاز بالكمال في جميع شؤون الحياة؛ من عقائد وعبادات ومعاملات وأخلاق، وكل من يريد أن يطلب واحدة منها يجدها في صحف مطهرة، لا تشويه فيها ولا غموض كما نجدها في المناهج البشرية[1].

إن النظام البشري نظام قاصر بقصور عقل أصحابه؛ حيث تتغير النُّظم بتغير الأزمنة والأمكنة والبيئات؛ ولذا كانت كل التشريعات الوضعية تشريعات ناقصة، لم ولن تحقق للإنسان ما يريد، مهما نادت بمبادئ العدل والمساواة[2].

وأما النظام الإسلامي فهو (كما ذكرنا) نظام كامل وتامٌّ لكل شؤون الحياة؛ لأنه من عند الله الحكيم الخبير.

والمؤمن الحق يعرف تمامًا أن المنهج الإسلامي هو المنهج الحق الواجب الاتباع، وأن غيره خطأ مبين، وإن ظهر في صورة الرحمة، إلا أن باطنها العذاب الأليم[3]!

---

(١) الأخلاق الإسلامية: حسن الشرقاوي، ص٩٢.

(٢) المرجع السابق.

(٣) نظرية الإسلام السياسية: المودودي، ص٢٠.

وإذا نظرنا إلى البشرية اليوم وجدناها ما تزال تغيِّر جلودها، وتبدل مع كل صيحة جديدة مناهجها، كم جربت من مناهج ومذاهب وآراء! ثم يتضح عند التطبيق أن ما زعمته وهم واهم، لا يمتُّ إلى الكمال بصِلة، ولا إلى الحقيقة بشيء، فهل تنفع أخلاق الماركسيين؟! هل تنفع أخلاق الرأسماليين؟! والإجابة: لا؛ فهي أخلاق فاسدة في جوانب كثيرة منها[1].

أما المنهج الإسلامي فهو منهج يخاطب كل الناس، وفي كل زمان ومكان، الغني والفقير، والأبيض والأسود، ومن في مشارق الأرض ومن في مغاربها؛ ولذلك كان منهج الله وشريعته أكمل رسالةً وأتمها، وأقوم دينًا، وأرضى لله عقيدةً وحكمًا، وصدق الله العظيم: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾[2].

الخصيصة الرابعة: الصدق:

يُقصد بالصدق هنا: مناسبة الأخلاق الإسلامية للفطرة البشرية، وصلاحيتها لها؛ لتحقق للإنسان السعادة في الدنيا والآخرة[3].

والمنهج الإسلامي الذي يستقي أصوله من الشريعة الغراء صِدْقُه كامل في كل الميادين، فهو من عند الله تعالى؛ ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا﴾[4]؟!

أما الصدق في النُّظم الاجتماعية الوضعية فهو صدق نسبي، يقوم على اجتهادات شخصية، قد تفيد في بعض النواحي، لكنها لا تفيد في كل الميادين كما هو الحال في الفقه الإسلامي، الذي تمَّت فيه كلمة الله

---

(١) السلوك الاجتماعي في الإسلام: حسن أيوب، ص١٦٠.

(٢) سورة المائدة: الآية (٣).

(٣) معالم الثقافة الإسلامية: العليان، ص٣٢، الأخلاق الإسلامية: الشرقاوي، ص٢٨.

(٤) سورة النساء: الآية (٧٨).

تعالى؛ يقول سبحانه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً﴾[1]، ويقول سبحانه: ﴿قُلْ صَدَقَ اللّهُ﴾[2].

وإذا كان الإسلام قد اهتمَّ بالصدق وجعله نبراسًا له؛ فما ذلك إلا ليتحقق العدل وينمو الخلق الكريم بين أفراد الأمة الإسلامية، ويندرس الكذب، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[3].

إن الصدق خصيصة من خصائص النظام الخُلقي الإسلامي، بخلاف النُّظم الوضعية، وهو يتعلق بناحيتين:

*** ناحية عقلية.** *** ناحية أخلاقية.**

فالصدق من الناحية العقلية يعني: العدل، والعدل أساس المعرفة.

والصدق من الناحية الأخلاقية يعني: الحق، والحقيقة في السلوك أو العلم أو العمل أو الموضوع ذاته، وله مقومات ثلاثة[4].

الأول: المُثل العليا:

وذلك عن طريق الاقتداء بالرسول الكريم ﷺ؛ من أجل معرفة الفضائل العظيمة، والتخلق بمكارم الأخلاق، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[5].

---

(١) سورة الأنعام: الآية (١١٥).

(٢) سورة آل عمران: الآية (٩٥).

(٣) سورة الزمر: الآية (٣٣).

(٤) الأخلاق الإسلامية: الشرقاوي، ص١٠٠.

(٥) سورة الأحزاب: الآية (٢١).

الثاني: علم الأسرار:

حيث الإيمان بالغيب، فهو أصل اليقين والإيمان الذي يربط بين الحياة الاعتقادية والسلوك الأخلاقي للإنسان؛ بحيث لا يتشكك الإنسان في أنه مؤمن بالله موقن به؛ ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً﴾[1].

الثالث: البصيرة:

وهو العنصر الثالث من مقوِّمات الصدق، وهي تعتمد على أخلاق الفرد وعمق تأمله في حقائق الكون من ناحية، وعلى الإيمان واليقين بعلم الله من ناحية أخرى[2].

الخصيصة الخامسة: الواقعية والمثالية:

هذه الخصيصة صفة سائدة في الأحكام الإسلامية بعامَّة، وفي الجوانب الخُلقية بخاصَّة، فهي تأخذ بعين الاعتبار واقع هذا الإنسان من حيث تكوينه وقدراته والفوارق القائمة بين الأفراد، وليس في هذه الأخلاق ما يندُّ عن التطبيق لكل الأفراد[3].

أما مثاليتها فتتجلى في دعوتها الإنسان إلى التسامي والعلو.

ومن مظاهر الجمع بين الواقعية والمثالية ما يلي:

أولاً: مراعاة ما هنالك من فروق في القدرة على الالتزام الأخلاقي بين الناس، فليس كل الناس ملتزم على أتمِّ وجه، بل إن هناك فروقًا في هذا الجانب، وهذا ما يجب مراعاته من خلال الواقعية الإسلامية؛ ويعبر عن ذلك

(١) سورة آل عمران: الآية (١٩١).

(٢) الأخلاق الإسلامية: الشرقاوي، ص١٠١.

(٣) النظام الأخلاقي في الإسلام: عقلة، ص٦٠.

قوله تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[1]، ويتحقق هذا المبدأ أيضًا من خلال قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾[2]؛ فالسابق: هو الملتزم بالفروض والسنن، والمقتصد: وسطٌ في ذلك، والظالم لنفسه: مقصِّر في الالتزام[3].

ثانيًا: مراعاة أن الخطأ واقع من كافَّة الناس، وليس هنالك معصوم من الناس، وشأن المؤمن الاستغفار والتوبة على ما فرَّط[4]؛ ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[5].

ثالثًا: تطبيق مبدأيْ العدل والمساواة في مجال العقوبات، والعدل يعني المساواة في الفعل والاعتبار، وبموجبه يحق للمعتدَى عليه أن يقتصَّ من المعتدي؛ تسكينًا لشهوة الانتقام، وهذا تشريع واقعي يراعي الفطرة البشرية وما فيها من دوافع[6].

الخصيصة السادسة: الثبات:

الأخلاق الإسلامية أخلاق لا تعرف التطور، فليس لكل زمان ومكان أخلاقه، إنها أخلاق ثابتة، تستمد ثباتها من كونها قِيمًا وأحكامًا شرعية[7].

---

(١) سورة التغابن: الآية (١٦).

(٢) سورة فاطر: الآية (٣٢).

(٣) الخصائص العامة للإسلام: القرضاوي، ص١٦٣.

(٤) المرجع السابق.

(٥) سورة آل عمران: الآية (١٣٥).

(٦) الإسلام عقيدة وشريعة: ص٥.

(٧) القيم الخُلقية في الإسلام: ص١٦.

الخصيصة السابعة: مراعاة التدرج:

والتدرج يعني أن الأحكام لم تنزل دفعة واحدة، بل نزلت منجّمة بحسب الوقائع والأحوال.. إن مراعاة تقديم الأهم على المهم، والسهولة واليسر، واجتناب الأفحش، هو أهم ما يميز الأخلاق الإسلامية، فهي لا تطلب من الناس العمل بما لا يُطاق ولا بالمستحيل[١].

الخصيصة الثامنة: الرقابة الدينية:

والرقابة في الأخلاق الإسلامية لها مدلولها المستقل والمختلف عن الرقابة في مصادر الأخلاق الأخرى؛ حيث تكون رقابة خارجية من الغير، تتمثل في رقابة السلطة والأفراد، أما الرقابة في الإسلام فهي رقابة ذاتية أولاً، نابعة من يقظة الضمير المسلم[٢]، فإذا كان المسلم يعلم أن الله معه فإنه لا يحتاج إلى رقابة الغير، يقول تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾[٣]،

ويقول سبحانه: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾[٤].

---

(١) المرجع السابق.

(٢) نظام الحكومة النبوية: عبد الحي الكناني، ص٤٦٥.

(٣) سورة الحديد: الآية (٤).

(٤) سورة النساء: الآية (١).

الفصل السادس

نماذج تطبيقية
في المجال الخُلقي الإسلامي

الفصل السادس

نماذج تطبيقية هامّة
من أخلاقنا الإسلامية

تمهيد:

لم تصل الشخصية المتكاملة إلى ما وصلت إليه إلا بوجود قدوة ربَّتْها ونشَّئتها في حركاتها وسكناتها.

والإنسان في كل زمان ومكان يبحث عن النموذج المثالي الذي يودُّ أن يتشبه به في أخلاقه وسلوكه وعمله، ولا شك أن أعظم شخصية على الإطلاق هي شخصية الرسول الكريم ﷺ، فلم يأت الزمان بمثله قدوة، لقد أدَّبه ربه فأحسن تأديبه، وربَّاه تربية ربانية؛ ليكون للعالمين نبيًّا ورسولاً.

إن الاقتداء بشخصية محمد ﷺ؛ وقد كان خُلقه القرآن الكريم[1].. لهو الطريق الموصل إلى التربية الخُلقية السليمة، فهو السراج المنير الذي يشرق به قلب كل مسلم.

إن في السير على منهج الرسول الكريم ﷺ قولاً وعملاً لهو الطريق الموصل إلى السعادة في الدنيا والآخرة.

لقد سار الصحابة الكرام ﷺ على هديه، واتبعوا سنته، وطبَّقوا تعاليمه دون أن يخرجوا عنها قيد أنملة، حتى صاروا قدوة يشار إليهم بالبنان.

(١) هذه أخلاقنا: الخازندار، ص٦.

إن التربية بالقدوة الحسنة والأخلاق الفاضلة؛ ممثلة في شخصية الرسول ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم.. لهي السبيل المشرق للناس كافَّة في كل زمان ومكان، وإنَّ ترك الاقتداء بهم لهو الطريق المسدود الذي يصطدم به الناس؛ لا سيَّما الشباب التعس الضائع[1]!

إننا في هذا الفصل سنذكر نماذج لبعض الأخلاق الإسلامية من واقع السيرة النبوية؛ ممثلة في شخصية رسولنا الكريم، وصحبه الميامين ﷺ.

وأهم هذه النماذج التي نتعرض لها:

(١) التحبُّب إلى الناس.

(٢) الأمانة.

(٣) بر الوالدين.

(٤) الصدق.

(٥) الصبر.

(٦) الرحمة.

(٧) الحثُّ على التواضع والنهي عن الكبر.

(٨) النهي عن الغيبة والنميمة.

---

(١) المرجع السابق.

المبحث الأول

التحبب إلى الناس

لا يكمل إيمان المؤمن حقَّ الكمال حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه، فهو ينصح له، ويكفُّ أذاه عنه، ويعلّمه ما يجهل، ويعينه عليه بالقول والعمل، ويشفق عليه ويرحمه، ويميط الأذى عن طريقه... إلخ.

إن المجتمع الإسلامي قائم على أسس ثابتة من الألفة والمحبة، والأخوة، والإيثار على النفس؛ الذي يعتبر قمة حبِّ الخير.

إن الخصال السابقة إذا ما توفرت في شخصية المسلم لَتحقَّق رضى الله ﷻ عنه، ولجعل الناس يقبلون عليه، ويتعلقون به، ويسيرون على هديه القائم على الهدي النبوي، وما إقبال الناس على مثل هذه الشخصية إلا لتخلُّقها بمجموعة الصفات الحميدة الودودة، وهذا هو معنى التحبُّب والتقرب إلى الناس في أسمى صوره[1].

لقد كان النبي ﷺ الأسوة والقدوة في كل أمور الحياة، وهذا الذي جعل الناس يتحببون إليه ويتعلقون به؛ ولهذا ورد في الأثر أنه ﷺ «من رآه بديهةً هابه، ومن خالطه معرفةً أحبَّه»[2].

إن علاقة المحبة للناس علاقة وثيقة أساسها العقيدة؛ ولهذا يقول رب العزة سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[3]، فكل من وُصف بالأخوة

(١) هذه أخلاقنا: الخازندار، ص٩٥.

(٢) رواه الترمذي: كتاب المناقب، حديث رقم ٣٧١٨، وقال عنه: ليس إسناده بمتصل.

(٣) سورة الحجرات: الآية (١٠).

يستحق منك التحبُّب إليه، وكل من يعاملك بهذا الحبِّ الإيماني يستوجب عليك حقوق الأخوة الإسلامية.

الوسائل والأسباب الموصلة للتحبب إلى الناس:

لأهمية المحبة بين الناس، ولما يترتب عليها من الألفة والتعاون بينهم؛ وضع النبي ﷺ الوسائل التي توصل إليها، ولعل أهمها ما يلي:

(١)أن يكون هذا الحب خالصًا لله وفي الله؛ فحبُّك في الله هو الذي يجعلك تحرص على حب الناس لك وحبك لهم، إن الرباط الذي يقوم بين المسلمين ليس رباط دم أو قومية أو عصبية، وإنما هو رباط الإيمان بالله، وذلك عن طريق نصرة دينه، ومحبة أوليائه ونصرتهم[١].

إذا تمَّت المحبة بهذه الصورة التي ذكرناها دلَّ ذلك على كمال الإيمان؛ ولهذا وردت الأدلة تؤكد ذلك منها:

- ما رُوي عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان...»، ومنها: «أن يحبَّ المرء لا يحبُّه إلا الله»[٢].
- ما رُوي عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله...»، ومنهم: «رجلان تحابَّا في الله؛ اجتمعا عليه، وتفرَّقا عليه»[٣].

---

(١) معالم الثقافة الإسلامية: ص٩٩.

(٢) صحيح البخاري: كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، حديث رقم ١٦، صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان خصالٍ من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، رقم ٤٣.

(٣) متفق عليه، انظر: الترغيب واالترهيب، ٢/ ٦٤.

- ما رُوي عن أبي أمامة الباهلي ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «من أحبَّ لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله.. فقد استكمل الإيمان»[1].

(٢) الصلة الوثيقة بين الإيمان وخُلق المحبة؛ وهذه الوسيلة جعلت التحبب إلى الناس منبثق عن إيمان كامل بالله تعالى، وقد تضافرت نصوص كثيرة تربط بين الإيمان والمحبة للناس؛ ومن ذلك قوله ﷺ: «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أو لا أدلُّكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»[2].

(٣) الزهد في الدنيا، وفيما عند الناس؛ وهي من الوسائل الناجحة في حب الله تعالى للإنسان، وحب الناس له، ومعنى الزهد في الدنيا أن ينصرف الإنسان عن كل ما ينسيه ذكر الله وشكره، ومعنى الزهد فيما عند الناس التعفُّف والصبر والقناعة.

ومما يدل على شرف الزهد وفضله، وكونه سببًا لمحبة الله لعبده، ولمحبة الناس له.. قوله ﷺ: «ازهد في الدنيا يحبُّك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبُّك الناس»[3].

(٤) المجالسة والصحبة هي وسيلة من وسائل التحبُّب إلى الناس، فحسن المجالسة من دواعي الحب، وتتمثل المجالسة الحسنة في الجلوس بهدوء وسكينة ووقار، فلا تكون هناك ضوضاء تشوِّش على

---

(١) رواه أبو داود، وسنده صحيح، انظر: صحيح سنن أبي داود، رقم ١٩١٥، الترغيب والترهيب: ٤/ ٨٧.

(٢) رواه مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجة، انظر: الترغيب والترهيب، ٣/ ٣٧١.

(٣) رواه ابن ماجة في سننه، وهو صحيح، انظر: سنن ابن ماجة، للألباني، حديث رقم ٢٣١٢، الترغيب والترهيب: ٤/ ١٥٢.

الحاضرين مجالسهم، وقد أمرنا الإسلام بمجالسة الصالحين وصحبتهم[1]؛ يقول تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾[2]، وعن أبي موسى الأشعري ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير؛ فحامل المسك: إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكير: إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحًا خبيثة»[3]؛ وعن أبي سعيد الخدري ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «لا تصاحب إلا مؤمنًا، ولا يأكل طعامك إلا تقيٌّ»[4].

(٥) بسط الوجه وطيب العشرة: وهي من المفاتيح السهلة للقلوب، المحبَّبة للناس، فاستقبال الناس بالبشاشة والتبسُّم من أسمى الوسائل للمحبة[5]؛ ولذلك كان النبي ﷺ متبسمًا دائمًا، يقول عنه بعض الصحابة: «ما رأيت أحدًا أكثر تبسُّمًا من رسول الله ﷺ»[6]؛

---

(١) هذه أخلاقنا: ص٩٧.

(٢) سورة الكهف: الآية (٢٨).

(٣) صحيح البخاري: كتاب البيوع، باب في العطاء وبيع المسك، حديث رقم ٢١٠١، صحيح مسلم: كتاب البرِّ والصلة، باب استحباب مجالسة الصالحين، رقم ٢٦٢٨.

(٤) سنن أبي داود: كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، حديث رقم ٤٨٣٢، سنن الترمذي: كتاب الزهد، باب صحبة المؤمن، حديث رقم ٢٣٩٧، وقال: حديث حسن.

(٥) هذه أخلاقنا: ص٩٨.

(٦) رواه الترمذي في سننه: كتاب المناقب، حديث ٢٨٨٠، وقال عنه الألباني: صحيح.

(٦) الصلة الوثيقة بالضِّعاف والمساكين والتقرب إليهم؛ فمن علامات التحبب إلى الناس الصِّلة بالضعاف من الناس والمساكين، وهذا ما كان يفعله الرسول الكريم ﷺ معهم، فنراه مثلاً يلاعب الأطفال ويلاطفهم ويمازحهم! وكان يمرُّ عليهم فيسلِّم عليهم، وفي الحديث: «كان يمرُّ بالصبيان فيسلِّم عليهم».

وكان ﷺ يفعل ذلك مع أصحابه، وفي الحديث: «كان ﷺ إذا لقيه أحد من الصحابة فقام معه، فلم ينصرف حتى يكون الرجل هو الذي ينصرف عنه! وإذا لقيه أحد من أصحابه فتناول يده ناوله إياها، فلم ينزع يده منها حتى يكون الرجل هو الذي ينزع يده منه! وإذا لقي أحدًا من أصحابه فتناول أذنه ناوله إياها، ثم لم ينزعها حتى يكون الرجل هو الذي ينزعها عنه!»[١].

وكان من فرط حبه للصحابة -خاصَّة ضعاف المسلمين- أن يعودهم، ويشهد جنائزهم، وفي الحديث: «كان ﷺ يأتي ضِعاف المسلمين، ويزورهم، ويعود مرضاهم، ويشهد جنائزهم»[٢].

إن في سيرة الرسول ﷺ صورًا كثيرة تدلُّ على مزيد حرص رسول الله ﷺ على التحبُّب إلى الناس[٣]، وهذا ما جعل عمرو بن العاص رضي الله عنه يقول: «لقدر رأيتني وما أحد أشدَّ بغضًا لرسول الله منِّي، ولا أحبَّ إليَّ أن أكون

(١) صحيح الجامع الصغير: للألباني، وقال: حسن، حديث رقم ٤٧٨٠.

(٢) صحيح الجامع الصغير: للألباني، وقال: صحيح، حديث رقم ٤٨٧٧.

(٣) هذه أخلاقنا: الخازندار، ص٩٨.

استمكنت منه فقتلته»[1]! وبعد أن جالس النبي ﷺ ورأى فيه ما رأى؛ انقلب الأمر إلى الحبِّ، وما ذلك إلا لما رآه من النبي من تحببه إلى الناس، وها هو عمرو يكمل القصة فيقول: «وما كان أحدٌ أحبَّ إليَّ من رسول الله ﷺ، ولا أجلَّ في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ منه عيني إجلالاً منه، ولو سُئلت أن أصفَه ما أطقت؛ لأني لم أكن أملأ عيني منه»[2]!

وفي النهاية نقول: احرص على حبِّ الله لك يفتح لك قلوب الناس، وتخلَّق بما يدعو إلى التحبب، فهذا هو أصل الأمر ومِلاكه، فإذا فعلت ذلك كانت جائزة الرحمن لك ما ورد في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا**﴾[3]، وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابُّون بجلالي؟ اليوم أظلُّهم في ظلِّي، يوم لا ظلَّ إلا ظلِّي»[4]، وعن معاذ بن جبل ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تبارك وتعالى: وجبت محبتي للمتحابِّين فيَّ، والمتجالسين فيَّ، والمتزاورين فيَّ، والمتباذلين فيَّ»[5].

إن الذي يكون قادرًا على فتح قلوب العباد بالوسائل التي ذكرناها، لَتفتح له البلاد، ولَيحبه من في السماوات والأرضين، فاحرص على التحبب إلى العباد تكن أعبد الناس، وإياك أن يكون ذلك أساسه النفاق والمداهنة.

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، حديث ٩٢.

(٢) المرجع السابق.

(٣) سورة مريم: الآية (٩٦).

(٤) صحيح الجامع: حديث رقم ٤٣٢١.

(٥) صحيح الجامع: حديث رقم ٤٣٢٢.

المبحث الثاني

الأمـــانة

الأمانة خُلق من أخلاق المسلم الأصيلة، التي تنبع من عقيدته، وتدل على شرف غايته، وصدق اتجاهه[1].

والأمانة صفة جامعة للفضائل بكاملها، بل الإسلام باعتقاداته وأصوله وفروعه؛ ولذلك يقول القرطبي عنها بأنها: «صفة تعمُّ وظائف الدين على الصحيح من الأقوال»[2]؛ وعلى هذا فالإنسان مأمور أن يؤديها على وجهها الصحيح؛ سواء كانت من حقوق الله تعالى بتأدية ما على المرء من فرائض وواجبات، أم من حقوق العباد كالودائع وغيرها، فلا يطمع في وديعة اؤتمن عليها؛ ولهذا كانت الأمانة من لوازم الدين المتين، وكانت الخيانة من علامات الجحود والكفران[3]؛ وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك»[4].

لقد تحدَّث القرآن الكريم عن الأمانة وفضلها في أكثر من موضع؛ حاثًّا على رعايتها وصيانتها؛ ومن ذلك:

---

(١) الأخلاق في الإسلام: خالد القضاة، ص١٢١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي، ٢/ ١٤، فتح القدير: للشوكاني، ٤/ ٣١٠.

(٣) القيم الخُلقية في الإسلام: البقري، ص٨٤، موسوعة أخلاق القرآن: أحمد الشرباصي، ٢/ ٧٣، أصول المنهج الإسلامي: عبد الرحمن العبيد، ص٣٣٩.

(٤) سنن الترمذي: رقم ١١٨٥، سنن أبي داود: رقم ٣٠١٩.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾[1]، وفي تفسيرها يقول القرطبي: «والأمانة والعهد: يجمع كل ما يحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه؛ قولاً وفعلاً»[2].

- قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾[3]، وهذا وصف من الله تعالى وصف به عباده المؤمنين، فقد وصفهم بأنهم إذا ائتمنوا لم يخونوا الأمانة، بل أدُّوها إلى أهلها مهما كانت الأمانة.
- قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾[4]، وهذه آية جامعة في وجوب ردِّ الأمانة إلى أهلها، وقد نزلت لمَّا أخذ علي بن أبي طالب ﷺ مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة سَادِنها قهرًا، لما فتح الرسول ﷺ مكة؛ فأمره ﷺ بردِّه إليه[5].
- قوله تعالى في وصف جبريل عليه السلام: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ﴾[6]، وقوله تعالى في وصف مكة: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾[7].
- قوله تعالى على لسان ابنة شعيب عليه السلام في وصف موسى عليه السلام:

(١) سورة الأحزاب: الآية (٧٢).

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٢/ ٧٣.

(٣) سورة المؤمنون: الآية (٨)، سورة المعارج: الآية (٣٢).

(٤) سورة النساء: الآية (٥٨).

(٥) تفسير الفخر الرازي: ٣/ ٢٥٢، أسباب النزول: النيسابوري، ص١٣٤.

(٦) سورة الشعراء: الآية (١٩٣).

(٧) سورة التين: الآية (٣).

﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾[1]، وفي أمانة يوسف عليه السلام ورد قوله تعالى على لسان الوزير: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾[2].

وغير ذلك من الآيات التي تتحدث عن الأمانة وفضلها، والتي وردت في كتاب الله أكثر من (٤٠) مرة.

وفي سنّة النبي ﷺ غير حديث ورد في الأمانة وحكمها وفضلها، وأنها من أخلاق المسلم، وأن الخيانة من صفات المنافقين الظالمين، وهذه جملة من الأحاديث في ذلك:

- ما رُوي عن ابن عمر (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله ﷺ: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا صلاة له، وموضع الصلاة من الدين كموضع الرأس من الجسد»[3].
- ما رُوي عن ابن عمر (رضي الله عنهما) أن رسول الله ﷺ قال: «أربع إذا كنَّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا؛ حفظ أمانة، وصدق حديث، وحسن خليقة، وعفة في طعمة»[4].

---

(١) سورة القصص: الآية (٢٦).

(٢) سورة يوسف: الآية (٥٤).

(٣) رواه أحمد في مسنده: ٣/ ١٥٤، وصححه الألباني في صحيح الجامع: رقم ٧١٧٩.

(٤) رواه أحمد والبيهقي والطبراني وابن أبي الدنيا بأسانيد حسنة، انظر: الترغيب والترهيب، للمنذري، ٤/ ٥٢، ٥٣.

- ما رُوي عن أبي هريرة ﷺ، عن رسول الله ﷺ قال لمن حوله: «اكفلوا لي ستًّا أكفل لكم الجنة»، قلت: ما هُنَّ يا رسول الله؟ قال: «الصلاة، والزكاة، والأمانة، والفرج، والبطن، واللسان»[1].
- ما رُوي عن عبادة بن الصامت ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «اضمنوا لي ستًّا أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدَّثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدُّوا إذا اؤتمنتم، وغضُّوا أبصاركم، واحفظوا فروجكم، وكفُّوا أيديكم»[2].

وإذا كان النبي ﷺ أوصانا بالأمانة وحبَّبها إلينا؛ فقد حذَّرنا من أنها أول ما يضيع من أمور الدين؛ يقول ﷺ: «أول ما تفقدون من دينكم الأمانة»[3]، وعن حذيفة ﷺ قال: حدثنا رسول الله ﷺ عن رفع الأمانة فقال: «ينام الرجل فتُقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل الوكت[4]، ثم ينام الرجل فتُقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها من أثر المجل[5] كجمر دحرجته على رجلك؛ فنفط، فتراه منتبرًا[6]، فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط بإسناد لا بأس به، انظر: الترغيب والترهيب، ٤/ ٧٥.

(٢) رواه ابن أبي شيبة وأبي يعلى والحاكم والبيهقي، ورواته ثقات، إلا سعد بن سنان، انظر: مجمع الزوائد، ١/ ٣٠٢، الترغيب والترهيب: ٤/ ٥١.

(٣) كنز العمال: ٣/ ٦٦.

(٤) الوكت: بسكون الكاف: أثر النار، انظر: شرح النووي، ٢/ ١٦٨.

(٥) المجل: أثر العمل في الكفِّ؛ بحيث تصير اليد كالقبة فيها ماء كثير، انظر: شرح النووي، ٢/ ١٦٩.

(٦) المنتبر: انتبر الجُرح؛ إذا ورم وامتلأ ماءً، انظر: شرح النووي، ٢/ ١٦٩.

أحد يؤدي الأمانة، حتى يقال: إن في بني فلان رجلاً أمينًا، حتى يقال للرجل: ما أظرفه! ما أعقله! وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان!»[1].

وقد حذَّرنا النبي ﷺ من الغدر والخيانة؛ وفي ذلك يقول: «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواء يعرف به، يقال: هذه غدرة فلان بن فلان»[2]، وجعلها من صفات المنافقين فقال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»[3]، وقد استعاذ النبي ﷺ من أمور؛ منها الخيانة، فقال: «اللهم إني أعوذ بك من الجوع؛ فإنه بئس الضجيع! وأعوذ بك من الخيانة؛ فإنها بئست البطانة!»[4].

مجالات الأمانة:

بعض الناس يقصر الأمانة في أضيق معانيها؛ وهو حفظ الودائع وردُّها لأصحابها، مع أن حقيقتها في الإسلام أوسع؛ بحيث تتناول جميع العلاقات القائمة بين الناس، ويمكن إجمال مجالات الأمانة في الأمور التالية:

(١) إخلاص العبادة لله تعالى أمانة؛ يقول تعالى: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً**﴾[5]، وتفسير الأمانة هنا معناه: الفرائض، فعلى المسلم أن يخلص عبادته لله تعالى.

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب رفع الأمانة والإيمان من قلوب بعض الناس، حديث رقم ٢٣٠.

(٢) صحيح مسلم: كتاب الجهاد، باب تحريم الغدر، ٣/ ١٣٥٩.

(٣) الحديث متفق عليه عن أبي هريرة، انظر: الترغيب والترهيب، ٤/ ٧٨.

(٤) رواه أبو داود والنسائي وابن ماجة، انظر: الترغيب والترهيب، ٤/ ٧٩.

(٥) سورة الأحزاب: الآية (٧٢).

(٢) حفظ أسرار الناس، وستر عوراتهم، وكتمان أحاديثهم من الأمانة؛ وفي ذلك يقول النبي ﷺ: «من سمع من رجل حديثًا لا يشتهي أن يُذكر عنه، فهو أمانة، وإن لم يستكتمه»[١]، وكلُّ ما يدور في المجالس أمانات يجب سترها وعدم إفشائها، حتى ما يحدث بين الزوجين من أمور خاصَّة فهو أمانة، ليس لأحدهما إفشاؤه[٢]، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: «إن من أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه؛ ثم ينشر سرهما»[٣].

(٣) النصح والمشورة للغير؛ وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: «المستشار مؤتمن»[٤].

(٤) ردُّ ودائع الناس من الأمانة؛ يقول رسول الله ﷺ: «لن تزال أمتي على الفطرة ما لم يتخذوا الأمانة مغنمًا، والزكاة مغرمًا»[٥].

(٥) إسناد الحكم إلى أهله ووضع الرجل المناسب في المكان المناسب من الأمانة؛ ولذا حذَّر النبي ﷺ أن يتولى العمل إنسان وهناك من هو أفضل منه وأقدر[٦]؛ يقول: «من استعمل رجلاً على عصابة وفيهم

---

(١) مسند أحمد: ٦/ ٤٥٧.

(٢) الأخلاق الإسلامية وأسسها: ١/ ٦٦٤، أصول المنهج الإسلامي: ص٣٤٣.

(٣) صحيح مسلم: كتاب النكاح، باب تحريم إفشاء سر المرأة، ٢/ ١٠٦٠.

(٤) رواه البخاري في الأدب المفرد: ١/ ٣٥٦، وابن ماجة في سننه: ٢/ ١٢٣٣، والترمذي في سننه: ٥/ ١٣٥، وقال: حديث حسن.

(٥) كنز العمال: ٣/ ٦٦.

(٦) الأخلاق في الإسلام: خالد القضاة، ص١٢٦.

مـن هـو أرضـى لله منـه؛ فقـد خـان الله ورسـوله والمـؤمنين»[1]، وفي حديث آخر يقول ﷺ: «من ولي من أمـر المسلمين شيئًا فـأمَّر عليهم أحـدًا محابـاةً؛ فعليـه لعنـة الله، لا يقبـل الله منـه صـرفًا ولا عـدلاً، حتى يدخلـه جهنم»[2]، وفي حـديث الأعرابـي السـائل: متـى السـاعة؟ فيقول رسـول الله ﷺ مجيبًا: «إذا ضُيِّعت الأمانـة فـانتظر السـاعة»، قـال: كيـف إضـاعتها؟ فقـال ﷺ: «إذا وُسِّـد الأمـر إلى غـير أهلـه فانتظر السـاعة»[3].

(٦) رعاية الأسـرة أمانة؛ فالزوجة والأولاد أمانـة في عنـق الأب، فإنـه المسـؤول عـن الإنفـاق علـيهم وتـربيتهم، وهـو المسـؤول عـن اسـتقامتهم وإدخـال السعادة إلى قلوبهم؛ «فالرجل راعٍ في بيته، وهو مسؤول عن رعيته»[4].

هـذه بعـض المجـالات التطبيقيـة للأمانـة، وهنـاك الكـثير في النـواحي الأخرى؛ كالأمانة في العلم والقضاء والشهادة.. وغير ذلك.

---

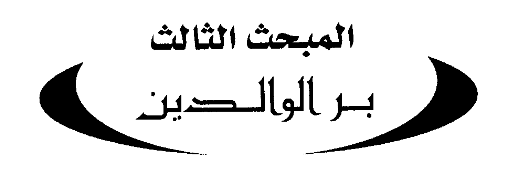
(١) رواه الحاكم في المستدرك وصححه، انظر: الترغيب والترهيب، ٤/ ٧٩.

(٢) انظر: الترغيب والترهيب، ٤/ ٧٩.

(٣) فتح الباري: ١/ ١٤٢، التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول: ٥/ ٢٢٩.

(٤) رواه الترمذي: ٢/ ١١٨.

المبحث الثالث



البرُّ هو فعل الخير والصلة والإحسان، ويُعتبر برُّ الوالدين أوجب الواجبات التي أمر الإسلام بها[1].

والإسلام في منهجه جاء بالأوامر الصريحة التي تُلزِم المؤمن ببرِّ والديه وطاعتهما، ما لم يُأمر بمعصية[2]، والأدلة على ذلك ثابتة في كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ:

أما الكتاب:

(١) قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[3]، وقد جاء الإحسان إلى الوالديْن مقرونًا بعبادة الله وحده.

(٢) قوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۞ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾[4].

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر: ١/ ١١٦.

(٢) البر والصلة: ابن الجوزي، ص٥، أصول المنهج الإسلامي: ص٤٢١.

(٣) سورة النساء: الآية (٣٦).

(٤) سورة الإسراء: الآيتان (٢٣، ٢٤).

(٣) قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[١].

وغير ذلك من الآيات[٢] التي تبيِّن منزلة الوالدين وفضلهما، وبالتالي برَّهما ووجوب طاعتهما، يقول القرطبي (رحمه الله) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾: «برهما وحفظهما وصيانتهما وامتثال أمرهما»[٣].

وأما السنة:

حفلت السنَّة المطهرة بأحاديث كثيرة تؤكد أهمية برِّ الوالدين ووجوب طاعتهما، والنهي عن عقوقهما؛ ومن هذه الأحاديث ما يلي:

(١) ما رُوي عن ابن مسعود ﷺ أن رجلاً سأل النبي ﷺ: أي الأعمال أفضل؟ قال: «الصلاة لوقتها، وبرُّ الوالدين، ثم الجهاد في سبيل الله»[٤].

(٢) ما روي عن أبي هريرة ﷺ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمُّك»، قال: ثم من؟ قال: «أمُّك»، قال: ثم من؟ قال: «أمُّك»، قال ثم من؟ قال «أبوك»[٥].

(٣) ما رُوي عن أسماء بنت أبي بكر -رضي الله عنهما- قالت: قدمتْ عليَّ أمي وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ، فاستفتيت

---

(١) سورة لقمان: الآيتان (١٤، ١٥).

(٢) انظر: سورة العنكبوت: الآية (٨)، وسورة الأحقاف: الآيات (١٥ -١٨).

(٣) الجامع لأحكام القرآن: للقرطبي، ٣/ ١٩٨.

(٤) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: كتاب التوحيد، حديث رقم ٧٥٣٤.

(٥) صحيح البخاري: كتاب الأدب، باب من أحق الناس بحسن الصحبة، ١٠/ ٤٠٢، وصحيح مسلم: كتاب البر، باب بر الوالدين، حديث رقم ٢٥٤٨.

رسول الله ﷺ، قلت: إن أمي قدمت وهي راغبة؛ أَفَأَصِلُ أمي؟ قال: «نعم، صِلِي أمَّك»[1].

(٤) ما رُوي عن ابن عمر رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يستأذنه للجهاد، فقال: «أحيٌّ والداك؟»، قال: نعم، قال: «ففيهما فجاهد»[2].

(٥) ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «رغم أنف[3]! ثم رغم أنف!»، قيل: من يا رسول الله؟! قال: «من أدرك أبويه عند الكبر؛ أحدهما أو كليهما.. فلم يدخل الجنة»[4].

والذي يفهم من الأحاديث التي سقناها في بيان برِّ الوالدين أن ذلك واجب، وأن مخالفة الوالدين في الأمر والنهي؛ وهو ما يُعرف بالعقوق.. حرام قطعًا؛ وذلك بالإساءة إليهما، وتضييع حقوقهما، والإيذاء بالقول أو الفعل أو غيرهما، ومخالفتها فيما يأمران به من المباحات، وقد وردت أحاديث كثيرة تحرِّم عقوق الوالدين، وتعتبره صنو الإشراك بالله سبحانه، ومنها:

(١) عن عبد الرحمن بن أبي بكر، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟»، قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين»[5]... الحديث.

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري: كتاب الهبة، باب الهدية للمشركين، حديث رقم ٢٦٢٠.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي: ٤/ ١٩٧٥، حديث رقم: ٢٥٤٩.

(٣) معنى «رغم أنفه»، أي تمرَّغ بالرغام؛ وهو التراب.

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي: ٤/ ١٩٧٧، رقم ٢٥٥١.

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي: ١/ ٩٢.

(٢) ما رُوي عن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه»، قيل: يا رسول الله، وكيف يلعن الرجل والديه؟! قال: «يسبُّ الرجلُ أبا الرجل؛ فيسبَّ أباه، ويسبُّ أمَّه، فيسبَّ أمَّه»[1].

وهذا واضح في أن التسبب في لعن الوالدين من أكبر الكبائر، والتصريح بلعنهما أشدُّ، وفيه دلالة على عظم حق الوالدين.

وصور برِّ الوالدين كثيرة؛ في حياتهما وبعد الممات:

أما صور برِّهما في الحياة فتتمثل في أمور؛ ومنها:

(١) المعاملة بالحسنى، واللطف في القول، والسرور والبشاشة عند اللقاء.

(٢) الرفق بهما، والدعاء لهما، وعدم التعالي عليهما.

(٣) طاعتهما بالمعروف في كل ما يأمران به، ما دام ليس فيه عصيان لله تعالى.

(٤) استئذانهما في الخروج إلى الجهاد، فإن أَذِنا، وإلا فلا.

(٥) الإنفاق عليهما حتى لو كانا غنيين، فالنفقة عليهما واجبة.

ومن صور برِّهما بعد الممات:

(١) الاستغفار لهما، والصلاة عليهما، وإنفاذ عهدهما؛ فعن أبي أسيد مالك بن ربيعة الساعدي رضي الله عنه قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من بني سلمة، فقال: يا رسول الله، هل بقي من برِّ أبوي شيء أبرُّهما بعد موتهما؟ قال: «نعم؛ الصلاة عليهما،

(١) فتح الباري: ١٠/ ٤٠٢، باب سب الرجل والديه.

والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التي لا تُوصَل إلا بهما، وإكرام صديقهما»[1].

(٢) صلة رحمهما بعد موتهما: يدل لذلك الحديث السابق، وما روي عن ابن عمر (رضي الله عنهما) قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن من أبرِّ البرِّ صِلةَ الرجل أهلَّ وُدِّ أبيه بعد أن يولي»[2].

(٣) الصدقة عنهما؛ يدل على ذلك ما روته عائشة (رضي الله عنها) أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن أمي افتُلتت نفسها ولم توص، وأظنها لو تكلمت تصدَّقت؛ أَفَلَها أجرٌ إن تصدقتُ عنها؟ قال: «نعم»[3].

(٤) الحج عنهما؛ فقد روى بريدة بن الحصيب قال: بينما أن جالس عند رسول الله ﷺ إذ أتته امرأة، فقالت: إني تصدقت على أمي بجارية، وإنها ماتت، فقال: «وجب أجرُك، وردَّها عليك الميراثُ»، قالت: يا رسول الله، إنها كان عليها صوم شهر، أَفَأَصوم عنها؟ قال: «صومي عنها»[4].

وغير ذلك من أنواع البر والصلة للوالدين في حياتها وبعد الممات.

الآثار المترتبة على برِّ الوالدين:

يترتب على برِّ الوالدين في الحياة وبعد الممات آثار كثيرة منها:

(١) البركة وطول العمر والزيادة في الرزق، فبرُّ الوالدين يؤدي إلى هذه الخصال؛ يدل على ذلك حديث أنس بن مالك ﷺ قال: سمعت رسول

---

(١) سنن أبي داود: كتاب الأدب، باب البر والصلة، حديث رقم ٥١٤٢.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي: ٤/ ١٩٧٩، حديث رقم ٢٥٥١.

(٣) جامع الأصول: لابن الأثير، ١/ ٤٠٤.

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي: ٢/ ٦٧١.

الله ﷺ يقول: «من سرَّه أن يُبسط له في رزقه، ويُنسأ له في عمره، فليصل رحمه»[1]، والوالدان أعلى درجات الرحم؛ فلابد من برِّهما.

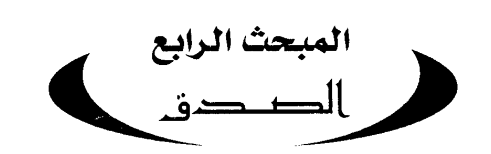
(٢) تفريج الكرب، وإجابة الدعاء، والنجاة وقت الشدة؛ يدل على ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما ثلاثة يتماشون أخذهم المطر، فمالوا إلى غار في الجبل، فانحطَّت على فم غارهم صخرة من الجبل، فأطبقت عليهم، فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالاً عملتموها لله عز وجل صالحة، فادعوا الله بها؛ لعله يفرجها، فقال أحدهم: اللهم إنه كان لي والدان شيخان كبيران، ولي صبية صغار، وكنت أرعى، فإذا رحت عليهم فحلبت لهم، بدأت بوالدي؛ أسقيهما قبل ولدي، وإنه ناء بي الشجر، فما أتيت حتى أمسيت، فوجدتهما قد ناما، فحلبت كما كنت أحلب، فجئت بالحلاب، فقمت عند رؤوسهما، أكره أن أوقظهما من نومهما، وأكره أن أبدأ بالصبية قبلهما، والصبية يتضاغون[2] عند قدمي، فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتى طلع الفجر! فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا فرجة نرى منها السماء؛ ففرَّج الله عز وجل لهم فرجة حتى رأوا منها السماء»[3]... الحديث.

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الأدب، باب من يُبسط له في الرزق، حديث رقم ٥٩٨٦.

(٢) يتصايحون ويبكون.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي: كتاب الذكر، باب فضل أصحاب الغار الثلاثة، ٤/ ٢٠٩٨، وانظر: الترغيب والترهيب، ٣/ ٢٥٣.



المبحث الرابع

الصدق

الصدق من الأخلاق الأساسية للإنسان المسلم، وهو يكون في ثلاثة أشياء لا يتم إلا بها: صدق القلب بالإيمان، وصدق النية في الأعمال، وصدق اللفظ في الكلام[1]، إذا ما تحققت هذه الأشياء الثلاثة اكتسب الإنسان الخُلق الحسن والصفات الحميدة، وترتبت على الصدق آثاره الحميدة؛ من معاملة حسنة، ومن صدق في القول والعمل، ومن بُعد عن الكذب والنفاق وغيرهما من الصفات الذميمة[2].

وعلى هذا يعرف الصدق بأنه: الإخبار بما يعتقد أنه الحق؛ سواء كان ذلك بالكلام، أو الكتابة، أو الإشارة، أو العمل[3].

منزلة الصدق في القرآن والسنة:

حثَّ الإسلام على الصدق، وبيَّن منزلته وفضله وما له من أثر في حياة الفرد والمجتمع على السواء.

وفي كتاب الله تعالى آيات كريمة كثيرة تبين منزلة الصدق وفضله، ومن تلكم الآيات:

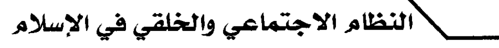
(١) إن الصدق صفة من الصفات التي وصف الله بها نفسه، ومَن أصدق من الله قيلاً؟! ومن أصدق من الله حديثًا؟! قال تعالى:

---

(١) رسالة المسترشدين: للحارث المحاسبي، ص١٧٠.

(٢) بصائر ذوي التمييز: ٣/ ٣٩٦، خُلق المسلم: للغزالي، ص١٥، وسائل الإصلاح: للخضر حسين، ٢/ ٩٦.

(٣) إصلاح المنطق: لابن السكيت، ص١٨، بصائر ذوي التمييز: ٣/ ٣٩٧.




﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿وَآتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾[2].

(٢) إن الصدق من صفات الأنبياء والمرسلين؛ قال تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[3]، وقال سبحانه: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾[4]، وكذلك وصفه الكثير من الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام بالصدق.

(٣) إنه من صفات الأتقياء؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[5].

(٤) وعد الله الصادقين بالمغفرة والأجر والفوز العظيم في الآخرة؛ قال سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[6].

وفي سنَّة رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة تدلُّ على فضل الصدق ومنزلته؛ ومن ذلك:

---

(١) سورة آل عمران: الآية (٩٥).

(٢) سورة الحجر: الآية (٦٤).

(٣) سورة الزمر: الآية (٣٣).

(٤) سورة مريم: الآية (٤١).

(٥) سورة الحجرات: الآية (١٥).

(٦) سورة الأحزاب: الآية (٣٥).

(١) ما رُوي عن عبد الله بن عمرو (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما زال الرجل يصدق ويتحرى الصدق؛ حتى يُكتب عند الله صديقًا، وإياكم والكذب؛ فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب؛ حتى يُكتب عند الله كذابًا»[١].

(٢) ما رُوي عن عبد الله بن عمرو (رضي الله عنهما) أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ما عمل الجنة؟ قال: «الصدق؛ إذا صدق العبد برَّ، وإذا برَّ آمن، وإذا آمن دخل الجنة»، قال: يا رسول الله، وما عمل النار؟ قال: «الكذب؛ إذا كذب العبد فجر، وإذا فجر كفر، وإذا كفر دخل النار»[٢].

(٣) ما رُوي عن رسول الله ﷺ قال: «تحروا الصدق وإن رأيتم فيه الهلكة؛ فإن فيه النجاة، واجتنبوا الكذب وإن رأيتم فيه النجاة؛ فإن فيه الهلكة»[٣].

فهذه الأحاديث فيها الدلالة القاطعة على الترغيب والترهيب في الصدق والحثِّ عليه.

---

(١) متفق عليه، انظر: صحيح البخاري بشرح فتح الباري، كتاب الأدب، باب قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، ١٠/ ٥٠٨، صحيح مسلم: كتاب البر والصلة، باب قبح الكذب، وحسن الصدق وفضله، ٤/ ٢٠١٣.

(٢) رواه أحمد من رواية ابن لهيعة، انظر: مجمع الزوائد، ١/ ١٤٢.

(٣) كنز العمال: ٣/ ٣٤٥.

وعليك أن تعلم أن الصدق نوعان؛ صدق محمود، وصدق مذموم.

أولاً: الصدق المحمود:

وهو أنواع:

الأول: الصدق القائم على الإخلاص في النية:

وهو أدقُّ أنواع الصدق، فنية المؤمن خير من عمله، وقد بيَّن النبي ﷺ أن جزاء الصدق في النية عظيم[1]؛ يدل على ذلك حديث النبي ﷺ قال: «من سأل الله الشهادة بصدق بلَّغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه!»[2].

الثاني: الصدق في القول:

وهو يكون باللسان؛ إذ هو الوسيلة التي يعبِّر بها الإنسان عما يحسُّ به ويشعر، وقد أُمرنا بالصدق في القول، والابتعاد عن الكذب وقول الزور.. وغير ذلك.

وقد تضافرت الأدلة على وجوب الصدق في القول والبعد عن الكذب؛ ومن ذلك:

- ما رُوي عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟»، قالها: ثلاثًا، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين»، وجلس وكان متكئًا؛ فقال: «ألا وقول الزور...» قال: فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت[3]!
- ما رُوي عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم؛ رجل على فضل

---

(١) إحياء علوم الدين: الغزالي، ١/ ٢٠٢.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب استحباب طلب الشهادة، ٣/ ١٥١٨.

(٣) رواه البخاري في صحيحه، انظر: صحيح البخاري بشرح فتح الباري، كتاب الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور، ٥/ ٢٦٢.

ماء بطريق يمنع منه ابن السبيل! ورجل بايع رجلاً لا يبايعه إلا للدنيا، فإن أعطاه ما يريد وفى له، وإلا لم يف له! ورجل ساوم رجلاً بسلعة بعد العصر، فحلف بالله لقد أعطي بها كذا وكذا، فأخذها»[1].

وأحاديث الباب كثيرة، ونكتفي بما ذكرنا.

الثالث: الصدق في العمل:

ويتحقق بأن يكون عمل المسلم قائمًا علي الصدق في جميع تصرفاته؛ فلا يغش في السلعة، ولا يدلس في البيع، ولا يخدع، ولا يغرر بأحد، بل تكون أعماله صادقة كأقواله[2].

ثانيًا: الصدق المذموم:

ويكون عن طريق النميمة والغيبة، وهذا من الصدق المذموم المنهي عنه، وسيأتي الحديث تفصيلاً عن النميمة والغيبة.

نتائج الصدق:

للصدق نتائج جليلة نذكر منها:

١ - الصدق يدعو صاحبه للجرأة والشجاعة؛ لأنه ثابت لا يتكون؛ ولأنه واثق لا يتردد؛ ولذلك قيل في تعريف الصدق: إنه «القول بالحق في مواطن الهلكة»[3].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه: كتاب الشهادات، باب اليمين بعد العصر، ٥/ ٢٨٥.

(٢) خُلق المسلم: الغزالي، ص١٦.

(٣) تهذيب مدارج السالكين: ص٣٩٩.

٢ - الصدق يجعل صاحبه قوي الإيمان، فقد سأل الصحابة رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، أيكون المؤمن جبانًا ؟ قال: «نعم»، فقيل له: أيكون المؤمن بخيلاً؟ قال: «نعم»، قيل له: أيكون المؤمن كذَّابًا؟ قال: «لا»[(١)].

٣ - الصدق يفرِّج الكرب، وينجي منه، ويزيل الهمَّ، وقد جاء في قصة كعب بن مالك رضي الله عنه؛ وهو أحد الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك بدون عذر.. فقد عاقبهم الرسول ﷺ بنهي الناس عن كلامهم خمسين يومًا، وقد شقَّ ذلك عليهم، واستغل أعداء الإسلام هذه الفرصة؛ فاتصل ملك غسان بكعب، يعرض عليه أن يلجأ إليه فيواسيه، ويترك الإسلام! فرفض كعب، ولما تاب الله عليهم ذهب كعب إلي رسول الله ﷺ وقال له: يا رسول الله، إن الله إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتي ألا أحدِّث إلا صدقًا ما بقيت...[(٢)].

٤ - الصدق يؤدي إلي الهدوء النفسي والطمأنينة القلبية لصاحبه، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: «دع ما يريبك إلي ما لا يريبك؛ فإن الصدق طمأنينة، والكذب ريبة»[(٣)]

٥ - الصدق يزيد صاحبه نباهة ووقارًا، فهو يكون دائمًا موضع ثقة ومحل أمانة.

رذيلة الكذب:

الكذب مذموم، وهو ضدُّ الصدق، وهو من صفات المنافقين[(٤)].

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ مرسلاً، ٢/ ٩٩٠، وانظر: جامع الأصول، رقم ٨١٨٣٠.

(٢) رواه مسلم في صحيحه: كتاب التوبة، ٤/ ٢٠١٢.

(٣) رواه الترمذي في سننه، وقال: حديث حسن صحيح، انظر: الترغيب والترهيب، للمنذري، ٣/ ٥٨٨.

(٤) تاريخ النظريات الأخلاقية وتطبيقها: ص٩٢، كتاب الصمت: ابن أبي الدنيا، ص٢٩٩، الآداب الشرعية: لابن مفلح، ١/ ٤، إحياء عوم الدين: ٥٨٩.

وقد توعَّد الله الكاذبين باللعنة، وجعل الكاذب أظلم الناس؛ يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[1]، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾[2]، ويقول تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾[3].

وللكذب صور كثيرة؛ منها:

- الكذب علي الله، وهو أشد صور الكذب إثمًا، وأعظمه ذنبًا، وقد توعَّد الله تعالى من يكذب عليه بالعقاب الشديد، يقول تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ﴾[4].
- الكذب على الرسول ﷺ؛ وهو كسابقه في الشناعة، وقد حذَّر النبي ﷺ من الكذب عليه فقال: «إن كذبًا عليَّ ليس ككذب على أحد، فمن كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار»[5].
- الكذب بحلف يمين فاجرة يستحل بها مال أخيه، وهناك شهادة الزور، وهناك الكذب في البيع والشراء... إلخ.

والكذب بجميع صوره رذيلة، وهو حرام في الجملة، فعلى الإنسان أن يتحلى بالصدق؛ فالصدق من صفات المؤمنين وأخلاق الصالحين.

---

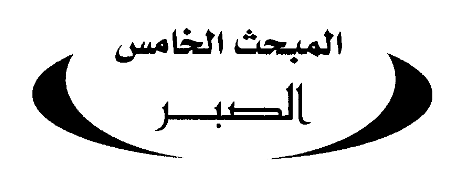
(١) سورة الأنعام: الآية (٢١).

(٢) سورة الزمر: الآية (٣٢).

(٣) سورة غافر: الآية (٢٨).

(٤) سورة النحل: الآية (١١٦).

(٥) الحديث متفق عليه، انظر: جامع الأصول، حديث رقم ٨١٨٦.



الصبر نصف الإيمان، فالإيمان بالله تعالى نصفه صبر ونصفه شكر، وهما وصفان لله تعالى؛ إذ وصف نفسه سبحانه بأنه صبور شكور.

والصبر هو: الوقوف مع البلاء بحسن الأدب[1]، وهو أن يحمل الشخص نفسه على أداء الطاعات، واجتناب المنهيات، وتقبل البلاء برضا وتسليم[2].

والصبر ضرورة للإنسان لما له من قيمة كبيرة دينية ودنيوية، فلا ينتصر دين إلا بالصبر، ولا نجاح في الدنيا إلا بالصبر.

والحياة صراع بين الحق والباطل، ويفوز في هذا الصراع من هو أطول نفسًا، وأكثر صبرًا، ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، فقد بلغ مبلغًا عظيمًا في الصبر، وعلَّم أصحابه والمؤمنين كيف يصبرون[3].

وهذه نماذج تطبيقية من صبره ﷺ:

١ - صبره على الكفار، فبمجرد إخبارهم بأنه نبي رموه بالكذب والكهانة والسحر والجنون؛ فصبر على ذلك كله.

٢ - صبره على أذى بعض الصحابة له؛ كما هو الحال في حادثة الإفك، وغيرها من المواقف، حتى أنه كان يسمع أذى بعضهم؛ فيشقّ عليه ويتغير، ولكن كان يقول: «قد أوذي موسى بأكثر من ذلك فصبر»[4].

---

(١) عدة الصابرين: ص١١، إحياء علوم الدين: ١٢/ ٢٧٦.

(٢) الأخلاق الإسلامية وأسسها: ٢/ ٤٠، مختصر منهاج القاصدين: ص٢٩١.

(٣) الصبر والثواب عليه: ابن أبي الدنيا، ص٢٥، الصبر في القرآن الكريم: د. يوسف القرضاوي، ص٢٢.

(٤) رواه البخاري في صحيحه، انظر: صحيح البخاري بشرح فتح الباري، كتاب الأدب، ١٠/ ٥١٢.

٣ - صبره على موت أحبابه وأصحابه، فقد صبر على موت زوجه خديجة، وعمه أبي طالب، وأبنائه الذكور.

٤ - صبره على المرض: تقول عائشة: «ما رأيت رجلاً أشد عليه الوجع من رسول الله ﷺ»[١].

فضل الصبر وأهميته:

الصبر من أهم الفضائل الخلقية، وتبرز أهميته في عدة أمور هي:

(١) الصبر صفة من صفات الله؛ فالله تعالى هو الصبور، أي الذي لا يعامل العصاة بالانتقام والعقاب، وفي حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله عز وجل؛ إنه ليُشرك به، ويُجعل له الولد، ثم يعافيهم ويرزقهم!»[٢].

(٢) الصبر صفة الأنبياء والمرسلين؛ فقد اشتهر أيوب عليه السلام بالصبر؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[٣]، ووصف غيره من الأنبياء بالصبر؛ قال تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾[٤].

(٣) الصبر من صفات المجاهدين؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٥].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه: كتاب البر والصلة، ٤/ ١٩٠.

(٢) الحديث متفق عليه.

(٣) سورة ص: الآية (٤٤).

(٤) سورة الشورى: الآية (٣٤).

(٥) سورة آل عمران: الآية (٢٠٠).

(٤) جعل الله جزاء الصبر عظيمًا؛ فالصابرين يستحقون البشرى من الله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[١]، ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾[٢]، وقد وعد الله الصابرين بمضاعفة الأجر؛ فقال: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[٣].

(٥) الصبر من عوامل النصر والمدد من الله تعالى؛ قال تعالى: ﴿بَلَى إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾[٤]، ويقول سبحانه: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾[٥].

(٦) للصبر نتيجته وثمرته يوم القيامة؛ يقول الله تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[٦]، ويقول سبحانه: ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾[٧]، ويقول تعالى: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۞ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾[٨].

---

(١) سورة البقرة: الآية (١٥٥).
(٢) سورة آل عمران: الآية (١٤٦).
(٣) سورة القصص: الآية (٥٤).
(٤) سورة آل عمران: الآية (١٢٥).
(٥) سورة آل عمران: الآية (١٢٠).
(٦) سورة المؤمنون: الآية (١١١).
(٧) سورة الإنسان: الآية (١٢).
(٨) سورة الرعد: الآيتان (٢٣، ٢٤).

وصور الصبر كثيرة؛ منها:

(١) الصبر عن شهوات النفي؛ يقول تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾[1].

(٢) الصبر في الدعوة إلى الله تعالى.

(٣) صبر الأزواج بعضهم على بعض وعلى الأولاد.

(٤) الصبر على العبادات؛ وأولها الصلاة، التي هي عبادة متكررة؛ ولذلك أمرنا الله بالصبر على أدائها؛ قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾[2].

(٥) الصبر على البحث العلمي والدراسة، والمثابرة عليها.

(٦) الصبر على الأمراض والأسقام؛ فقد دخل النبي ﷺ على أم السائب، فقال: «ما لك يا أمَّ السائب تزفزين؟»، قالت: الحمى، لا بارك الله فيها! فقال: «لا تسبِّي الحمى، فإنها تُذهِب خطايا ابن آدم كما يذهب الكيرُ خبثَ الحديد»[3]، وعن عطاء قال: قال لي ابن عباس رضي الله عنهما: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى، قال: هذه المرأة السوداء؛ أتت النبي ﷺ فقالت: إني أُصرع، وإني أتكشف، فادع الله لي، قال ﷺ: «إن شئتِ صبرتِ ولك الجنة، وإن شئتِ دعوتُ الله أن يعافيك؟»، قالت: أصبر، قالت: فإني أتكشف فادع الله ألاَّ أتكشف، فدعا لها[4].

---

(١) سورة البقرة: الآية (١٥٥).

(٢) سورة طه: الآية (١٣٢).

(٣) رواه مسلم في صحيحه: كتاب البر والصلة، ٤/ ١٩٣.

(٤) رواه البخاري في صحيحه: كتاب المرض، حديث رقم ٥٦٥٢.

(٧) الصبر عن موت الأهل والأحباب، والاسترجاع عند ذلك، فعن أنس ﷺ قال: مرَّ النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر، فقال: «اتقي الله، واصبري»، قالت: إليك عني! فإنك لم تُصَب بمصيبتي، ولم تعرفه، فقيل لها: إنه النبي ﷺ، فأتت النبي ﷺ فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك، فقال: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى»[١].

(٨) الصبر على جميع أنواع المحن والبلاء والمصائب؛ فعن صهيب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «عجبًا لأمر المؤمن! إنَّ أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سرَّاء شكر؛ فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرَّاء صبر؛ فكان خيرًا له»[٢].

فعليك بالصبر، فإنه خُلق المؤمن، واعلم أن الذين عاشوا حياة الصبر ذاقوا لذتها وقطفوا ثمرتها؛ وفي ذلك يقول النبي ﷺ: «ما أعطي أحدٌ عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر»[٣]، وقد وصف رسول الله ﷺ الصبر بقوله: «الصبر ضياء»[٤].

عليك بالصبر الجميل الذي لا جزع فيه ولا شكوى لغير الله[٥]، والصبر الجميل ما كان فيه تمام التوكل على الله، وكمال اليقين به، جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيتَ إن قُتلت في سبيل الله يكفر عني خطاياي؟ قال: «نعم؛ إن قُتلت في سبيل الله وأنت صابر محتسب، مقبل غير مدبر»[٦].

(١) رواه مسلم في صحيحه: كتاب البر والصلة، ٤/ ١٩٣.

(٢) المرجع السابق: كتاب الزهد والرقاق، ٤/ ٢٩٥.

(٣) رواه البخاري في صحيحه: كتاب الزكاة، حديث رقم: ٢٤٦٩.

(٤) رواه مسلم في صحيحه: كتاب الطهارة، ١/ ٢٢٣.

(٥) الجامع لأحكام القرآن: ١٨/ ١٨٣.

(٦) صحيح سنن الترمذي: للألباني، كتاب الإيمان، رقم ٣٢.

المبحث السادس

الرحمــة

تتعدد أنواع المسرَّات وتتباين في الحياة، والواجب الإنساني يوجِب علينا تقوية الأواصر، وإصلاح ذات البين، وإدخال المسرَّة، ومشاركة الإنسان أخاه الإنسان في أفراحه.

وتتعدد أنواع البلاء أيضًا في الحياة، والواجب الإنساني يوجِب علينا أن نمدَّ يد العون؛ من أجل رفع أسباب العذاب والشقاء عن تلك النفوس المعذَّبة؛ لنفتح لها باب الأمل والرجاء والعمل[1].

الإسلام كمنهج رباني لم يكتف برفع العذاب وإزالة أسباب الشقاء عن الناس فقط، بل جاءت الرحمة شاملة لكل كائن حي يمكن أن يشعر بالألم والعذاب[2].

وتعتبر الرحمة من المبادئ الأساسية في الإسلام، وتكمن حقيقتها في كونها رِقَّة في القلب، وعاطفة جياشة، وحساسية في الضمير، تدعو صاحبها وتدفعه إلى بذل المعروف، وإغاثة الملهوف، ومنع التعدي والبغي.

وعلى هذا؛ فالرحمة إذا أردنا أن نضع تعريفًا لها فإنها تعني: «صفة كريمة، وعاطفة إنسانية نبيلة، تبعث على بذل المعروف، وإغاثة الملهوف، وإعانة المحروم، ومنع التعدي والبغي»[3].

---

(١) الأخلاق الإسلامية: عبد الرحمن الميداني، ١/ ٣٦٦، الفضائل الأخلاقية: ص١٧٥.

(٢) دعوة الإسلام: سيد سابق، ص١٧٢، أصول المنهج الإسلامي: ص٤٩٧.

(٣) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: ٣/ ٥٦.

والرحمة في الأساس من أخلاق المسلم، وفي كتاب الله تعالى وأحاديث النبي ﷺ نصوص كثيرة تتحدث عن الرحمة بجميع ألوانها؛ ومنها:

* رحمة الله تعالى في القرآن:

- الرحمة صفة من صفات الله تعالى، فهو الرحمن الرحيم، وقد كتبها سبحانه على نفسه: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾[1]، فهو رحيم بعباده، ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾[2]، ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[3]، ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾.

ونتابع حديث القرآن الكريم عن رحمة الله تعالى؛ لنقف على بعض ما يعرضه من آثار رحمته تعالى، ولنتأمل هذه الآيات:

- قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[4].
- قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[5].
- قال تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ﴾[6].

---

(١) سورة الأنعام: الآية (٥٤).

(٢) سورة الكهف: الآية (٥٨).

(٣) سورة يوسف: الآية (٦٤).

(٤) سورة الزمر: الآية (٥٣).

(٥) سورة الروم: الآية (٢١).

(٦) سورة الشورى: الآية (٢٨).

- قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(١).

وآيات أُخر كثيرة تدلُّ على رحمة الله سبحانه وتعالى.

وإذا أردت رحمة الله تعالى فاعلم أن هناك طرقًا توصل إلى ذلك، وما عليك إلا أن تترسَّم هذه الآيات:

- يقول تعالى:

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(٢).

- يقول تعالى: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(٣).
- يقول تعالى:

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(٤).

- يقول تعالى:

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(٥).

فترسَّم رحمة الله بالذكر، وتلاوة القرآن، والصلاة، والزكاة.. وغيرها.

---

(١) سورة القصص: الآية (٧٣).

(٢) سورة الأعراف: الآية (٢٠٤).

(٣) سورة النمل: الآية (٤٦).

(٤) سورة الأنعام: الآية (١٥٥).

(٥) سورة النور: الآية (٥٦).

* **رحمة الله تعالى في السنة النبوية:**

- ما روي عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «لمَّا خلق الله الخلق كتب في كتابه.. فهو عنده فوق العرش: إنَّ رحمتي تغلب غضبي»(١).
- عن أبي موسى الأشعري ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «إن الله ﷻ يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها»(٢).
- ما روي عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة، فأمسك عنده تسعًا وتسعين رحمة، وأرسل في خلقه كلِّهم رحمة واحدة! ولو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة؛ لم ييأس من الجنة، ولو يعلم المسلم بكل الذي عند الله من العذاب؛ لم يأمن من النار»(٣).
- ما روي عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «يتنزَّل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا، حين يبقى الثلث الأخير، فيقول: من يدعوني فأستجيب له، ومن يسألني فأعطيه، ومن يستغفرني فأغفر له»(٤).

---

(١) رواه مسلم في صحيحه: كتاب التوبة، حديث رقم ٢٧٥١.

(٢) رواه مسلم في صحيحه: كتاب التوبة، حديث رقم ٢٧٥٩.

(٣) رواه البخاري في صحيحه: كتاب الرقاق، حديث رقم ٦٤٦٩.

(٤) رواه البخاري في صحيحه: كتاب التوحيد، ٥/ ١٧٧.

- وفي الحديث القدسي الطويل: يقول رب العزة: «رحمتي سبقت غضبي، وحلمي سبق مؤاخذتي، وعفوي سبق عقوبتي، وأنا أرحم بعبادي من الوالدة بولدها»[1]!

* رحمة النبي ﷺ في القرآن:

رسولنا الكريم هو الرحمة المهداة، والسراج المنير، بعثه الله رحمة للعالمين، لقد ضرب المثل الأعلى في الرحمة، وفي آيات الله تعالى ما يؤكد ذلك:

- يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[2].
- يقول تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[3].
- يقول تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[4].

هذه ومضات من خُلق الرحمة لدى الرحمة المهداة؛ نبينا محمد ﷺ.

نماذج تطبيقية من الرحمة:

عرفنا أن الرحمة صفة من صفات الله تعالى، وصفة من صفات الرسول الكريم ﷺ، ومن ثمَّ يجب أن تكون الخُلق الأساسي للمسلم، وهذه بعض النماذج التطبيقية للرحمة:

---

(١) الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية: المناوي، ص١٧.

(٢) سورة الأنبياء: الآية (١٠٧).

(٣) سورة آل عمران: (١٥٩).

(٤) سورة التوبة: الآية (١٢٨).

أولاً: الرحمة بذوي الأرحام «الأقارب»:

ذوو الأرحام هم الأقارب؛ سواء كانوا يرثونك أم لا ، وقد أمرنا الإسلام بصلة الأقارب، وذلك بتفقُّد أحوالهم، والنفقة عليهم إن أمكن.. وسائر ذلك من أوجه البرِّ التي حثَّ الإسلام عليها[1].

والأرحام الذين يجب صلتهم هم كل من يجمعك وإياه نسب من جهة الأبوة أو الأمومة.

وقد حثَّ القرآن الكريم على صلة الرحم:

- قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[2].
- وقال ﷺ: «إن الله خلق الخلق، حتى إذا فرغ من خلقه، قالت الرحم: هذا مقام العائذ بك من الخطيئة، قال: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى يا رب، قال: فهو لك»، قال رسول الله ﷺ: «فاقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾[3]»[4].
- وقال ﷺ: «من سرَّه أن يُبسط له في رزقه، وأن يُنسأ له في أثره؛ فليصل رحمه»[5].

---

(١) الفضائل الخُلقية: ص١٧٦.

(٢) سورة النساء: الآية (١).

(٣) سورة محمد: الآية (٢٢).

(٤) صحيح البخاري: كتاب الأدب، باب من وصل وصله الله، حديث ٥٩٨٧.

(٥) صحيح البخاري: كتاب الأدب، باب من يُبسط له في الرزق، حديث رقم ٦١٣٨.

وقد تحدثنا آنفًا عن الرحمة بالوالدين، ونتناول بإيجاز أنواعًا من الرحمة بالأقارب:

*** الرحمة بالأولاد:**

ذكورًا كانوا أم إناثًا، فقد اهتم الإسلام بالأولاد من حيث التربية والتنشئة في ضوء الرحمة بهم، ومن الأحاديث الدالَّة على ذلك:

- ما روي أبي سعيد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان له ثلاث بنات، فأدَّبهنَّ، ورحمهنَّ، وأحسن إليهنَّ؛ دخل الجنة»[1].
- ما روي عن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان له ثلاث بنات يؤدبهن، ويكفيهن، ويرحمهن؛ فقد وجبت له الجنة البتة»، قال رجل من القوم: وَثِنْتَيْن يا رسول الله؟ قال: «وَثِنْتَيْن»[2].

وحتى تتحقق الرحمة بالأولاد فعلى الآباء تعليمهم الأخلاق الفاضلة.

*** الرحمة ببقية الأقارب:**

وقد ورد في الرحمة بهم أحاديث كثيرة؛ منها:

- ما روي عن ابن عباس ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «من كانت له أختان فأحسن صحبتهما ما صحبتاه؛ دخل بهما الجنة»[3].
- ما روي عن ابن عمر ﷺ؛ أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني أذنبت ذنبًا عظيمًا، فهل لي من توبة؟ قال: «هل لك من أمٍّ»؟ قال: لا، قال: «فهل لك من خالة؟»، قال: نعم، قال: «فبرَّها»[4].

---

(١) مسند الإمام أحمد: ٣/ ٩٩.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد: ١/ ١٦١.

(٣) رواه الإمام أحمد في المسند: ١/ ٢٣٧.

(٤) سنن الترمذي: كتاب البر والصلة، باب الخالة، حديث رقم ١٩٠٤.

والرحمة بالأقارب واجبة، ويحرم قطعها، فعليك بصلتهم وإن قاطعوك؛ يدل على ذلك حديث أبي هريرة ﷺ، أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني، وأحسن إليهم ويسيئون إليَّ، وأحلم عنهم ويجهلون عليَّ، قال: «لئن كنت كما قلت فكأنما تسفُّهم الملَّ[1]، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك»[2]، وحديث عبد الله بن عمرو ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قُطعت رحمه وصلها»[3].

ثانياً: ذوو الأرحام من غير الأقارب:

لمَّا جاء الإسلام لم يقف بالرحم عند صلة القرابة، بل وسَّعها لتشمل الأخوَّة الدينية؛ أي كل من صار أخًا في دين الله ﷻ؛ يقول تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾[4]، وجعل أساس العلاقة بينهم التراحم؛ فقال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[5]؛ ولذلك فإن الرحمة تتجاوز التراحم بين الأقارب إلى أنواع أخرى؛ هي:

(١) «تسفُّهم الملَّ»: الملُّ: الرماد الحارُّ، والمعنى: كأنما تطعمهم الرمادَ الحارَّ. انظر: شرح النووي، ٤/ ١٩٨١.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي: كتاب البر والصلة، باب صلة الرحم، حديث رقم ٢٥٥٨.

(٣) صحيح البخاري مع فتح الباري: ١٠/ ٤٢٢.

(٤) سورة الأحزاب: الآية (٦).

(٥) سورة الفتح: الآية (٢٩).

*** الرحمة بالعمَّال:**

العمَّال شريحة تمثل طائفة كبيرة من الناس، وقد أمرنا الإسلام بالرحمة بهم وعدم استغلالهم لضعفهم وحاجتهم، وسبب عناية الإسلام بهذه الطائفة أنهم الأكثر في كل مجتمع، والعناية بهم تعود على المجتمع بالنفع والخير[1]، وفي حديث أبي ذر ﷺ قال: يقول رسول الله ﷺ: «هم إخوانُكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن جعل الله أخاه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا يكلِّفه من العمل ما يغلبه، فإن كلَّفه ما يغلبه فلْيُعِنْه عليه»[2].

*** الرحمة باليتيم والصغير:**

اليتامى فئة محرومة في المجتمع، اهتمَّ بها الإسلام، وبيَّن علوَّ فضل من يعول يتيمًا؛ يدلُّ على ذلك ما جاء في حديث سهل بن سعد ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة، وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى»[3]، يقول ابن بطَّال: «حقٌّ على من سمع هذا الحديث أن يعمل به؛ ليكون رفيق النبي ﷺ في الجنة، ولا منزلة في الآخرة أفضل من ذلك»[4].

وكذلك حثَّ الإسلام على معاملة الصغير برفق وحنان وعطف، فالصغير كما يحتاج إلى الغذاء المادي لينمو جسمه، كذلك يحتاج إلى غذاء نفسي[5]؛ ومما يدل على الرحمة بالأطفال حديث أبي هريرة ﷺ قال: قبَّل

---

(١) إسلامنا: سيد سابق، ص٢٥٠.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: كتاب الأدب، ١٠/ ٤٦٦.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي: ٤/ ٢٢٨٧، فتح الباري: ١٠/ ٤٣٧.

(٤) فتح الباري: ١٠/ ٤٣٦.

(٥) الأخلاق الإسلامية: عبد الرحمن الميداني، ٢/ ١٦، أصول المنهج الإسلامي: ص٤٢٩.

النبي ﷺ الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد، ما قبَّلت منهم أحدًا! فنظر إليه رسول الله ﷺ فقال: «من لا يَرحم لا يُرحم»[1]، وحديث عائشة قالت: قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا: أتقبِّلون صبيانكم؟ فقال: «نعم»، قالوا: لكن والله ما نقبِّل! فقال رسول الله ﷺ: «أو أملك[2] إن كان الله نزع من قلوبكم الرحمة؟!»[3].

* الرحمة بالبهائم والرفق بها:

وصلت الرحمة في الإسلام أقصاها حتى نالت البهائم العجماء، فقد حثَّ الإسلام على معاملة الحيوانات معاملة حسنة؛ فنهى عن تعذيبها، والتحريش بينها، ولعن من اتخذ شيئًا منها غرضًا، وأوصى بحسن ذبحها؛ ومن الأحاديث الواردة في ذلك:

- ما رُوي عن ابن عمر (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله ﷺ: «عُذِّبت امرأة في هرَّة حبستها حتى ماتت؛ فدخلت النار، ولا هي أطعمتها وسقتها إذا حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش[4] الأرض»[5].
- وما رُوي عن الشريد ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قتل عصفورًا عبثًا؛ عجَّ[6] إلى الله يوم القيامة يقول: يا رب، إن فلانًا قتلني عبثًا، ولم يقتلني منفعة»[7]!

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، حديث رقم ٥٩٩٧.

(٢) معنى قوله: «**أو أملك**»؛ أي لا أقدر أن أجعل الرحمة في قلبك بعد أن نزعها الله منك، فتح الباري: ١٠/ ٤٣٢٠٦.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري: ١٠/ ٤٣٦.

(٤) «**خشاش الأرض**»: هوامُّ الأرض وحشراتها.

(٥) رواه مسلم في صحيحه: كتاب السلام، باب تحريم قتل الهرَّة، حديث رقم ٢٢٤٢.

(٦) «**عجَّ**»: أي شكا إلى الله بصوت مرتفع، انظر: شرح النووي، ٤ ٢٠٢٢.

(٧) رواه ابن حبان في صحيحه، والنسائي في سننه، انظر: الترغيب والترهيب، ٣/ ٢٠٥.

- ما رُوي عن ابن عباس -رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: « لا تتخذوا شيئًا فيه الروح غرضًا»[1]؛ أي: هدفًا ترمون إليه.
- ما روي عن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يمشي بطريق اشتدَّ عليه العطش، فوجد بئرًا فنزل فيها فشرب، ثم خرج فإذا كلب يلهث، يأكل الثرى من العطش! فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفَّه ماء، ثم أمسكه بفيه حتى رقي، فسقى الكلب! فشكر الله له، فغفر له»، قالوا: يا رسول الله، إن لنا في هذه البهائم لأجرًا؟! فقال: «في كل كبدٍ رطبة أجر»[2].

*** الرحمة تمتدُّ لتشمل الأعداء:**

تمتد الرحمة الإسلامية لتشمل الأعداء، فلقد رأينا كيف كان خُلق النبي ﷺ مع المشركين الذين آذوه ومن معه، وأخرجوهم من مكة، كيف عاملهم عندما فتح الله عليه مكة، تركهم طلقاء وعفا عنهم! وفي سيرة النبي ﷺ نماذج من الرحمة بالأعداء؛ ومن ذلك:

- ما ورد أنه لما أسلم ثُمامة بن أثال؛ سيد أهل اليمامة، قال للرسول ﷺ: «والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليَّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحبَّ الوجوه إليَّ! والله ما كان من دين أبغض إليَّ من دينك، فأصبح دينك أحبَّ الدين إليَّ! والله ما كان من بلد أبغض إليَّ من بلدك، فأصبحك بلدك أحبَّ البلاد إليَّ! وإن خيلك أخذتني وإني أريد العمرة، فماذا ترى؟ فبشَّره رسول الله ﷺ، وأمره أن يعتمر، فلما قدم

---

(١) رواه مسلم في صحيحه: حديث رقم ١٩٥٧.

(٢) رواه مسلم في صحيحه: كتاب السلام، باب فضل سقي البهائم، حديث رقم ٢٢٤٥، وأبو داود في سننه: كتاب الجهاد، حديث رقم ٢٥٥٠.

مكة قال له قائل: صَبَوْتَ؟! قال: لا، بل أسلمت مع محمد، ولا والله لا تأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي ﷺ! وكانت قريش تعتمد على قمح اليمامة، فلما عاد إلى اليمامة نفّذ ما أقسم عليه، فمنع إرسال الحنطة إلى قريش حتى يتبعوا محمدًا ﷺ عن آخرهم، فلما أضرَّ بهم كتبوا إلى رسول الله ﷺ: إن عهدنا بك وأنت تأمر بصلة الرحم، وتحضُّ عليها، وإن ثمامة قد قطع عنا ميرتنا، وأضرَّ بنا، فإن رأيت أن تكتب إليه أن يخلي بيننا وبين ميرتنا فافعل، فكتب إليه رسول الله ﷺ: «أنْ خلِّ بين قومي وبين ميرتهم»[1]!

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب: لابن عبد البر، ٢/ ١٠١.

المبحث السابع

الحثُّ على التواضع والنهي عن الكِبْر

التواضع والكبر خُلقان متضادان؛ الأول من مكارم الأخلاق، مأمور به، حثَّ عليه الإسلام ورغَّب فيه، والآخر منهي عنه، حذَّر منه الإسلام.

والتواضع المأمور به هو: الخضوع للحق، والانقياد له، وتقبُّله ممن قاله[1]، أو هو: اللين وطلاقة الوجه، وعدم تزكية النفس والإعجاب بها[2].

والكِبْر المنهي عنه هو: إعجاب المرء بنفسه، والإعراض عن الناس تكبُّرًا واختيالاً، وفحش القول وبذاءته[3].

الأدلة على الترغيب في التواضع والترهيب من الكِبْر:

رغَّب الإسلام في التواضع وجعله خُلق المسلم، ومن الأدلة على ذلك ما يلي:

(١) قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾[4].

(٢) ما رُوي عن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفوٍ إلا عزًّا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه»[5].

---

(١) تهذيب مدارج السالكين: ص٤٢٨، إحياء علوم الدين: ٤/ ١٤١.

(٢) أصول المنهج الإسلامي: ص٣٣٢، مختصر منهاج الصادقين: ص٢٥١.

(٣) المراجع السابقة.

(٤) سورة النجم: الآية (٣٢).

(٥) رواه مسلم في صحيحه، والترمذي في سننه، انظر: الترغيب والترهيب، ٤/ ٣٤.

(٣)ما رُوي عن عياض بن حمار ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد»[١].

(٤)ما رُوي عن ثوبان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات وهو بريء من الكِبْر والغلول والدَّيْن؛ دخل الجنة»[٢].

وقد رهَّب الإسلام من الكبر، وجعله صفة مذمومة، ونهى عنه، ومن الأدلة على ذلك ما يلي:

(١)قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾[٣]، وقال سبحانه: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾[٥].

(٢) ما رُوي عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله ﷻ: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما ألقيته في النار»[٦].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه: كتاب الجنة وصفة نعيمها، حديث رقم ٢٨٦٥.

(٢) رواه الترمذي، والحاكم وقال: صحيح على شرطهما، انظر: الترغيب والترهيب، ٣/ ٣٥.

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٤٦).

(٤) سورة النحل: الآية (٢٩).

(٥) سورة الزمر: الآية (٦٠).

(٦) رواه ابن ماجة، واللفظ له، وابن حبان في صحيحه، انظر: الترغيب والترهيب، ٤/ ٣٧.

(٣) ما رُوي عن حارثة بن وهب ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا أخبركم بأهل النار؟ كلُّ عُتُلٍّ[1] جوَّاظ[2] مستكبر»[3].

(٤) ما رُوي عن أبي سعيد ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «احتجَّت الجنة والنار، فقالت النار: فيَّ الجبَّارون والمتكبِّرون، وقالت الجنة: فيَّ ضعفاء المسلمين، ومساكينهم، فقضى الله بينهما: إنك الجنة رحمتي، أرحم بك من أشاء، وإنك النار عذابي، أعذِّب بك من أشاء، ولكليكما عليَّ ملؤها»[4].

وغير ذلك من الآيات والأحاديث التي تحثُّ على التواضع وتحضُّ عليه، وتنهى عن الكبر وتنفِّر منه.

ثمرات التواضع:

التواضع من أخلاق المسلمين، ويكفي أن النبي ﷺ كان من سماته التواضع، وإذا ما تحلَّى المسلم بالتواضع جنى من الثمرات ما لا يُحصى[5]؛ ومن هذه الثمرات:

(١) المتواضع يحبُّه الله.

(٢) المتواضع يعترف بالخطأ، ويقبل أعذار الناس.

(٣) التواضع يؤدي إلى الخضوع للحق والانقياد له.

---

(١) العتل: الغليظ الجافي، انظر: المصباح، مادة (عتل)، ومختار الصحاح: مادة (عتل).

(٢) الجوَّاظ: بفتح الجيم وتشديد الواو: الضخم، المختال في مشيته، وقيل: القصير البطين، انظر: لسان العرب، (جوظ)، معجم مقاييس اللغة: (جوظ).

(٣) الحديث متفق عليه، انظر: الترغيب والترهيب، ٤/ ٣٧، ٣٨.

(٤) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، حديث رقم ٢٨٤٧.

(٥) إحياء علوم الدين: ٤/ ١٦٥.

(٤) يكفي المتواضع محبة عباد الله له، ورفع الله إياه.

آثار الكِبْر:

الأخلاق المذمومة تلازم المتكبِّر، وتجعله منبوذًا مطروحًا، ومن آثار الكبر:

(١) أنه سبب للطرد من رحمة الله تعالى، وقد كان سبب طرد إبليس تكبُّره؛ فقال تعالى في شأنه: ﴿**وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ**﴾[(١)].

(٢) أنه سبب لبغض الله لصاحبه؛ قال تعالى: ﴿**إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ * لاَ جَرَمَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ**﴾[(٢)].

(٣) أنه سبب لحرمان الحق، وعمى القلب، والمتكبر على عينيه غشاوة تمنعه من النظر إلى آيات الله في الكون، وهو لا ينظر إلاَّ لنفسه، ولا يشعر إلاَّ بذاته؛ قال تعالى: ﴿**سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ**﴾[(٣)].

(٤) إن الله تعالى قرن بينه وبين الكفر؛ قال تعالى: ﴿**فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ**﴾[(٤)].

---

(١) سورة الحجر: الآية (٣٥).

(٢) سورة النحل: الآيتان (٢٢، ٢٣).

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٤٦).

(٤) سورة ص: الآيتان (٧٣، ٧٤).

(٥) الكبر سبب في سوء الخاتمة؛ قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[1].

(٦) عقوبة المتكبِّر يوم القيامة غشيان الذلِّ له، وشرابه عصارة أهل النار، فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، أن النبي ﷺ قال: «يُحشر المتكبرون أمثال الذَّرِّ يوم القيامة في صور الرجال، يغشاهم الذلُّ من كل مكان، فيساقون إلى سجن في جهنم يسمى «بولس»، تعلوه نار الأنيار، يُسقون من عصارة أهل النار؛ طينة الخبال»[2].

(٧) الكِبْر سبب لبغض خلق الله للمتكبِّر، والكبر يُلحِق بصاحبه من الذلِّ ما الله به عليم؛ قال تعالى: ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾[3].

(٨) الكبر يُدخِل صاحبه جهنم، والمتكبر يعامَل بنقيض قصده في الدنيا؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[4].

وحتى تستأصل هذه الخبيثة (أي خبيثة الكبر) فعليك بالعلاج؛ وهو يتمثل في الإيمان بالله الواحد الأكبر، والتواضع له بعبادته وطاعة أوامره، والخضوع لأحكام دينه، فالإنسان إذا فعل ذلك عن عمق إيمان استطاع أن يكبح جماح نفسه الأمارة بالسوء؛ ولذلك كان أحبَّ لقب إلى رسول الله ﷺ هو عبد الله ورسوله، فقدَّم مقام العبودية على الرسالة حتى يُخضِع نفسه لله سبحانه وتعالى، وهو نموذج لمن يريد رضاء الله وقتل الكبر في نفسه.

---

(١) سورة غافر: الآية (٣٥).

(٢) سنن الترمذي: كتاب صفة القيامة، حديث رقم ٢٤٩٧.

(٣) سورة الأعراف: الآية (١٣).

(٤) سورة غافر: الآية (٦٠).

المبحث الثامن

النهي عن الغيبة والنميمة

إن من أشد الظواهر الاجتماعية سوءًا تلك الآفات المتعلقة باللسان؛ وبخاصة الغيبة والنميمة، حتى أصبح لا يسلم منها إلا القليل النادر من الناس!

ولقد قبَّح الله الغيبة كما قبح النميمة، وصوَّرهما بأبشع الصور تنفيرًا للمؤمنين عنهما.

ونتحدث أولاً عن الغيبة كخلق مذموم، ثم نعقب ذلك بالحديث عن النميمة.

أولاً: الغيبة:

هي ذكْرُك أخاك بما يكره في غيبته[1]، وهي كما عرَّفها رسول الله ﷺ بقوله: «أتدرون ما الغيبة؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذكْرُك أخاك بما يكره»، قيل: أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهتَّه»[2].

والغيبة محرمة بإجماع المسلمين، وقد تضافرت أدلة الشرع على تحريمها؛ وإليك بيان ذلك:

(١) قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾[3].

---

(١) إحياء علوم الدين: ٣/ ١٤٣، أصول المنهج الإسلامي: ص٣٤٦.

(٢) صحيح مسلم: كتاب الأدب، باب تحريم الغيبة، ٤/ ٢٠٩٣، سنن الترمذي: ٤/ ٣٢٨.

(٣) سورة الحجرات: الآية (٢٠).

(٢) قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾[1]؛ قال الزمخشري: «الهَمْزُ: الكسر، واللمْزُ: الطعن، والمراد الكسر من أعراض الناس، والغضُّ منهم، واغتيابهم، والطعن فيهم»[2].

(٣) ما رُوي عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان قلبه! لا تغتابوا المسلمين، ولا تتَّبعوا عوراتهم، فإن من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته»[3]!

(٤) ما رُوي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عُرج بي مررت بقوم لهم أظافر من نُحاس، يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم»[4].

(٥) قال رسول الله ﷺ: «إياكم والغيبة! فإن الغيبة أشدُّ من الزنا، إن الرجل قد يزني فيتوب، فيتوب الله عليه، وإن صاحب الغيبة لا يُغفر له حتى يغفر صاحبه»[5].

(٦) وقد أجمعت الأمة على تحريم الغيبة لما فيها من مخاطر وآفات.

---

(١) سورة الهمزة: الآية (١).

(٢) الكشاف: ٤/ ٢٨١، الجامع: للقرطبي، ١٨/ ٢١٩.

(٣) سنن أبي داود: كتاب الأدب، انظر: عون المعبود، ١٣/ ٢٣٣.

(٤) رواه أبو داود، انظر: عون المعبود، ١٣/ ٢٢٤.

(٥) رواه الطبراني في الأوسط: ١/ ٩٢.

واعلم أن الغيبة لا تقتصر على الذكر باللسان فقط، بل تشمل كل ما يدلُّ عليها؛ من إشارة، أو غمز، ومن صورها: أن تذكر أخاك بالحول أو العمى، أو السواد، أو بالفسق، أو بالعجز، أو بأنه قليل الأدب، أو سارق أو كذَّاب.. ونحو ذلك مما فيه تعرُّض لأعراض الناس[1].

وقد حُرِّمت الغيبة مبالغة في حفظ عِرض الإنسان[2]؛ يقول رسول الله ﷺ: «كلُّ المسلم على المسلم حرام؛ دمه، وماله، وعِرضه»[3]، وزاد ذلك تأكيدًا وتحقيقًا تشبيه عِرض المؤمن بلحمه ودمه، مع المبالغة في ذلك أيضًا بالتعبير عنه بالأخ؛ فقال سبحانه: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾؟!

آثار الغيبة:

للغيبة آثار ضارَّة على الفرد والمجتمع، وأهم هذه الآثار ما يلي:

(١) التعرُّض لسخط الله وغضبه؛ فالمغتاب تطاول بهذه الغيبة على حدود الله تعالى، وإتيان المنكر من القول مما يعرضه لسخط الله وغضبه، كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ قال: «وإن الرجل يتكلم بالكلمة من سخط الله، لا يلقي لها بالاً، يهوي بها في جهنم!»[4].

(٢) قسوة القلب؛ فالمغتاب كثير الكلام بغير ذكر الله، فهو أكَّال للحوم الناس، وقَّاع في أعراضهم، وكما هو معلوم فإن من كثُر كلامه كثُر لغطه وقسا قلبه، ولمثل هذا وغيره من ربهم الويل، كل

---

(١) معالم المجتمع المسلم: ص٣٨، آفات على الطريق: ص٥٣.

(٢) آفات اللسان: ص٣٨، أصول المنهج الإسلامي: ص٣٤٦.

(٣) انظر المرجعين السابقين، الأخلاق الإسلامية: خالد القضاة، ص٢٩٩.

(٤) رواه البخاري في صحيحه: ٨/ ١٢٥، ومالك في الموطأ: ص٦١.

الويل، وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[1].

(٣) الفرقة والتمزق؛ الأمر الذي يؤدي إلى شيوع الفساد، وتمكين العدو من رقابنا، وذلك أن الغيبة تؤدي إلى قول الزور، وقول الزور يؤدي إلى البهتان، والبهتان يؤدي إلى الخصومة، ثم التدابر والفُرقة والقطيعة، وفي هذا يقول سهل بن عبد الله: «من أراد أن يسلم من الغيبة فليسدَّ على نفسه باب الظنون، فمن سلم من الظن سلم من التجسس، ومن سلم من التجسس سلم من الغيبة، ومن سلم من الغيبة سلم من الزور، ومن سلم من الزور سلم من البُهتان»[2].

(٤) العذاب الشديد؛ فالمغتاب يضيع حسناته إن كانت له حسنات، بل تتكاثر عليه السيئات، الأمر الذي يعرِّضه للعذاب الشديد، يقول النبي ﷺ: «أتدرون من المفلس؟»، قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، قال: «إن المفلس من أمتي من أتى بصلاة وصيام وزكاة، وأتى وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دمَ هذا، وضرب هذا! فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه؛ أُخذ من خطاياهم فطُرحت عليه، ثم طُرح في النار!»[3].

---

(١) سورة الزمر: الآية (٢٢).

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان: ٥/ ٣١٥، رقم ٦٧٨٣.

(٣) صحيح مسلم: ٤ / ٩٩٧، رقم ٥٩.

هذه هي الغيبة، وهذا جزاء من يغتاب الناس، وعلى المغتاب أن يكفّر عن غيبته؛ وذلك بالاستغفار لمن اغتابه، فقد قال الرسول الكريم ﷺ: «كفارة من اغتبت أن تستغفر له»[1].

ثانيًا: النميمة:

هي: التحدث عن قوم ليكشف لهم ما يكرهونه، فينقله لغيرهم بعبارة أو إشارة؛ بهدف الإفساد بين الناس وبقصد الفتنة.

وضابط النميمة كما يقول الغزالي: «كشف ما يُكره كشفه؛ سواء كرهه المنقول عنه، أو المنقول إليه، أو كرهه ثالث؛ وسواء كان الكشف بالقول، أو بالكتابة، أو بالرمز، أو بالإيماء، وسواء كان ذلك عيبًا ونقصًا في المنقول عنه، أو لم يكن، بل حقيقة النميمة: إفشاء السرِّ وهتك الستر»[2].

والنميمة محرَّمة بإجماع المسلمين، وقد تضافرت الأدلة الصريحة على تحريمها، وبيَّن الإسلام أنها من الكبائر، ومن الأدلة على تحريمها:

(١) قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۞ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾[3].

(٢) قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾[4]؛ قيل الهمَّاز: النمَّام.

(٣) ما رُوي عن حذيفة رضي الله عنه، أنه بلغه أن رجلاً ينمُّ الحديث، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة نمَّام»[5]، وفي رواية: «لا يدخل الجنة قتَّات»[1]، والقتَّات: هو النمَّام.

---

(١) كنز العمال: ٣/ ٥٨٧.

(٢) إحياء علوم الدين: ٢/ ١٦٢.

(٣) سورة القلم: الآيتان (١٠، ١١).

(٤) سورة الهمزة: الآية (١).

(٥) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم النميمة، ١/ ١٠٣، المسند: للإمام أحمد، ٥/ ٣٩١.



(٤) ما رُوي عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: مرَّ النبي ﷺ على قبرين فقال: «إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير، وإنه لكبير! أمَّا هذا فكان لا يستتر من بوله، وأمَّا هذا فكان يمشي بالنميمة، ثم دعا بعسيب رطب، فغرس على هذا واحدًا وعلى هذا واحدًا، ثم قال: لعله يُخفف عنهما ما لم ييبسا»[٢].

(٥) ما رُوي عن أسماء بنت يزيد قالت: قال النبي ﷺ: «ألا أُخبركم بخياركم؟»، قالوا: بلى، قال: «الذي إذا رؤوا ذُكر الله، ألا أُخبركم بشراركم؟»، قالوا: بلى، قال: «المشاؤون بالنميمة، المفسدون بين الأحبَّة، الباغون للبراء العيب»[٣].

والنميمة من أعظم الذنوب عند الله تعالى، والذي يدفع إليها قد يكون الحسد، وسوء العشرة، ومحبة الشرِّ؛ وذلك كله لأجل الإفساد، وقد يكون سبب النميمة التملُّق لدى ذوي الوجاهة والسلطان؛ إرضاء لهم، أو طمعًا فيما عندهم، والنمَّام فاسق، مردود الشهادة، مبغوض عند الله، إلا أن يتوب.

وعلى الناس أن يبادروا بعدم تصديق النمَّام، وعليهم بزجره وتخويفه الله تعالى والدار الآخرة، وعليهم بغضه، والابتعاد عنه.

وهكذا يهدينا الإسلام إلى نبذِّ الأخلاق الفاسدة، التي من شأنها أن تفتت وحدة الأمة الإسلامية، وتمزِّق الروابط بين أفرادها؛ حرصًا على دعائم القوة التي يجب أن يتَّسم بها المجتمع الإسلامي.

---

(١) متفق عليه، صحيح البخاري: ٧/ ٨٧، صحيح مسلم: ١/ ١٠١.

(٢) صحيح البخاري مع الفتح: كتاب الأدب، باب الغيبة، ١٠/ ٤٦٩، صحيح مسلم: ١/ ٨٦٦.

(٣) المسند: للإمام أحمد، ٦/ ٤٥٧، البخاري في الأدب المفرد: ١/ ٤١٧.



الخاتمة

من خلال دراستنا للنظام الخُلقي في الإسلام خرجنا ببعض النتائج الهامَّة، والتي تبرز بوضوح ميزة النظام الخُلقي الإسلامي وتفرُّده عن غيره من النُّظم الأخلاقية الأخرى.

وفيما يلي تلك النتائج الهامّة:

أولاً: إن التنظيم الأخلاقي الإسلامي لسلوك الأفراد والجماعات ركّز على الجانب المادي والروحي معًا، وينصب في الأساس على دافع الخير والشر والحسن والقبيح، وذلك من خلال القواعد والمبادئ الأساسية المنبثقة من القرآن والسنة.

ثانيًا: إن النظام الخُلقي الإسلامي وضع معايير متعددة لقياس كل عمل أخلاقي، بخلاف النُّظم الأخلاقية التي وضعت لنفسها معيارًا واحدًا، فقد اعتدَّ الإسلام بالعقل، والإرادة، والضمير الديني، والغاية.. كمعايير فاعلة.

ثالثًا: إن الأخلاق الإسلامية تكتسب قيمتها من أربعة روافد؛ متمثلة في: القيمة الإلهية؛ فكل ما يوافق إرادة الله يكون له قيمة عند المؤمن، والقيمة الإنسانية؛ لأن للإنسان قيمة عظمى في الإسلام، والقيمة المادية؛ فالمجتمع الذي يريد أن يحقّق الأخلاق لابد له من قيمة مادية في الكسب، والقيمة النظرية؛ المتمثلة بين الحق والباطل والخير والشر.

رابعًا: إن الأخلاق في نظر الإسلام عبارة عن سلوك صادر من إنسان راشد، يبدأ بنية، ويهدف إلى تحقيق غاية صالحة، تقتضيها المُثل العليا الإسلامية.

خامسًا: إن الإسلام جعل النظام الأخلاقي أساسًا للتكيُّف بالحياة كيفما كانت في أي زمان ومكان؛ وذلك أنه اهتمَّ بروح الأخلاق أكثر مما اهتمَّ بشكلها.

سادسًا: إن الأخلاق الإسلامية لم تكن في يوم من الأيام أخلاقًا جافَّة، وسلوكًا روتينيًّا، لا تمتُّ بصلة إلى القِيم، بل إنها أخلاق جامعة للقيم كلِّها؛ مادية ومعنوية، ومن ثَمَّ كانت سعادة الإنسان مرهونة بهذه الأخلاق.

سابعًا: الإلزام الأخلاقي في الإسلام ومجالاته تصلح لأن تكون دساتير يُحكم بها في جميع النواحي الحياتية؛ سواء كانت اجتماعية، أو سياسية، أو اقتصادية، أو علمية.

ثامنًا: إن الأخلاق الإسلامية أكمل وأصلح أخلاق للحياة الإنسانية، فهي أخلاق تجعل لكل إنسان كرامة، بصرف النظر عن لونه وجنسه واتجاهاته الخاصة.

وهي أخلاق تدعو إلى احترام العهود والمواثيق، وإلى الحكم بالعدل والمساواة، والعمل من أجل رفع مستوى الأمة، وتنهى عن الغدر والخيانة والمحاباة.

وهي أخلاق تدعو إلى العمل الجادِّ، والإتقان، والإبداع، وتنهى عن التكاسل والتواكل.

وهي أخلاق تدعو إلى احترام العقود، وأداء الأمانات، والصدق في القول والعمل، وتنهى عن الاستغلال والغشّ والكذب.

وهي أخلاق تدعو إلى المحبة والمودة والإخاء بين الناس، فـ«خير الناس أنفعهم للناس».

تاسعًا: إنها أخلاق جاء بها البشير النذير، والمبعوث رحمة للعالمين، الذي كمُلت به الأخلاق، وتمت به الرسالات: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾[1].

وبعد؛

فهذا ما يسَّره الله لي جمعه، ووفقني إلى تأليفه وتقديمه في هذا الكتاب، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) سورة المائدة: الآية (٣).

ثبت المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم.

ثانيًا: المصادر والمراجع الأخرى:

(١) الإتحافات السنية في الأحاديث القدسية: للإمام المناوي، المطبعة المنيرية.

(٢) الأحكام السلطانية والولايات الدينية: لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، مطبعة مصطفى الحلبي.

(٣) إحياء علوم الدين: للإمام أبي حامد الغزالي، مطبعة مصطفى الحلبي، ط ثالثة، ١٩٨٥م.

(٤) الأخلاق الإسلامية: د. حسن الشرقاوي، مطبعة مختار، القاهرة.

(٥) الأخلاق في الإسلام: د. كايد قرعوش، دار المناهج، الأردن، ط٢، سنة ٢٠٠١م.

(٦) الأخلاق في الإسلام: د. خالد القضاة، دار المناهج، الأردن، ط٢، سنة ١٤٢٢هـ.

(٧) الأخلاق: أحمد أمين، الناشر، دار الشعب، القاهرة.

(٨) أخلاقنا الاجتماعية: د. مصطفى السباعي، دار الكتاب العربي.

(٩) أخلاقنا: د. ربيع محمد جوهري، دار الفجر الإسلامية، المدينة المنورة.

(١٠) الآداب الشرعية والمنح المرعية: لابن مفلح الحنبلي، مؤسسة قرطبة، القاهرة.

(١١) أدب الدنيا والدين: لأبي الحسن الماوردي، مطبعة صبيح، القاهرة، ١٩٥٤م.

(١٢) الأدب المفرد: للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، دار إحياء التراث العربي.

(١٣) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول: للإمام محمد بن علي الشوكاني، مطبعة الحلبي.

(١٤) الأذكار: محيي الدين بن شرف النووي، دار مصر للطباعة والنشر، القاهرة.

(١٥) أساس البلاغة: محمود بن عمر الزمخشري، دار الشعب، القاهرة، ١٩٦٠م.

(١٦) أسباب النزول: للنيسابوري، مطبعة الفجر.

(١٧) الاستيعاب في معرفة الأصحاب: لابن عبد البر، مطبعة الكليات الأزهرية.

(١٨) الإسلام عقيدة وشريعة: الشيخ محمود شلتوت، دار العلم، بيروت، ط ثالثة.

(١٩) الإسلام والعقل: الشيخ عبد الحليم محمود، دار الكتب الحديثة، القاهرة.

(٢٠) إسلامنا: الشيخ سيد سابق، دار الكتاب العربي، بيروت، ط أولى، ١٩٧٣م.

(٢١) الأشباه والنظائر: للإمام ابن نجيم الحنفي، دار الفكر، دمشق.

(٢٢) الأشباه والنظائر: للإمام جلال الدين السيوطي، مطبعة مصطفى الحلبي، ١٩٥٩م.

(٢٣) اشتراكية الإسلام: د. مصطفى السباعي، مطابع القومية للطباعة، القاهرة.
(٢٤) الإصابة في تمييز الصحابة: لأحمد بن حجر العسقلاني، مطبعة الكليات الأزهرية، مصر.
(٢٥) أصول التشريع الإسلامي: الشيخ علي حسب الله، دار المعارف، مصر.
(٢٦) أصول الفقه: للشيخ الخضري، مكتبة المنار.
(٢٧) أصول المنهج الإسلامي: عبد الكريم العبيد، ط ثانية، ١٩٨٩م.
(٢٨) إعانة الطالبين: للبكري، طبعة ١٩٨٥م.
(٢٩) إعلام الموقعين: للإمام محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، دار الجيل، بيروت، لبنان.
(٣٠) الاعتصام: للإمام أبي إسحاق إبراهيم الشاطبي، مكتبة صبيح، القاهرة.
(٣١) آفات على الطريق: سيد قطب، دار الكتاب العربي.
(٣٢) اقتصادنا: محمد باقر الصدر، دار الفكر، بيروت، ط رابعة، ١٩٧٣م.
(٣٣) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم: لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحرَّاني، مكتبة المنار.
(٣٤) الإيمان والحياة: د. يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، بيروت.
(٣٥) البحر الرائق شرح كنز الدقائق: لابن نجيم الحنفي، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
(٣٦) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع: للإمام علاء الدين ابن مسعود الكاساني الحنفي، مطبعة الإمام، القاهرة.

(٣٧) بداية المجتهد ونهاية المقتصد: لابن رشد الحفيد، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة.

(٣٨) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: مجد الدين محمد الفيروزابادي، المكتبة العلمية، بيروت.

(٣٩) البرُّ والصلة: لابن الجوزي، مكتبة السنة، ط أولى، ١٩٩٣م.

(٤٠) التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول: للشيخ منصور علي ناصف، مطبعة عيسى الحلبي، مصر.

(٤١) تاريخ التشريع الإسلامي: حسن علي الشاذلي، دار الكتاب العربي.

(٤٢) تاريخ التشريع ومراحله الفقهية: د. عبد الله الطريفي، بدون تاريخ.

(٤٣) تاريخ النظريات الأخلاقية وتطبيقها:

(٤٤) تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق: لفخر الدين عثمان بن علي الزيلعي الحنفي، دار المعرفة، بيروت، ط ثانية.

(٤٥) التحرير في قاعدة «المشقة تجلب التيسير»: د. سعيد الزيباري، دار القلم، الكويت.

(٤٦) تحفة المحتاج إلى ألفاظ المنهاج: دار المعرفة، بيروت.

(٤٧) التربية الأخلاقية: د. مقداد يالجن، مكتبة الخانجي، مصر.

(٤٨) التلويح على التوضيح: للإمام التفتازاني، دار الأرقم، بيروت.

(٤٩) الترغيب والترهيب: للإمام المنذري، دار الحديث، القاهرة، ط أولى، ١٩٩٤م.

(٥٠) تسهيل النظر وتعجيل الظفر: للإمام الماوردي، دار النهضة، بيروت، ١٩٨١م.

(٥١) التعريفات: للإمام الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ.

(٥٢) تفسير الفخر الرازي: للإمام محمد بن أبي بكر الرازي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

(٥٣) تفسير آيات الأحكام: للشيخ السايس ورفاقه، مطبعة الحلبي.

(٥٤) التقرير والتحبير: لابن أمير الحاج، دار الفكر، بيروت، لبنان.

(٥٥) تمييز الطيب من الخبيث: عبد الرحمن بن علي الشيباني، بدون.

(٥٦) تنقيح الفصول: للإمام القرافي، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٥٧) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق: لأبي علي أحمد بن يعقوب؛ المعروف بابن مسكويه، مطبعة صبيح، مصر، ١٩٥٩م.

(٥٨) تهذيب مدارج السالكين: لابن القيم، تهذيب: عبد المنعم صالح العلي، طبعة وزارة العدل الكويتية.

(٥٩) الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير: للإمام جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، الطبعة أولى، ١٩٥٤م.

(٦٠) الجامع الكبير: للإمام جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٦١) جامع العلوم والحكم: للإمام ابن رجب الحنبلي، الطبعة الخامسة، ١٩٨٠م.

(٦٢) جامع الأصول: لابن الأثير الجزري، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٣م.

(٦٣) الجامع لأحكام القرآن: لمحمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، طبعة دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٥م.

(٦٤) حاشية ابن عابدين: للشيخ محمد أمين؛ الشهير بابن عابدين، مطبعة عيسى الحلبي، مصر.

(٦٥) حجة الله البالغة: أحمد الدهلوي، دار الكتب الحديثة، القاهرة.

(٦٦) الحسبة في الإسلام: لشيخ الإسلام ابن تيمية، مطبعة المؤيد، الرياض، ١٣١٨هـ.

(٦٧) خصائص التصور الإسلامي ومقوِّماته: سيد قطب، بدون.

(٦٨) الخصائص العامة في الإسلام: د. القرضاوي، مؤسسة الرسالة، ط ثانية، ١٩٨٣م.

(٦٩) الخلافة الرشيدة: للأستاذ عباس العقاد، مؤسسة الرسالة.

(٧٠) الخُلق الكامل: محمد أحمد جاد المولى، مطبعة صبيح، مصر.

(٧١) خُلق المسلم: الشيخ محمد الغزالي، دار الكتب الحديثة، طبعة سابعة، ١٩٦٤م.

(٧٢) الرسالة القشيرية: للإمام القشيري، مطبعة صبيح، ١٩٦٦م.

(٧٣) رسالة المسترشدين: للحارث المحاسبي، تحقيق: أبوغدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب.

(٧٤) رفع الحرج في التشريع الإسلامي: عاطف محفوظ، مطبعة جامعة المنصورة.

(٧٥) روضة الناظر وجنة المناظر: لابن قدامة المقدسي، الرياض.

(٧٦) رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين: الإمام النووي، دار الكتاب العربي، بيروت.

(٧٧) رسائل الإصلاح: الأستاذ الخضر حسين، بدون.

(٧٨) الرقابة على الأموال في الفكر الإسلامي: محمد عبد الحليم عمر، بدون.

(٧٩) سبل السلام شرح بلوغ المرام: للإمام الصنعاني، مطبعة مصطفى الحلبي، طبعة رابعة.

(٨٠) السلوك الاجتماعي في الإسلام: الشيخ حسن أيوب، دار الحديث، القاهرة.

(٨١) سنن ابن ماجة: لأبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، مطبعة عيسى الحلبي، مصر.

(٨٢) سنن أبي داود: للإمام سليمان بن الأشعث السجستاني، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٨٣) سنن الترمذي: للإمام عيسى بن سورة الترمذي، تحقيق: الشيخ أحمد شاكر، دار الحديث، القاهرة.

(٨٤) السيرة النبوية: لابن هشام، تحقيق: السقا والإبياري والشلبي، دار المعرفة، بيروت.

(٨٥) شرح النووي (المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج): للإمام النووي، دار المعرفة، بيروت، ط سابعة.

(٨٦) الشريعة والقانون الوضعي في المجتمعات الإسلامية: د. محمد البهي، مجلة مصر المعاصرة، العدد ٣٦٠، لسنة ١٩٧٧م.

(٨٧) شُعب الإيمان: للإمام أحمد بن الحسين البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٨٨) الشفا بتعريف حقوق المصطفى: القاضي عياض، دار التراث.

(٨٩) الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية): الإمام إسماعيل بن حمّاد الجوهري، دار العلم للملايين، بيروت، طبعة ثانية.



(٩٠) الصبر في القرآن الكريم: د. القرضاوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، طبعة خامسة، ١٩٩١م.

(٩١) الصبر والثواب عليه: ابن أبي الدنيا، دار ابن حزم، بيروت، طبعة أولى، ١٩٩٧م.

(٩٢) صحيح الجامع الصغير: للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، طبعة ثانية، ١٩٨٦م.

(٩٣) صحيح البخاري: للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، دار المعرفة، بيروت.

(٩٤) صحيح مسلم: للإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري، دار المعرفة، بيروت.

(٩٥) صحيح سنن أبي داود: محمد ناصر الدين الألباني، مكتب التربية العربي لدول الخليج، طبعة أولى، ١٩٨٩م.

(٩٦) صحيح سنن الترمذي: محمد ناصر الدين الألباني، مكتب التربية العربي لدول الخليج، طبعة أولى، ١٩٨٨م.

(٩٧) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين: للإمام ابن قيم الجوزية، مكتبة المثنى.

(٩٨) العقيدة الصحيحة: د. محمد بيصار، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٨م.

(٩٩) علم الأخلاق الإسلامية: د. مقداد يالجن، دار عالم الكتب، الرياض، طبعة ثانية، ٢٠٠٣م.

(١٠٠) علم أصول الفقه: الشيخ عبد الوهاب خلاّف، مطبعة النصر، طبعة سابعة، القاهرة، ١٩٥٩م.



(١٠١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري: لشهاب الدين أبي الفضل أحمد بن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت.

(١٠٢) فتح القدير: للإمام الشوكاني، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٩٩٧م.

(١٠٣) فتح القدير على الهداية: كمال الدين محمد بن عبد الواحد؛ الشهير بابن الكمال، دار الفكر، بيروت، طبعة ثانية.

(١٠٤) الفروق: للإمام القرافي، دار المعرفة، بيروت.

(١٠٥) فقه الزكاة: د. يوسف القرضاوي، دار الإرشاد، بيروت، طبعة أولى.

(١٠٦) الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي: د. توفيق الطويل، دار النهضة العربية، القاهرة.

(١٠٧) الفلسفة الخلقية: د. توفيق الطويل، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٧م.

(١٠٨) الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية:

(١٠٩) الفواكه الدواني: لأحمد بن غنيم النفرواي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ.

(١١٠) في المجتمع الإسلامي: الشيخ محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة.

(١١١) في ظلال القرآن: سيد قطب، دار الشروق، ١٩٨٧م.

(١١٢) القاموس المحيط: للإمام مجد الدين الفيروزابادي، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة.

(١١٣) قواعد الأحكام في مصالح الأنام: للعز بن عبد السلام، دار القلم، دمشق.

(١١٤) القواعد الفقهية: لابن رجب الحنبلي، مكتبة الكليات الأزهرية، ١٣٩٢هـ.

(١١٥) قوانين الأحكام الشرعية: لابن جزى، دار الفكر، بيروت.

(١١٦) القيم الخُلقية: د. عادل العوا، طبعة ثانية، مطبعة دمشق.

(١١٧) القيم الخُلقية في الإسلام: د. أحمد ماهر محمود البقري، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية.

(١١٨) كتاب الصمت: لابن أبي الدنيا، مطبعة مصطفى الحلبي.

(١١٩) الكشّاف عن حقائق التنزيل: للإمام محمود الزمخشري، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة، ١٩٨٥م.

(١٢٠) كشّاف القناع عن متن الإقناع: للإمام منصور بن يونس البهوتى، دار المعرفة، بيروت.

(١٢١) كلمات في مبادئ الأخلاق: الشيخ محمد عبد الله دراز، المطبعة العالمية، القاهرة، ١٩٥٣م.

(١٢٢) الكلّيات: لأبي البقاء الكفوي، دار الكتاب العربي.

(١٢٣) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال: للإمام علاء الدين الهندي، دار صادر، بيروت.

(١٢٤) اللباب شرح الكتاب: للشيخ عبد الغني الغنيمي المقدسي، تحقيق: محمود النووي، دار الكتاب العربي، بيروت.

(١٢٥) لسان العرب: للإمام جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، دار المعارف، القاهرة.

(١٢٦) لمحات في الثقافة الإسلامية: د. عمر عودة الخطيب، دار الحديث للطباعة.

(١٢٧) لمحات في وسائل التربية الإسلامية: د. توفيق الطويل.

(١٢٨) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان: الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة.

(١٢٩) مبادئ أساسية لفهم القرآن: لأبي الأعلى المودودي.

(١٣٠) المبدع شرح المقنع: لإبراهيم بن محمد بن عبد الله بن مفلح الحنبلي، المكتب الإسلامي، بيروت.

(١٣١) المبسوط: لشمس الدين الإمام السرخسي، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٩م.

(١٣٢) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: للإمام علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الكتاب العربي، القاهرة، بيروت، ١٤٠٧م.

(١٣٣) مجموع الفتاوى: لشيخ الإسلام ابن تيمية.

(١٣٤) محاضرات في الثقافة الإسلامية: د. محمد أحمد جمال، بدون.

(١٣٥) المحرَّر في الفقه: لمجد الدين أبي البركات، دار الكتاب العربي، بيروت.

(١٣٦) المحلَّى بالآثار: لأبي علي محمد بن حزم الظاهري، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة.

(١٣٧) مختار الصحاح: للإمام فخر الدين الرازي، دار القلم، بيروت.

(١٣٨) مختارات من روائع الأدب العربي: د. عبد السلام سرحان، مطبعة الفجَّالة، القاهرة.

(١٣٩) المذاهب الأخلاقية: د. عادل العوَّا، مطبعة جامعة دمشق، طبعة ثانية.

(١٤٠) مختصر منهاج القاصدين: للإمام ابن قدامة المقدسي، تحقيق: علي الحلبي، دار البيان، دمشق.

(١٤١) مدارج السالكين بين إياك نعبد وإياك نستعين: للإمام ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية.

(١٤٢) المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية: د. عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، بيروت.

(١٤٣) المستصفى في أصول الفقه: للإمام الغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت.

(١٤٤) المسند: للإمام أحمد بن حنبل، دار صادر، بيروت.

(١٤٥) المصباح المنير: أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، دار المعارف.

(١٤٦) معالم في الثقافة الإسلامية: د. عبد الكريم عثمان، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الخامسة عشرة.

(١٤٧) المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية، دار المعارف، القاهرة.

(١٤٨) معجم مقاييس اللغة: لأحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، القاهرة، طبعة أولى، ١٩٦٦م.

(١٤٩) المغني: لابن قدامة المقدسي، مؤسسة الرسالة، بيروت.

(١٥٠) مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج: للشيخ محمد الخطيب الشربيني، مطبعة مصطفى الحلبي.

(١٥١) مقدمة ابن خلدون: مطبعة مصطفى الحلبي.

(١٥٢) المقدمات الممهدات: لابن رشد، مطبعة السعادة، مصر، طبعة أولى.

(١٥٣) المنتقى شرح الموطأ: للإمام الباجي، مطبعة السعادة، مصر.

(١٥٤) منهج التربية الإسلامية: محمد قطب، دار الشروق.

(١٥٥) من توجيهات الإسلام: الشيخ محمود شلتوت.

(١٥٦) الموافقات في أصول الشريعة: الإمام الشاطبي، بيروت، الطبعة الثانية.

(١٥٧) مواهب الجليل: لأبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن المغربي؛ الشهير بالحطّاب، دار الفكر، طبعة ثانية.

(١٥٨) موسوعة أخلاق القرآن: أحمد الشرباصي، دار الرائد العربي، طبعة أولى، ١٩٨١م.

(١٥٩) الموطأ: للإمام مالك بن أنس الأصبحي، مطبعة عيسى الحلبي.

(١٦٠) المذهب: لأبي إسحاق الشيرازي، مطبعة عيسى الحلبي.

(١٦١) ميزان العمل: للشيخ أبي حامد الغزالي، مطبعة صبيح، القاهرة، ١٩٦٣م.

(١٦٢) النظام الاجتماعي: د. محمد حسن، دار النشر الدولي، طبعة أولى.

(١٦٣) النظام الأخلاقي في الإسلام: د. عقلة، مكتبة الرسالة الحديثة، طبعة ثانية.

(١٦٤) نظام الحكومة النبوية: د. عبد الحي الكتاني.

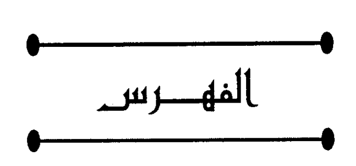
(١٦٥) نظرية الإسلام السياسي: لأبي الأعلى المودودي.

(١٦٦) نهاية السول بشرح منهاج الوصول: الإمام الإسنوي، مطبعة عيسى الحلبي.

(١٦٧) نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج: لشمس الدين الرملي، مطبعة مصطفى الحلبي، ١٩٦٧م.

(١٦٨) هذه أخلاقنا: محمود محمد الخازندار، دار طيبة.

(١٦٩) وظيفة الدين في الحياة وحاجة الناس إليه: د. محمد الزحيلي، دار القلم، دمشق.



رقم الصفحة	الموضوع
٥	المقدمة
١٥	الفصل الأول: مفهوم النُظم وأنواعها، ومفهوم علم الأخلاق والغاية منه
١٦	المبحث الأول: مفهوم النُظم وحاجة الناس إليها
١٧	المطلب الأول: مفهوم النُظم وأنواعها
٢٠	المطلب الثاني: أهمية النظام في الحياة وحاجة الناس إليه
٢٤	المبحث الثاني: مفهوم علم الأخلاق، ويشمل:
٢٤	- تحديد مفهوم كلمة «العلم»
٢٦	- تعريف الأخلاق
٢٧	- مفهوم الأخلاق عند الفلاسفة
٢٨	- الأخلاق في الفلسفة الإسلامية
٣١	المبحث الثالث: مفهوم علم الأخلاق الإسلامية
٣٥	المبحث الرابع: أهمية النظام الأخلاقي الإسلامي
٣٧	المبحث الخامس: الغاية من الأخلاق
٤٥	الفصل الثاني: منزلة الأخلاق في الإسلام
٤٦	تمهيد:
٤٨	المبحث الأول: أهمية الأخلاق في الإسلام

الموضوع	رقم الصفحة
المبحث الثاني: مدي ضرورة الأخلاق ومكانتها في الإسلام	٥٥
المبحث الثالث: ارتباط الأخلاق بالعقيدة والعبادات، وفيه:	٦٤
أولاً: ارتباط الأخلاق بالعقيدة	٦٤
ثانيًا: ارتباط الأخلاق بالعبادات	٦٦
الفصل الثالث: معيار القيم في النُظم الخُلقية المعاصرة وفي الإسلام «مقياس الخير والشر»	٧١
تمهيد:	٧٢
المبحث الأول: معيار القيم في النُظم الأخلاقية المعاصرة	٧٣
المبحث الثاني: معيار القيم في الإسلام	٨٥
- المعايير الأخلاقية الموضوعية	٨٥
- المعايير الأخلاقية الذاتية أو الداخلية	٩٦
الفصل الرابع: تقرير مبدأ الإلزام و الالتزام الأخلاقي	١٠١
تمهيد:	١٠٢
المبحث الأول: الاتجاهات الوضعية المختلفة في الإلزام الأخلاقي	١٠٤
المبحث الثاني: رأي الإسلام في الإلزام الأخلاقي	١١١
المبحث الثالث: مجالات الإلزام الأخلاقي ودرجاته	١٤١
المبحث الرابع: خصائص الإلزام الأخلاقي في الإسلام	١٤٥
المبحث الخامس: المسؤولية الأخلاقية، وفيه:	١٥٥
- أولاً: مفهوم المسؤولية الأخلاقية والأساس الذي تقوم عليه	١٥٥
ثانيًا: مجال المسؤولية الأخلاقية	١٥٦

الموضوع	رقم الصفحة
- ثالثًا: أقسام المسؤولية الأخلاقية بحسب جزاءاتها	١٦٠
المبحث السادس: أنواع الجزاء الأخلاقي في الإسلام	١٦٥
الفصل الخامس: خصائص النظام الخُلقي في الإسلام	١٧٣
الفصل السادس: نماذج تطبيقية في المجال الخُلقي الإسلامي	١٨٥
تمهيد:	١٨٦
المبحث الأول: التحبُّب إلي الناس	١٨٨
المبحث الثاني: الأمانة	١٩٤
المبحث الثالث: برُّ الوالدين	٢٠١
المبحث الرابع: الصدق	٢٠٨
المبحث الخامس: الصبر	٢١٥
المبحث السادس: الرحمة	٢٢١
المبحث السابع: الحثُّ على التواضع والنهي عن الكِبْر	٢٣٤
المبحث الثامن: النهي عن الغيبة والنميمة	٢٣٩
الخاتمة	٢٤٥
المصادر والمراجع	٢٤٧
الفهرس	٢٦٣